هربرت جورج ويلز

حرب العوالم

رواية



آفاق

ترجمة: شهرت العالم

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

حرب العوالم
رواية مترجمة..

الكاتب: هربرت چورچ ويلز.
ترجمة: شهرت العالم

عن الرواية..

تبدأ الرواية بمكالمة تليفونية بين أحد المسؤولين الروس يتحدثان في إمكانية استكمال محطة طاقة كهرومائية كان قد بدأ إنشاؤها وتوقفت في التسعينيات في بعض قرى سيبيريا. وعندما تقرر استكمالها، يصطدم أهالي القرى هناك بأنهم مضطرون للرحيل من موطنهم الذي صار معرضًا للغرق، ليبدؤوا حياة جديدة تمامًا في المدينة. ومن هنا يظهر صراع ومعاناة أولئك النازحين من الفلاحين البسطاء الذين قد لمسوا في قرى سيبيريا موطنًا صغيرًا يحتضنهم. فكيف يتركون حقولهم وأراضيهم وأكواخهم وحرفهم التي لم يتعلموا غيرها ويبدؤون من الصفر في حياة المدينة؟ وإذا رضوا وأقاموا في شقق المدينة المقدمة لهم من الإسكان، كيف لهم أن يتعايشوا مع حياة الحضر ويختلطوا بأهل المدينة وينخرطوا في حياة لم يعتادوها؟ ناهيك عن كم الذكريات التي سيتركونها لتغرق في القرى ولا يمكن جلبها إلى المدينة، من بيوت وأحباء فى القبور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«ولكن... من سيسكن هذه العوالم، إن أمكن سكناها؟ هل نحن ملوك العالم أم هم؟ وكيف تُصنَع كل الأشياء للبشر؟».

(KEPLER (quoted in The Anatomy of Melancholy

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكتاب الأول

وصول المريخيين

(1)

عشية الحرب

ما كان لأحد أن يصدق، في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، أن هذا العالم كانت تراقبه عن كثب وباهتمام شديد كائنات ذكية تتمتع بذكاء يفوق ذكاء الإنسان، وإن كانت فانية مثله؛ وأن البشر، بينما ينشغلون باهتماماتهم المختلفة، كانوا يخضعون للفحص والدراسة، ربما بالدقة نفسها التي يفحص بها عالِم تحت الميكروسكوب تلك المخلوقات سريعة الزوال التي تتجمع وتتكاثر في قطرة ماء. يتحرك البشر في أنحاء كوكبهم، برضًى لا نهائي عن النفس، منشغلين بشؤونهم الصغيرة، مع شعورهم بالاطمئنان لتصورهم أنهم يسيطرون على المادة. ربما تفعل الكائنات الدقيقة تحت المجهر الشيء نفسه. لم يفكر أحد في عوالم الفضاء القديمة، وأنها قد تشكل مصدرًا يهدد البشر، أو فكر فيها حتى لمجرد رفض فكرة الحياة عليها باعتبارها مستحيلة أو غير محتملة. ومن الطريف أن نتذكر بعض الأفكار والتصورات التي سادت في تلك الأيام التي مضت. كان البشر على كوكب الأرض يتخيلون، في أغلب الأحوال، احتمال وجود بشر آخرين على سطح المريخ، ربما أقل شأنًا منهم وعلى استعداد للترحيب بأي بعثة تصل إليهم. بيد أن عقولًا تُعد بالنسبة لعقولنا مثل عقولنا بالنسبة لعقول الوحوش الفانية –عقولًا كبيرة وهادئة وتفتقر إلى التعاطف– كانت تنظر عبر الفضاء إلى كوكبنا الأرضي بأعينٍ حاسدة، وتضع ببطء وثبات خططها ضدنا. وفي بدايات القرن العشرين، تحطم الوهم وظهرت خيبة الأمل الكبرى.

قلما أحتاج إلى تذكير القارئ أن كوكب المريخ يدور حول الشمس على مسافة تبلغ في المتوسط 140 مليون ميل، وأنه يستقبل من الشمس قدرًا من الضوء والحرارة يصل بالكاد إلى نصف ما يستقبله كوكبنا. وإذا كانت فرضية السديم (1) صحيحة، لا بُدّ أن يكون المريخ أقدم من عالمنا؛ وأن الحياة على سطحه بدأت في مسارها قبل فترة طويلة من توقف انصهار كوكب الأرض. كما أن حجم المريخ بالكاد يصل إلى سُبع حجم كوكب الأرض، وهي الحقيقة التي لا بُدّ أنها أدت إلى تسريع تبريده إلى درجة الحرارة التي تتيح إمكانية بدء الحياة على سطحه. يوجد بالمريخ هواء وماء، وكل ما هو ضرورى لدعم الوجود الحى.

ومع ذلك، لا جدوى من الإنسان؛ فقد أعماه غروره بحيث لم يطرح أي كاتب، حتى نهاية القرن التاسع عشر، أي فكرة عن أن الحياة الذكية ربما تطورت بعيدًا هناك، أو حتى في أي مكان أبعد من مستواها على كوكبنا الأرضي. كما لم يكن مفهومًا بوجه عام أنه بما أن المريخ أقدم من أرضنا، وبمساحة سطحية بالكاد ما تبلغ رُبع مساحة كوكبنا وأبعد منه عن الشمس، فإن ذلك يستلزم بالضرورة أنه ليس فقط أبعد عن بداية الزمن بل أقرب إلى نهايته.

إن الانخفاض الحراري الذي لا بُدّ أن يجتاح كوكبنا في يوم ما، قد أصاب جارنا المريخ منذ زمن بعيد. وعلى الرغم من أن حالته الفيزيائية لا تزال لغزًا إلى حد كبير، فإننا نعرف الآن أن درجة الحرارة في منتصف النهار، حتى في منطقته الاستوائية، تكاد تقترب من أبرد شتاء لدينا. أما هواء المريخ، فهو أخف كثيرًا من هوائنا، كما انكمشت محيطاته إلى أن أصبحت تغطي ثُلث سطحه فقط. ومع بطء تغير فصوله، تتجمع القمم الثلجية الضخمة وتذوب حول أحد قطبيه، وتغمر مناطقه المعتدلة بشكل دوري. وهذه المرحلة الأخيرة من استنفاد الطاقة، التي لا تزال بعيدة تمامًا عنا، تُعد مشكلة يعاني منها سكان المريخ الآن. وقد أدى ضغط الضرورة المباشر إلى شحذ عقولهم، وتعظيم قواهم، وقسوة قلوبهم. وبحثوا عبر الفضاء بأدوات وذكاء بالكاد ما كنا نحلم بمثله، وشاهدوا على أقرب مسافة –

35 مليون ميل فقط من الشمس- نجمة الصباح التي بشرتهم بالأمل، وهي كوكبنا الدافئ، الذي تكسوه النباتات الخضراء والمياه الرمادية، في ظل مناخ غائم أنيق بخصوبته؛ كما شاهدوا لمحات منه، خلال خصلات السحب التي تسبح عبر امتدادات واسعة من البلاد المكتظة بالسكان والبحار الضيقة المزدحمة بالأساطيل.

لا بُدّ أنهم اعتبرونا -نحن البشر، المخلوقات التي تسكن هذه الأرض- غرباء على الأقل وأدنى مرتبة، كما ننظر نحن إلى القرود والليمور (2). يعترف الفكر البشري أن الحياة هي صراع لا يتوقف من أجل البقاء، ويبدو أن هذا أيضًا ما تعتقده عقول المريخيين. لقد اشتدت برودة عالَمهم، بينما لا يزال عالَمنا زاخرًا بالحياة؛ وإنما فقط بحياة من يعتبرهم المريخيون حيوانات أدنى. وفي واقع الأمر، لم يكن شن حرب في اتجاه الشمس سوى مهربهم الوحيد من الدمار الذى أخذ يزحف نحوهم جيلًا بعد جيل.)3(

يبدو أن المريخيين قد حسبوا هبوطهم بدقة مذهلة– فمن الواضح أن علومهم في مجال الرياضيات تتجاوز علومنا كثيرًا– كما يبدو أن استعدادهم كان باتفاق إجماعي تام. ولربما كنا لنرى تراكم الاضطراب لديهم منذ زمن بعيد، في القرن التاسع عشر، لو كانت أدواتنا تسمح بذلك. لقد راقب رجال مثل سكياباريللي (4) الكوكب الأحمر –ومن الغريب أن المريخ كان يُعتبر لعدة قرون نجم الحرب– لكن علماء الفلك لدينا فشلوا في تفسير المظاهر المتقلبة للعلامات التي رصدوها بشكل جيد. لا بُدّ أن المريخيين كانوا يستعدون طوال ذلك الوقت.

في عام 1894، وخلال رصد تقابل (5) الكوكبين، شُوهد ضوء هائل على الجزء المضيء من المريخ؛ وقد شهده أولًا مرصد ليك، ثم مرصد بيروتين في نيس بفرنسا، وبعدها شهده مراقبون آخرون. وقد عرفه القراء الإنجليز للمرة الأولى من عدد مجلة «نيتشر» الصادر بتاريخ 2 أغسطس. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن هذا البريق ربما نتج من إطلاق المدفع الضخم- في الحفرة الواسعة التي تغوص في كوكبهم- الذي انطلقت منه قذائفهم علينا. وشوهدت علامات غريبة، لم تُفسَّر بعد، بالقرب من موقع ذلك الانفجار خلال التقابلين التاليين بين الكوكبين.

اجتاحتنا تلك العاصفة قبل ست سنوات من الآن. ومع اقتراب المريخ من التقابل مع كوكب الأرض، قام لافيل من جزيرة جاوة بوضع أسلاك للتبادل الفلكي بحيث تنبض بذكاء مذهل عند انطلاق هائل لغاز متوهج على الكوكب. وقد حدث ذلك بالفعل نحو منتصف ليل اليوم الثاني عشر؛ لكن المطياف (6)، الذي استخدمه على الفور، أشار إلى كتلة غاز مشتعل، أساسه الهيدروجين، تتحرك بسرعة هائلة نحو كوكب الأرض. وفي حوالي الساعة الثانية عشرة والربع، لم تعُد هذه الكتلة النارية مرئية. وقد شبهها بنفخة لهب هائلة اندلعت فجأة وبعنف خارج الكوكب، «كما تنطلق الغازات المشتعلة من مدفع».

وثبت أن هذه العبارة مناسبة تمامًا. ومع ذلك، لم تذكر صحف اليوم التالي أي شيء من هذا، باستثناء خبر صغير في صحيفة «ديلي تلجراف». وهكذا واصل كوكبنا حياته وهو يجهل أحد أشد المخاطر التي هددت الجنس البشري من قبل. ربما لم أكن لأسمع عن هذا الانفجار على الإطلاق لو لم أقابل أوجيلفي، عالم الفلك المعروف، في قرية أوترشو. فقد أثارت تلك الأخبار حماسه، ومن فرط مشاعره دعاني في تلك الليلة لمشاركته في إلقاء نظرة على الكوكب الأحمر.

وعلى الرغم من كل ما حدث منذ ذلك الحين، لا أزال أتذكر تلك السهرة بوضوح شديد: المرصد الأسود الصامت، المصباح المظلل الذي يلقي ضوءًا خافتًا على الأرض في رُكن الغرفة، ودقات ساعة التلسكوب المنتظمة، والشق الصغير في السقف - عُمق مستطيل تتناثر عبره خطوط من غبار نجمي. كان أوجيلفي يتحرك. لم أستطع رؤيته، وإنما كنت أسمعه. نظرت في التلسكوب، رأيت دائرة من اللون الأزرق الغامق، والكوكب الصغير المستدير يسبح في الفضاء. بدا شيئًا صغيرًا، ساطعًا وساكنًا، وتقطعه خطوط عَرَضية باهتة، واستدارته المثالية مُسطحة قليلًا. لكنه شديد الصغر، بلون فضي دافئ –كأنه رأس دبوس

من الضوء! بدا كأنه يرتجف، لكن التلسكوب –الذي أبقى الكوكب مرئيًا- هو ما كان يهتز بفعل حركة الساعة.

وخلال مشاهدتي، بدا الكوكب يكبر ويصغر، يقترب ويبتعد؛ لكن ذلك كان يرجع ببساطة إلى إجهاد عيني. فالكوكب يبعد عنا بأربعين مليون ميل– أكثر من أربعين مليون ميل من الفراغ. يدرك قلة من الناس ضخامة الفراغ الذى يسبح فيه غبار الكون المادى.

وأتذكر أنني رأيت في الفضاء القريب منه ثلاث نقاط باهتة من الضوء، ثلاثة نجوم أظهرها التلسكوب تبدو بعيدة بلا حدود، يحيط بها ظلام الفضاء الفارغ الذي يتعذر سبر أغواره. تعرفون كيف يبدو هذا السواد في ليلة يفتر فيها ضوء النجوم. وفي التلسكوب، يبدو أعمق بكثير. وجاء الشيء الذي أرسلوه إلينا، الشيء الذي سيجلب لكوكبنا الأرضي قدرًا هائلًا من الصراعات والمصائب والموت؛ جاء الشيء ولم يكن مرئيًا لي لأنه كان بعيدًا جدًّا وصغيرًا، يحلق بسرعة وباطراد عبر تلك المسافة الهائلة. كان يقطع آلاف الأميال كل دقيقة في اتجاهنا. لم أحلم أبدًا بما شاهدت، ولم يوجد على الأرض مَن كان يحلم بتلك القذيفة التى لا تُخطئ الهدف.

شهدت تلك الليلة أيضًا تدفقًا آخر من الغاز ينطلق من الكوكب البعيد. لقد رأيته، رأيت وميضًا ضاربًا إلى الحُمرة عند الحافة، ينطلق بخفة، والكرونومتر (7) يعلن منتصف الليل. وعندئذ، أخبرت أوجيلفي، فأخذ مكاني عند التلسكوب. كانت ليلة دافئة، وشعرت بالعطش. أخذت أمدد ساقي بشكل أخرق وأتحسس طريقي في الظلام، إلى الطاولة الصغيرة التي توجد عليها زجاجة المياه، بينما أوجيلفي يصيح وهو يرى تيار الغاز الذي ينطلق متجهًا نحونا.

في تلك الليلة، شقت قذيفة أخرى غير مرئية طريقها إلى كوكب الأرض قادمة من المريخ، قبل ثانية أو نحو ذلك من انقضاء أربع وعشرين ساعة على القذيفة الأولى. أتذكر كيف جلست على الطاولة في سواد الظلام، مع رؤيتي لبقع خضراء وقرمزية تسبح أمام عيني. تمنيت لو لديَّ أعواد ثقاب لأدخن، ولم أشك كثيرًا في معنى الوميض اللحظي الذي رأيته وكل ما سيجلبه. استمر أوجيلفي في المراقبة حتى الساعة الواحدة صباحًا ثم ترك التلسكوب. أشعلنا المصباح ومشينا إلى منزله. وفي الظلام، كانت قرية أوترشو وبلدة تشيرتسى، ومئات الناس فيهما، ينامون فى سلام.

كانت تكهنات أوجيلفي حول حالة المريخ كثيرة في تلك الليلة، وسخر من الفكرة الشائعة التي تقول إنه مأهول وسكانه يرسلون إشارات إلينا. كانت فكرته أن النيازك قد تتساقط بغزارة على الكوكب، أو أن انفجارًا بركانيًا ضخمًا كان يحدث. وقد أخبرني أنه من غير المرجح أن يتخذ التطور العضوى نفس الاتجاه فى الكوكبين المتجاورين.

قال: «إن فرضية وجود أى كائنات تماثل البشر على المريخ هى واحد فى المليون».

رأى مئات المراقبين اللهب في تلك الليلة والليلة التالية بعد منتصف الليل تقريبًا، ثم مرة أخرى في الليلة التي تلت؛ وهكذا لمدة عشر ليالٍ، لهب في كل ليلة. لم يحاول أحد على كوكب الأرض تفسير سبب توقف القذائف بعد اليوم العاشر. ربما تكون الغازات المصاحبة للانفجار تسببت في إزعاج المريخيين. انتشرت سحب كثيفة من الدخان أو الغبار- يمكن رؤيتها عبر تلسكوب قوي على كوكب الأرض كبقع رمادية صغيرة متذبذبة- خلال نقاء الغلاف الجوى للكوكب، وحجبت ملامحه المألوفة.

استرعت الاضطرابات انتباه الصحف اليومية أخيرًا، وانتشرت التعليقات هنا وهناك، وفي كل مكان، حول تفجر البراكين على المريخ. وأتذكر أن دورية «بَنش»، التي تجمع بين الجد والهزل، استخدمت ذلك على نحو مَرِح في رسومها الكاريكاتورية السياسية. وعلى نحو غير متوقَّع، اتجهت تلك القذائف التي أطلقها المريخيون نحو كوكب الأرض، وها هي تندفع الآن بسرعة عدة أميال في الثانية عبر الفضاء الفارغ، ساعة بساعة، ويومًا بعد يوم، مقتربة أكثر وأكثر. وأكاد لا أصدق الآن غرابة البشر؛ ففي ظل هذا المصير السريع الذي يخيم علينا، لا يزالون يهتمون بمشاغلهم التافهة كالعادة. أتذكر مدى ابتهاج السيد ماركام عندما

حصل على صورة جديدة للكوكب للجريدة المصورة التي كان يرأس تحريرها في تلك الأيام. نادرًا ما يدرك الناس الآن مدى وفرة جرائدنا في القرن التاسع عشر. من ناحيتي، شغلني كثيرًا تعلُّم ركوب الدراجة، كما انشغلت بسلسلة من الأوراق البحثية التي تناقش التطورات المحتملة للأفكار الأخلاقية مع تطور الحضارة.

ذهبت في إحدى تلك الليالي للتنزه مع زوجتي سيرًا على الأقدام (وكانت القذيفة الأولى تبعد بالكاد عشرة ملايين كيلومتر). وتحت ضوء النجوم، شرحت لها علامات دائرة البروج (8)، وأشرت إلى المريخ؛ كان نقطة ساطعة من الضوء الزاحف إلى الذروة، التي تتوجه نحوها الكثير من التلسكوبات. كانت ليلة دافئة. وفي طريق عودتنا إلى البيت، مرت بنا مجموعة متنزهين من بلدة تشيرتسي أو بلدة إيزلوورث، يغنون ويعزفون الموسيقى. كانت النوافذ العليا للمنازل مضيئة، والناس تستعد للنوم. سمعنا أصوات الرنين والهدير لمنارات تحويل القطارات، جاءتنا من محطة السكك الحديدية على بُعد، ثم بدأت تخفت إلى ما يشبه اللحن مع ابتعاد المسافة. أشارت زوجتي إلي سطوع أضواء الإشارات الحمراء والخضراء والصفراء المعلقة فى إطار معدنى فى مواجهة السماء. بدت الأمور آمنة وهادئة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)
نيزك يسقط من السماء

جاءت ليلة سقوط أول نيزك. وقد شُوهد في الصباح الباكر يندفع فوق مدينة وينشستر شرقًا؛ خط من اللهب يتحرك عاليًا في الجو. لا بد أن المئات شاهدوه، واعتبروه شهابًا عاديًّا. وصفه ألبين بأنه يترك خلفه خطًّا أخضر يتوهج لعدة ثوانٍ. وأعلن دينينج، وهو أهم علمائنا في مجال النيازك، أن ارتفاع أول ظهور له كان حوالي تسعين أو مائة ميل. وتصور أنه سقط على الأرض على بُعد حوالى مائة ميل شرقًا.

كنت مستغرقًا في الكتابة في غرفة مكتبي بالمنزل في تلك الساعة. وعلى الرغم من أن النوافذ الفرنسية بغرفتي تواجه قرية أوترشو، والستائر مرفوعة (حيث كنت أحب، في تلك الأيام، التحديق في سماء الليل)، فلم أشهد أي شيء. على أن هذا الشيء، الذي يُعد أغرب الأشياء التي سقطت على كوكبنا على الإطلاق من الفضاء الخارجي، لا بُدّ أنه سقط خلال جلوسي، وكان يمكن أن أراه لو نظرت إلى أعلى أثناء مروره. يقول بعض مَن شاهدوه خلال رحلته: إن صوتًا كالهسهسة كان يصدر منه. لكني لم أسمع شيئًا. ولا بُدّ أن كثيرين في مقاطعات بيركشير، وسووري، وميدلسكس، قد شاهدوا سقوطه؛ وتصوروا غالبًا أن نيزكًا آخر سقط. ولا يبدو أن أحدًا قد انشغل بالبحث عن الكتلة التى سقطت فى تلك الليلة.

بيد أن أوجيلفي المسكين استيقظ في وقت مبكر جدًّا في الصباح وفي ذهنه فكرة العثور عليه؛ ذلك أن أوجيلفي كان قد رأى النيزك وهو يسقط، وكان مقتنعًا أنه موجود في مكان ما في الأرض المشاع التي تقع بين قريتي هورسل وأوترشو وبلدة ووكينج. وقد عثر عليه بالفعل، بعد الفجر بوقت قصير، في موقع لا يبعد عن حُفر الرمال. أحدثت القذيفة ثقبًا هائلًا، وتطاير الرمل والحصى بعنف في كل اتجاه فوق الأرض المشاع، وشكَّلت أكوامًا يمكن رؤيتها على بعد ميل ونصف. اشتعلت النيران في نباتات الخلنج (9) شرقًا، وتصاعد مع الفجر دخان أزرق رقيق.

أما النيزك نفسه، فكان يرقد مدفونًا بالكامل تقريبًا في الرمال، وسط شظايا متناثرة من شجرة شوح (10) اهتزت عند سقوطه وتناثرت إلى شظايا. كان الجزء المكشوف من ذلك الشيء يشبه أسطوانة ضخمة مغلقة، وذات حدود خارجية أخف نتيجة لتغطيتها بطبقة حرشفية سميكة قاتمة اللون. بلغ قطرها حوالي ثلاثين ياردة. اقترب أوجيلفي من الكتلة، وأدهشه حجمها وكذا شكلها؛ نظرًا لأن معظم النيازك مستديرة تمامًا بشكل أو آخر. وكانت لا تزال شديدة السخونة من جرَّاء رحلتها عبر الفضاء، مما حال دون اقترابه منها. وقد عزا الضوضاء المثيرة داخل الأسطوانة إلى عدم تكافؤ التبريد على سطحها؛ ولم يتبادر إلى ذهنه حينذاك أنها قد تكون مجوفة.

ظل أوجيلفي واقفًا عند حافة الحفرة التي أحدثتها هذه الكتلة الأسطوانية، وهو يحدق في مظهرها الغريب، ويدهشه أساسًا شكلها ولونها غير العاديين، ولم يكتشف حتى ذلك الحين أي دليل على طريقة تصميمها. كان الصباح الباكر هادئًا بشكل رائع، ودفء الشمس يعم المكان ويضيء أشجار الصنوبر في اتجاه بلدة ويبريدج. لم يتذكر سماع أصوات أي طيور في ذلك الصباح، ولم يهب النسيم بالتأكيد، بينما كانت أصوات الحركات الخافتة داخل الأسطوانة الساخنة هي الوحيدة المسموعة. كان أوجيلفي يقف وحيدًا على الأرض المشاع.

وفجأة لاحظ بدايةً أن بعض الكلنكر الرمادي -وهو قشرة الرماد التي غطت النيزك- كانت تتساقط من الحافة الدائرية عند النهاية. كانت تتساقط على شكل قشور وتهبط كالمطر على الرمال. وفجأة سقطت قطعة كبيرة، محدثة ضوضاء حادة أثارت ذعره.

ظل لدقيقة غير مُدرِك لما يعنيه هذا. هبط إلى الحفرة، على الرغم من شدة الحرارة،

واقترب من الكتلة لرؤية هذا الشيء على نحو أوضح. كان يتخيل، حتى ذلك الحين، أن عملية تبريد الجسم قد تُفسر الأمر، لكن ما أثار حيرته هو تساقط الرماد من نهاية الأسطوانة فقط.

ثم أدرك أن الجزء العلوي الدائري من الأسطوانة كان يدور ببطء شديد حول جسمها. كانت الحركة تدريجية، فلم يكتشفها إلا من خلال ملاحظة علامة سوداء كانت قريبة منه قبل خمس دقائق، ثم أصبحت الآن في الجانب الآخر من محيط الدائرة. وحتى ذلك الحين لم يفهم معنى ذلك، إلى أن سمع صوت احتكاك مكتومًا، ورأى العلامة السوداء تهتز إلى الأمام لمسافة شبر أو نحو ذلك. وفي لحظة، فهم الأمر. الأسطوانة صناعية، وجوفاء، ونهايتها مغلقة! وشيء ما داخلها يعمل على فتح غطائها العلوى!

قال أوجيلفي: «يا إلهي! يوجد رجل داخلها.. رجال داخلها! تشويهم الحرارة حتى الموت! وهم يحاولون الهروب!».

وعلى الفور ربط أوجيلفى بين هذا الشيء والوميض الذى ظهر على المريخ.

كانت فكرة وجود مخلوق محصور مروعة، لدرجة أنه نسي الحرارة وتقدم نحو الأسطوانة للمساعدة على فتح الغطاء. ولحسن الحظ أن الإشعاع الخافت أوقفه قبل أن يتمكن من حرق يديه فوق المعدن الذي لا يزال متوهجًا. وقف مترددًا للحظة، ثم استدار وخرج مندفعًا من الحفرة، وانطلق راكضًا بسرعة نحو بلدة ووكينج. لا بُدّ أن الساعة الآن السادسة تقريبًا. التقى بسائق عربة تجرها الجياد، وحاول توضيح الأمر؛ لكن الحكاية التي رواها، فضلًا عن مظهره، كانا في غاية الغرابة –سقطت قبعته في الحفرة– لدرجة أن السائق لم يهتم سوى بقيادة العربة ببساطة. لم يحقق نجاحًا أيضًا مع نادل الحانة، الذي كان يفتح أبواب النُّزُل الواقع عند جسر قرية هورسل. ظن النادل أنه مجنون طليق، وحاول حبسه داخل الحانة، لكنه فشل. هدأ أوجيلفي قليلًا. وعندما رأى هندرسون، الصحفي اللندنى، فى حديقته، ناداه عبر سور الحديقة وسأله بطريقة واضحة:

- هندرسون، هل رأيت النيزك الذى سقط الليلة الماضية؟

أجاب هندرسون: «نعم، وماذا فى ذلك؟».

- إنه الآن فى الأرض المشاع عند قرية هورسل.

قال هندرسون: «يا إلهى، سقط نيزك! هذا جيد».

- لكنه شيء أكثر من مجرد نيزك. إنه أسطوانة.. أسطوانة صناعية يا رجل! وهناك شيء داخلها.

وقف هندرسون، وهو ممسك بمجرفته.

وقال: «ماذا؟». كانت إحدى أُذنيه مصابة بالصمم.

أخبره أوجيلفي بكل ما رآه. استغرق هندرسون حوالي دقيقة ليستوعب الأمر. ثم أسقط مجرفته، واختطف سترته، وخرج إلى الطريق. سارع الرجلان بالعودة على الفور إلى الأرض المشاع، ووجدا الأسطوانة لا تزال في الموقع نفسه. لكن الأصوات داخلها قد توقفت الآن، وظهرت دائرة رفيعة من معدن ساطع بين قمة الأسطوانة وجسمها. كان الهواء الذي يدخل أو يخرج عند حافتها يصدر أزيزًا خفيفًا.

أنصتا، وطرقا على المعدن الحرشفي المحترق بعصا. ولمَّا لم يتلقيا أي رد، خلُصا إلى أن الرجل أو الرجال فى داخل الأسطوانة إما فقدوا الوعى وإمَّا موتى.

وبطبيعة الحال، عجز الرجلان تمامًا عن فِعل أي شيء. تبادلا كلمات المواساة والوعود، وعادا إلى البلدة ثانية طلبًا للمساعدة. يمكن للمرء أن يتصورهما والرمال تغطيهما، وهما يركضان متحمسين ومضطربين عبر الشارع الصغير في ضوء الشمس الساطع، في فترة يفتح فيها التجار أبواب محالهم، ويفتح الناس نوافذ غرف نومهم. توجه هندرسون على الفور إلى محطة السكك الحديدية، ليرسل برقية بهذه الأخبار إلى لندن. وكانت المقالات الصحفية قد أعدت عقول الناس لاستقبال الفكرة.

ومع حلول الساعة الثامنة، كان عدد من الفتيان والرجال العاطلين عن العمل قد بدأوا

بالفعل التوجه إلى الأرض المشاع لرؤية «الموتى القادمين من المريخ». كان هذا هو الشكل الذي اتخذته القصة. سمعت ذلك بداية من بائع الصحف حوالي الساعة التاسعة إلا ربع، عندما خرجت لشراء جريدة «ديلي كرونيكل». أصابني ذهول، بطبيعة الحال، ولم أضيّع الوقت، وخرجت على الفور. عبرت جسر قرية أوترشو، متجهًا إلى حفر الرمال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)
فى الأرض المشاع بقرية هورسل

وجدتُ هناك حشدًا صغيرًا، ربما عشرين شخصًا، يحيطون بالحفرة الضخمة التي ترقد فيها الأسطوانة. لقد سبق أن وصفت مظهر تلك الكتلة الضخمة، المطمورة في الأرض. بدا العشب والحصى حولها متفحمًا، كما لو كان انفجار مفاجئ تسبب في احتراقه. ولا شك أن اصطدامه أسفر عن توهج ناري. لم يكن هندرسون وأوجيلفي موجودين. أعتقد أنهما تصورا أنه ما من شيء يمكن القيام به حاليًا، وذهبا لتناول الإفطار في منزل هندرسون.

كان هناك أربعة أو خمسة من الصبية يجلسون على حافة الحفرة وأقدامهم متدلية داخلها، ويتسلون معًا بإلقاء الحجارة على الكتلة العملاقة، لكني أوقفتهم عن ذلك. وبعد أن تحدثت معهم حول هذا الموضوع، بدأوا يلعبون لعبة «اللمس» وهم يدخلون ويخرجون بين مجموعة المشاهدين.

وكان من بين الحشد اثنان من راكبي الدراجات، وبستاني أجير أستعين به أحيانًا، وفتاة تحمل رضيعًا، وجريج الجزار وطفله الصغير، واثنان أو ثلاثة من المتسكعين، وصبية يعملون في جمع كرات لعبة الجولف، وقد اعتادوا التسكع عند محطة السكك الحديدية. كانت الحوارات قليلة. فلم يكن عامة الناس في إنجلترا، ما عدا قلة منهم، على دراية بالأفكار المبهمة في مجال الفلك حينذاك. وكان معظمهم يحدق بهدوء في طرف الأسطوانة الكبير الذي يشبه الطاولة، تلك الأسطوانة التي كانت لا تزال ساكنة في موقعها كما تركها أوجيلفي وهندرسون. وتخيلت خيبة أمل التوقعات الشعبية تجاه كومة الجثث المتفحمة في هذه الكتلة الساكنة. وخلال وجودي، ذهب البعض وجاء البعض الآخر. نزلت إلى الحفرة، وتخيلت أنني سمعت حركة خافتة تحت قدمي. توقف الجزء العلوي من الأسطوانة عن الدوران بالفعل.

لم تتضح لي غرابة هذا الشيء إلا عندما اقتربت منه. للوهلة الأولى لم يكن الأمر أكثر إثارة من عربة انقلبت أو شجرة أسقطتها الرياح على الطريق. بل، في الواقع، ليس حتى إلى هذا الحد. بدت الكتلة كأنها برميل غاز صدئ. تطلّب الأمرُ قدرًا معينًا من المعرفة العلمية لإدراك أن القشور الرمادية لتلك الكتلة ليست أكسيدًا عاديًا، وأن المعدن الأبيض المصفر الذي يلمع في الشق الواقع بين الغطاء والأسطوانة يتميز بلون غير مألوف لنا. ولم يكن لعبارة «من خارج كوكب الأرض» أى معنى لدى معظم المشاهدين.

في ذلك الوقت كان واضحًا تمامًا في ذهني أن هذا الشيء جاء من كوكب المريخ، لكني رأيت أنه من غير المحتمل أن يحتوي على أي مخلوق حي. وتصورت أن عملية فتح الغطاء كانت آلية. فعلى عكس أوجيلفي، ما زلت أعتقد في وجود كائنات على المريخ. قفزت الخيالات إلى ذهني، وتصورت إمكانية احتوائه على مخطوطات، وحجم صعوبات ترجمتها، وما إذا وجدنا داخل الأسطوانة عملات معدنية ونماذج، وما إلى ذلك. على أن حجمها الكبير لم يكن ليؤكد هذه الفكرة. نفد صبري لأراها مفتوحة. ولما لم يحدث أي شيء حتى الساعة الحادية عشرة، عُدت إلى بيتي في منطقة مايبري، وذهني مملوء بكل هذه الأفكار. ووجدت صعوبة فى متابعة العمل على أبحاثى النظرية.

ومع حلول فترة ما بعد الظهيرة، تغير كثيرًا مشهد الأرض المشاع. فقد صدرت الطبعات المبكرة من الصحف المسائية، وأذهلت لندن بعناوين عريضة:

«رسالة من المريخ»..

«قصة مذهلة من بلدة ووكينج».

وغيرها من العناوين المماثلة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت برقية أوجيلفي إلى المرصد

الفلكى قد أثارت جميع المراصد فى الممالك الثلاث.

كان ركاب ست رحلات أو أكثر من محطة بلدة ووكينج يقفون في الطريق بجوار الحفر الرملية، وعربة يد من قرية تشوبهام، وعربة أخرى تجرها الجياد وفاخرة إلى حد ما. هذا بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الدراجات. علاوة على ذلك، لا بُدّ أن عددًا كبيرًا من الناس قد جاء سيرًا على الأقدام من بلدتي ووكينج وتشيرتسي، رغم ارتفاع درجة الحرارة اليوم، بحيث كان الحشد هائلًا، وضم سيدة أو سيدتين بملابس أنيقة، من بين المشاهدين الآخرين.

كان الجو شديد الحرارة، لا توجد سحابة في السماء ولا نسمة هواء، والظل الوحيد هو ظل أشجار الصنوبر القليلة المتناثرة. أُخمِدت نيران نباتات الخلنج المحترقة، لكن الأرض المستوية في اتجاه قرية أوترشو كانت سوداء بقدر ما يمكن للمرء أن يرى، ولا تزال أعمدة الدخان تنبعث منها. أرسل تاجر حلوى مغامر في طريق قرية تشوبهام ابنه بعربة يد محملة بتفاح أخضر وبيرة الزنجبيل.

ذهبت إلى حافة الحفرة، وجدت مجموعة تضم حوالي ستة رجال– هندرسون؛ أوجيلفي؛ ورجلًا طويل القامة أشقر الشعر، علمت فيما بعد أنه ستنت، عالم الفلك الملكي؛ بالإضافة إلى عدد من العمال الذين يحملون معهم مجارف ومعاول. كان ستنت يعطي التوجيهات بصوت واضح ونبرة عالية وهو واقف على الأسطوانة، التي من الواضح أنها أصبحت الآن أكثر برودة؛ وكان وجهه قرمزي اللون ويتصبب عرقًا، ويبدو أن شيئًا قد أغضبه.

لقد انكشف جزء كبير من الأسطوانة، على الرغم من أن نهايتها السفلية كانت لا تزال مطمورة في الأرض. وما إن رآني أوجيلفي بين الحشد المُحدق عند حافة الحفرة، حتى دعانى للنزول، وسألنى إن كنت لا أمانع فى الذهاب لمقابلة لورد هيلتون، مالك الأرض.

قال إن الحشد المتزايد أصبح عائقًا خطيرًا أمام حفرياتهم، لا سيما الصبية. ويريدون إقامة سور حديدي خفيف، يساعد على إبقاء الناس في الخلف. وأخبرني أن الحركة الخافتة لا تزال تُسمَع أحيانًا داخل الأسطوانة؛ لكن العمال فشلوا في فك الغطاء العلوي؛ إذ لم يكن يضم أيَّ مقبض. بدت الأسطوانة سميكة للغاية، وربما كانت الأصوات الخافتة التي سمعناها تمثل لغطًا صاخبًا فى الداخل.

شعرت بسعادة غامرة للقيام بما طلبه، فقد أصبحت أحد المشاهدين المتميزين داخل المنطقة المتوخاة. لم أجد لورد هيلتون في منزله، وقيل لي إن حضوره من لندن متوقعٌ في قطار الساعة السادسة القادم من واترلو. ونظرًا لأن الساعة كانت الخامسة إلا الربع تقريبًا، فقد ذهبت إلى منزلى واحتسيت الشاى، ثم سرت إلى المحطة لاستقباله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(4)
الأسطوانة تنفتح

كانت الشمس تغرب عندما عدت إلى الأرض المشاع. رأيت مجموعات متفرقة تأتي مسرعة من اتجاه بلدة ووكينج، ويعود شخص أو شخصان. تزايد الحشد حول الحفرة، ووقف ربما بضع مئات من الناس كحاجز أسود في مواجهة لون السماء الأصفر الليموني. ارتفعت أصوات، وبدا أن نوعًا من الشجار يدور حول الحفرة. مرت في ذهني تخيلات غريبة. اقتربت، وسمعت صوت ستنت:

- تراجعوا! تراجعوا!

جاء صبي يركض نحوى.

قال لي وهو يمر بجواري: «إنها تتحرك، وينفك الغطاء، ينفك. لا يعجبني ذلك. سأعود إلى البيت، سأعود».

توجهت إلى الحشد. هناك ما يقرب بالفعل من مائتين أو ثلاثمائة شخص يتزاحمون ويتدافعون، ولم تكن السيدة أو السيدتان هناك أقل نشاطًا بأى حال من الأحوال.

صاح شخص: «لقد سقط فى الحفرة!».

قال العديدون: «تراجعوا!».

تحرك الحشد قليلًا، وشققت طريقي خلاله. بدا الجميع متحمسًا. سمعت طنينًا غريبًا من الحفرة.

قال أوجيلفي: «ساعدونا في إبعاد هؤلاء الحمقى. نحن لا نعرف ماذا يوجد داخل هذا الشىء المُحيِّر!».

رأيت شابًّا، أعتقد أنه يعمل في أحد متاجر بلدة ووكينج، يقف على الأسطوانة ويحاول التسلق خارج الحفرة؛ لكن الحشد يدفعه داخلها.

كانت نهاية الأسطوانة تُفك من الداخل. برز مسمار لامع يصل طوله إلى حوالي قدمين. اصطدم بي شخص، وتمكنت بصعوبة من عدم السقوط على قمة المسمار. استدرت، ويبدو أن المسمار خرج حينذاك؛ ذلك أن غطاء الأسطوانة سقط على الحصى في اصطدام رنّان. دفعت الشخص الواقف خلفي بمرفقي، وأدرت رأسي نحو الشيء مرة أخرى. للحظة بدا ذلك التجويف الدائرى أسودَ تمامًا. كان غروب الشمس يؤثر على عينى.

أعتقد أن الجميع توقع رؤية كائن بشري يخرج، ربما شيء يختلف قليلًا عن بشر كوكب الأرض، لكنه بالضرورة بشري. أعلم أنني توقعت ذلك أيضًا. لكني نظرت الآن، ورأيت شيئًا يتحرك داخل الظل: حركات متموجة رمادية اللون، واحدة فوق أخرى، ثم قرصين مضيئين كالعينين. ثم خرج شيء يشبه ثعبانًا رماديًّا صغيرًا، سُمكه يماثل سُمك عصا المشي؛ خرج ملتفًّا من المنتصف، متلويًا، ومتمايلًا فى اتجاهى، ثم خرج آخر.

أصابتني قشعريرة مفاجئة. أطلقَت امرأة خلفي صرخة مدوية. استدرت نصف استدارة وعيناي مثبتتان على الأسطوانة، التي تخرج منها أطراف أخرى كالمجسّات، وبدأت أشق طريقي بعيدًا عن حافة الحفرة. رأيت الدهشة تفسح مكانًا للرعب على وجوه الناس حولي، وسمعت صيحات تعجب مبهمة تأتي من جميع الجوانب. كان الجميع يتحرك إلى الخلف. رأيت عامل المتجر لا يزال يكافح عند حافة الحفرة. وجدت نفسي وحيدًا، ورأيت الناس على الجانب الآخر من الحفرة يهربون، ومن بينهم ستنت. نظرت ثانية إلى الأسطوانة، وتملكنى رعب لا أستطيع السيطرة عليه. تسمَّرت فى مكانى مُحدِّقًا.

أخذت كتلة كبيرة مستديرة رمادية اللون، ربما بحجم دب، ترتفع ببطء ومشقة لتخرج من الأسطوانة. وعندما برزت وسقط عليها الضوء، لمعت مثل الجلد الرطب.

حدقت نحوي بثبات عينان داكنتان كبيرتان. وكانت الكتلة التي أحاطت بهما –رأس

الشيء- مستديرة، ولها وجه، إن جاز التعبير. يوجد فم تحت العينين، ارتجفت حافته الخالية من الشفاه، ولهثت، وسال اللعاب. كان المخلوق كله يلهث وينبض بتشنج. قبضت إحدى مجساته الطرفية الضامرة على حافة الأسطوانة، وتمايل مجس طرفي آخر في الهواء.

إن كل مَن لم يشهد من قبل أي كائن مريخي حي، بالكاد لا يمكنه تخيل الرعب الغريب الذي يثيره مظهره. يتخذ فمه الغريب شكل حرف V مع شفة علوية مدببة، وحواجبه بلا حواف، ولا توجد ذقن تحت الشفة السفلية الشبيهة بالوتد، والفم يرتعش باستمرار، ومجموعات مجسات جورجون (11)، وتتنفس الرئتان باضطراب في جو غريب، فضلًا عن ثِقل الحركة وألمها الواضحين بسبب طاقة الجاذبية الأكبر في كوكب الأرض -وفوق كل شيء، شدة الأعين الهائلة– كان ذلك كله يبدو في آن واحد حيويًا، ومكثفًا، ولا إنسانيًا، ومشوهًا، ووحشيًا. كان هناك شيء فطري في الجلد البني الدهني، شيء كريه يصعب وصفه في البطء الأخرق للحركات المملة. ومنذ اللمحة الأولى لهذا اللقاء الأول، تملكني شعور بالاشمئزاز والرهبة.

وفجأة اختفى الوحش. فقد انقلب على حافة الأسطوانة وسقط في الحفرة، وصدر عن ارتطامه صوت يماثل صوت سقوط كتلة كبيرة من الجلد. سمعته يطلق صرخة غليظة غريبة، وعلى الفور ظهر كائن آخر من هذه المخلوقات بلون داكن فى عُمق ظل الفتحة.

استدرت وركضت بجنون، للوصول إلى أول مجموعة من الأشجار، ربما على بُعد مائة ياردة؛ على أني ركضت بشكل متعرج ومتعثر؛ لأنني لم أستطع إبعاد وجهي عن هذه الأشياء.

توقفت لاهثًا بين بعض أشجار الصنوبر الصغيرة والشجيرات، ومنتظرًا المزيد من التطورات. كانت الدائرة المحيطة بحفر الرمال مليئة بالناس، يقفون مثلي في رعب ودهشة، يحدِّقون في تلك المخلوقات، أو بالأحرى في الحصى المتكدس على حافة الحفرة التي يرقدون فيها. ثم تجدد الرعب، عندما رأيت جسمًا مستديرًا أسود يتمايل صعودًا وهبوطًا على حافة الحفرة. كانت رأس عامل المتجر الذي سقط، لكنها تظهر كجسم أسود قليلًا في مواجهة الشمس الغربية الحارة. تمكن الآن من رفع كتفه وركبته، ثم بدا أنه ينزلق ثانية بحيث لم يعد مرئيًا منه سوى رأسه. وفجأة اختفى، وتخيلت أنني سمعت صرخة خافتة. انتابنى للحظة دافع للعودة ومساعدته، لكن مخاوفى منعتنى.

لم يكن هناك أي شيء مرئي عندئذ تخفيه الحفرة العميقة وكومة الرمل التي نتجت عن سقوط الأسطوانة. وأي شخص يأتي على طول الطريق من تشوبهام أو ووكينج سوف يُذهل من المشهد – حشد متناقص يضم ربما مائة شخص أو أكثر، يقفون في دائرة كبيرة غير منتظمة، في الحفر، ووراء الشجيرات، ووراء البوابات والأسيجة، لا يتحدثون سوى قليلًا؛ ويطلقون صيحات متحمسة، ويحدقون مليًا في أكوام قليلة من الرمال. وقفت عربة بيرة الزنجبيل مهجورة بشكل غريب، سوداء تحت السماء المحترقة؛ واصطفت في حفر الرمال مركبات مهجورة تتغذى خيولها من أكياس العلف المعلقة في أعناقها، أو تنبش الأرض بحوافرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(5)
الشعاع الحرارى

بعد اللمحة التي رأيتها عن المريخيين الذين خرجوا من الأسطوانة التي أتت بهم من كوكبهم إلى كوكب الأرض، شل نوع من الانبهار حركتي. بقيت واقفًا، ونباتات الخلنج ترتفع حتى ركبتى، أُحدِّق فى الكومة التى تخفيهم. كان يتملكنى الخوف والفضول.

لم أجرؤ على العودة إلى الحفرة، لكنني شعرت بشغف للنظر داخلها. ولذلك، بدأت السير في منحنى كبير، باحثًا عن أفضل موقع، وموجهًا بصري باستمرار نحو أكوام الرمل التي أخفت هؤلاء القادمين الجدد إلى أرضنا. وما إن ومضت حزمة من سياط سوداء رقيقة، مثل أذرع الأخطبوط، عند غروب الشمس ثم سُحِبت على الفور، حتى ارتفع بعدها قضيب رفيع، مع تتالي مفصلاته واحدة بعد الأخرى، يحمل في قمته قرصًا دائريًا يدور في حركة متذبذبة. تُرى ماذا يحدث هناك؟

احتشد معظم المتفرجين في مجموعة أو مجموعتين– إحداهما صغيرة في اتجاه بلدة ووكينج، والأخرى مجموعة من الناس في اتجاه قرية تشوبهام. من الواضح أنهم يشاركونني صراعي الذهني. وقف عدد قليل بالقرب مني. اقتربت من رجل –تصورت أنه من جيراني، رغم أنني لم أكن أعرف اسمه– وخاطبته. ولكن يبدو أن الوقت لم يكن مناسبًا لتبادل الحديث.

قال: «يا لهم من وحوش قبيحة! يا إلهي! يا لهم من وحوش قبيحة!»، وظل يكرر العبارة مرارًا وتكرارًا.

قلت: «هل رأيت رجلًا في الحفرة؟»، لكنه لم يرد. بقينا صامتين، ووقفنا نراقب لفترة جنبًا إلى جنب؛ وتصورت أننا نستمد بعض الراحة من وجودنا معًا. ثم غيرت موقعي قليلًا في اتجاه الربوة، مما منحني ميزة الارتفاع بمقدار ياردة أو أكثر. نظرت بحثًا عنه، ووجدته يسير نحو بلدة ووكينج.

لم يحدث أي شيء آخر إلى أن شحب غروب الشمس متحولًا إلى غسق. بدا الحشد الذي يتجمع بعيدًا على اليسار، نحو ووكينج، كأنه ينمو، وسمعت الآن همهمة خافتة آتية منه. تفرقت المجموعة الصغيرة التي كانت تقف في اتجاه قرية تشوبهام. ولم يكن هناك أي إيحاء بحركة فى الحفرة.

وربما كان ذلك، مثل أي شيء آخر، هو ما منح الناس الشجاعة، وأعتقد أن الوافدين الجدد من بلدة ووكينج ساعدوا أيضًا على استعادة الثقة. على أي حال، بدأت حركة بطيئة ومتقطعة عند حفر الرمال، مع حلول الغسق، حركة تبدو تجميعًا للقوى؛ حيث استمر سكون المساء حول الأسطوانة. كانت هيئات رأسية سوداء لأشخاص تتقدم في مجموعات ثنائية وثلاثية وتقف، وتشاهد، ثم تتقدم ثانية، وتنتشر على شكل هلال رفيع غير منتظم، ويحيط طرفاه الرفيعان بالحفرة. بدأت، أنا أيضًا، التحرك نحو الحفرة.

رأيت بعد ذلك بعض سائقي عربات الأجرة وغيرهم، يسيرون بجرأة إلى حفر الرمال، وسمعت قعقعة حوافر الخيول وصرير العجلات. كما رأيت فتى يدفع عربة اليد التي تحتوي على التفاح. ثم رأيت على بُعد ثلاثين ياردة من الحفرة مجموعة صغيرة العدد من الرجال تأتى من اتجاه قرية هورسل، ويلوح الرجل الذى يتقدمهم براية بيضاء.

إنه الوفد القادم للتفاوض. جرت مشاورات سريعة. ولما كان المريخيون مخلوقات ذكية، على الرغم من أشكالهم البغيضة، فقد تقرر أن نوضح لهم، عن طريق الاقتراب منهم مع الاستعانة بالإشارات، أننا أذكياء أيضًا.

رفرفت الراية إلى اليمين أولًا، ثم إلى اليسار. كنت أقف على مسافة بعيدة، بحيث لم أتمكن من التعرف على أي شخص هناك. لكني علمت بعد ذلك أن أوجيلفي، وستنت،

وهندرسون كانوا من بين الآخرين الذين يحاولون التواصل مع المريخيين. تقدمت المجموعة الصغيرة وسحبت معها إلى الداخل، إن جاز التعبير، محيط الدائرة شبه المكتملة الآن من الناس، وتبعتها على مسافات مناسبة هياكل سوداء قاتمة لعدة شخصيات.

انطلقت فجأة ومضة من الضوء، وانبعثت من الحفرة كمية من الدخان الأخضر المضيء فى ثلاث هبات مميزة، انطلقت واحدة تلو الأخرى، إلى الهواء الساكن مباشرة.

كان هذا الدخان (أو ربما الكلمة الأفضل هي اللهب) ساطعًا، لدرجة أن السماء عميقة الزرقة في أعلى والامتدادات الضبابية بنية اللون للأرض المشاع في اتجاه بلدة تشيرتسي، والمملوءة بأشجار الصنوبر السوداء، بدت كأنها أغمق فجأة مع انطلاق تلك الهبات، وظلت أكثر قتامة بعد تشتتها. وفى الوقت نفسه، أصبح صوت الهسهسة الخافت مسموعًا.

وقفت خلف الحفرة تلك المجموعة الصغيرة التي يحمل من في مقدمتها الراية البيضاء، في حالة ذهول من هذه الظواهر– كانت مجموعة صغيرة العدد من الأشكال السوداء العمودية الصغيرة التي تقف على الأرض السوداء. ومع تصاعد الدخان الأخضر، كانت وجوههم تومض بلون أخضر باهت، تلاشى ثانية مع تلاشي الدخان. وببطء تحولت الهسهسة إلى همهمة، ثم إلى ضجيج طويل وصاخب. ثم أخذ شكل مُحدب يظهر من الحفرة ببطء، وبدا شبح شعاع من الضوء يخرج منه.

ومع ومضات من اللهب الفعلي، قفز وهج ساطع من شخص إلى آخر، بين مجموعة متناثرة من الرجال. بدا الأمر كأنَّ تيارًا خفيًّا ارتطم بهم وأطلق لهبًا أبيضَ؛ كأن كل شخص تحول فجأة ولحظيًّا إلى كتلة من النيران.

وعلى ضوء الدمار الذي لحق بهم، رأيتهم يترنحون ويسقطون، ويستدير أنصارهم ويركضون هربًا.

وقفتُ مُحدِّقًا، دون أن أدرك بعد أن هذا هو الموت، يقفز من شخص إلى آخر في هذا الحشد الصغير البعيد. كل ما شعرت به هو أنه كان شيئًا غريبًا جدًّا. وومضة صامتة من الضوء تعمي الأبصار، ورجل يسقط بسرعة ويرقد بلا حِراك. اشتعلت النيران في أشجار الصنوبر مع مرور شعاع الحرارة غير المرئي فوقها؛ وتحولت كل شجيرة جافة إلى كتلة من النيران. وبعيدًا، في اتجاه مدينة نابهيل، رأيت لمحات من الأشجار والأسوار والمباني الخشبية تشتعل فيها النار فجأة.

كان لهيب الموت، ذلك السيف غير المرئي، الذي يتعذر تجنبه، يدور بسرعة وثبات مجتاحًا كل شيء. أدركت أنه يأتي نحوي من ناحية الشجيرات الوامضة التي يلمسها، وأصابتني حالة من الدهشة والذهول شلّت حركتي. سمعت طقطقة النار في حفر الرمال، وأنين حصان همد فجأة. ثم بدا الأمر كما لو أن إصبعًا خفيةً لكنها شديدة الحرارة تتحرك عبر المرج بيني وبين المريخيين؛ وكانت الأرض الداكنة تتشقق وتنفث الدخان، على طول خط منحنٍ وراء حفر الرمال. سقط شيء متحطمًا على مسافة بعيدة ناحية اليسار، حيث يقع الطريقُ من محطة ووكينج إلى الأرض المشاع. توقفت الهسهسة والهمهمة على الفور، وأخذ الكائن الأسود، الشبيه بالقبة، يغيب عن الأنظار وهو يغوص ببطء فى الحفرة.

حدث ذلك كله بسرعة شديدة، جعلتني أقف بلا حراك، مذهولًا ومنبهرًا بومضات الضوء. لو كانت حركة الموت الكاسحة اتخذت دائرة كاملة، لكنت أصبحت حتمًا في عِداد القتلى وأنا أقف مدهوشًا. لكنه تجنبنى، وترك الليل حولى فجأة فى ظلام وغرابة.

بدت الآن الأرض المشاع المتموجة مظلمة إلى حد السواد تقريبًا، باستثناء الأماكن التي كانت طرقها رمادية وشاحبة تحت السماء عميقة الزرقة في فترة مبكرة من الليل. كان الظلام حالكًا، وخلا المكان فجأة من الناس. تكدست النجوم، وكانت السماء ناحية الغرب لا تزال شاحبة ومشرقة، وذات لون أزرق ضارب إلى الخضرة. ظهرت قمم أشجار الصنوبر وأسطح البيوت في قرية هورسل حادة وسوداء في مواجهة الشفق الغربي. كان المريخيون وأجهزتهم غير مرئيين على الإطلاق، باستثناء ذلك الصاري الرقيق الذي تتمايل فوقه مرآتهم المضطربة. لا تزال مناطق من الشجيرات والأشجار المعزولة، المتناثرة هنا وهناك،

متوهجة ويتصاعد منها الدخان. ولا تزال أبراج اللهب تتصاعد، في سكون هواء المساء، من المنازل التى تقع فى اتجاه محطة ووكينج.

لم يتغير أي شيء، إلا الشعور بتلك الدهشة الرهيبة. تلاشت مجموعة البقع الصغيرة السوداء التى كانت تحمل الراية البيضاء من الوجود؛ وبدا لى كأنما سكون المساء لم ينكسر.

تبادر إلى ذهني أنني أقف فوق هذه الأرض المشاع المظلمة، عاجزًا ووحيدًا، ودون حماية. وفجأة شعرت بالخوف، مثل شىء هبط فوقى من الخارج.

بذلت جهدًا لأستدير، وبدأت أركض متعثرًا عبر الأرض المشاع.

لم يكون الخوف الذي اعتراني خوفًا عقلانيًّا، بل كان رعبًا وهلعًا؛ ليس فقط من المريخيين، وإنما من ظلام وسكون كل شيء حولي. أفقدني هذا التأثير الاستثنائي شجاعتي، فركضت باكيًا في صمت كأي طفل. وما إن استدرت، حتى لم أجرؤ على النظر إلى الوراء.

أتذكر أنني شعرت، مقتنعًا تمامًا، بأن هناك مَن يتلاعب بي، إلى حد أنني الآن –وأنا أكاد أصل إلى مكان آمن– أتصور أن هذا الموت الغامض، الذي يتحرك بسرعة الضوء، سيقفز خلفى من الحفرة المحيطة بالأسطوانة، ويقتلنى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(6)
الشعاع الحرارى فى طريق تشوبهام

لا يزال تمكن المريخيين من قتل البشر بهذه السرعة والصمت محل تساؤل. يعتقد الكثيرون أنهم يستطيعون بطريقة ما توليد حرارة شديدة في غرفة غير موصِلة عمليًّا للحرارة على الإطلاق. وأنهم يطلقون هذه الحرارة الشديدة عبر أشعة متوازية في مواجهة أي جسم يختارونه؛ وذلك عن طريق مرآة مصقولة على شكل قطع مكافئ، ذات تركيبة مجهولة، على نحو ما تقوم مرآة القطع المكافئ في فنار بإطلاق شعاع من الضوء. ولكن، لم يُثبِت أحد هذه التفاصيل على الإطلاق. وبغض النظر عن طريقة الإطلاق، من المؤكد أن شعاع الحرارة هو جوهر الموضوع. حرارة، وضوء غير مرئي، بما يختلف عن الضوء المرئي. فالومضات القابلة للاشتعال تتحول إلى لهب عندما تمس أي شيء: الرصاص يسيل كالماء، والحديد يلين، والزجاج يتشقق ويذوب. وعندما يسقط الشعاع على الماء، نجده يتفجر على نحو متقطع متحولًا إلى بخار.

لقد شهدت تلك الليلة سقوط ما يقرب من أربعين شخصًا تحت ضوء النجوم حول الحفرة، وهم متفحمون ومشوهون بحيث لا يمكن التعرف عليهم. وطوال الليل، كانت الأرض المشاع الممتدة من قرية هورسل إلى منطقة مايبرى مهجورة ومشتعلة.

ومن المحتمل أن أخبار المذبحة وصلت إلى تشوبهام وووكينج وأوترشو في الوقت نفسه تقريبًا. فقد أغلقت متاجر ووكينج أبوابها عند وقوع المأساة؛ وأخذ عدد من الناس، من العاملين في المتاجر والمتسوقين وغيرهم، ممن اجتذبتهم القصص التي سمعوها، يسيرون على جسر قرية هورسل وعلى طول الطريق بين الأسيجة التي تصل في النهاية إلى الأرض المشاع. ويمكنك أن تتخيل الشباب المتأنق بعد إرهاق يوم العمل، يتخذون من هذه الحادثة الفريدة، كما يفعلون في أي حادثة فريدة، ذريعة للسير معًا والاستمتاع بمغازلة تافهة. ويمكنك أن تتصور همهمة أصواتهم على طول الطريق خلال الغسق...

وبطبيعة الحال، لم يعرف حتى الآن سوى عدد قليل من الناس في بلدة ووكينج أن الأسطوانة قد انفتحت، على الرغم من أن هندرسون المسكين بعث برسول على دراجة إلى مكتب البريد ليرسل برقية خاصة إلى صحيفة مسائية.

وعندما وصل هؤلاء الأشخاص في مجموعات ثنائية وثلاثية إلى الخلاء، وجدوا أعدادًا صغيرة من الناس يتحدثون بحماس ويحدقون نحو المرآة الدوارة فوق حفر الرمال. ودون شك، انتقل سريعًا الشعور بالإثارة إلى الوافدين الجدد.

في الثامنة والنصف، بعد تدمير بعثة التفاوض، ربما كان الحشد يضم ثلاثمائة شخص أو أكثر في هذا المكان، إلى جانب مَن تركوا الطريق للاقتراب أكثر من المريخيين. وكان هناك أيضًا ثلاثة من رجال الشرطة؛ يمتطي أحدهم جواده، ويبذلون قصارى جهدهم، بناء على تعليمات ستنت، لإبعاد الناس ومنعهم من الاقتراب من الأسطوانة. انطلقت صيحات الاستهجان من الأشخاص الأكثر استهتارًا وإثارة، الذين يعتبرون دائمًا أن أي حشد هو مناسبة للصخب والعبث.

توقع ستنت وأوجيلفي بعض احتمالات الصدام، ولذا أرسلا برقية من هورسل إلى القوات العسكرية، بمجرد ظهور المريخيين، يطلبان فيها المساعدة من سرية جنود لحماية هذه المخلوقات الغريبة من العنف. وبعدها عادا لقيادة ذلك الوضع المشؤوم. يتوافق وصف موتهم، كما رآه الحشد، مع انطباعاتي إلى حد كبير: نفث الدخان الأخضر ثلاث مرات، ونغمة الهمهمة العميقة، وومضات اللهب.

على أن فرصة نجاة هذا الحشد من الناس كانت أقل كثيرًا من فرصتي. ولم ينقذهم سوى ربوة من رمال الأرض المشاع، اعترضت الجزء السفلي من الشعاع الحراري. لو كان

ارتفاع المرآة المكافئة أعلى ببضع ياردات، لما عاش أحد ليحكي الحكاية. لقد رأوا الومضات والرجال يسقطون، ويدًا غير مرئية، كما بدا، تضيء الشجيرات وهي تسرع نحوهم خلال الشفق. ثم تأرجح الشعاع بالقرب من رؤوسهم -مع صوت صفير أعلى من صوت تلك الهمهمة التي تنبعث من الحفرة- وأشعل النار في قمم أشجار الزان التي تصطف على الطريق، وشق الطوب، وحطم النوافذ وحرق إطاراتها، وهدم جزءًا من قمة السطح مثلثة الشكل للمنزل الأقرب من الزاوية وحولها إلى حطام.

وفي وسط أصوات الهدير والهسهسة المفاجئين، ووهج الأشجار المشتعلة، ترنح الحشد المذعور مترددًا للحظات. بدأت الشرارات والأغصان المحترقة تسقط على الطريق، كما بدأت أوراق الشجر المنفردة تنفث اللهب. اشتعلت النيران في القبعات والملابس. ثم صدر صياح من الأرض المشاع. تعالت الصرخات والصيحات، وفجأة جاء شرطي يمتطي جوادًا ويركض صارخًا وسط هذا الارتباك ويداه متشابكتان فوق رأسه.

صاحت امرأة: «إنهم قادمون!». وبشكل متقطع، بدأ كل شخص يستدير ويدفع من يقف خلفه، ليشق لنفسه طريقًا إلى بلدة ووكينج مرة أخرى. كانوا ينسحبون بتهور، كقطيع من الأغنام. كان الحشد يتزاحم عندما يضيق الطريق وتزداد عتمته بين الكومات العالية، ونشب صراع يائس. لم يتمكن الحشد كاملًا من الهرب؛ فهناك ثلاثة أشخاص على الأقل، امرأتان وصبى صغير، سُحِقوا وداستهم الأقدام، وتُرِكوا للموت وسط الرعب والظلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(7)
كيف وصلتُ إلى المنزل؟

لا أتذكر شيئًا من رحلة عودتي إلى المنزل سوى الإجهاد الناتج عن التخبط بين الأشجار والتعثر في نباتات الخلنج التي تنتشر على الأرض المشاع. كان كل شيء حولي ينم عن أهوال المريخيين غير المرئية؛ حيث بدا سيف الحرارة الذي لا يرحم يدور جيئة وذهابًا، ويسطع عاليًا قبل أن يهبط ويسدد إليَّ ضربة تمحوني من الحياة. وصلت إلى الطريق بين مفترق الطرق وقرية هورسل، وركضت على طول هذا الطريق إلى مفترق الطرق.

وأخيرًا، لم أستطع الذهاب إلى أبعد من ذلك؛ فقد أنهكتني قوة مشاعري ورحلتي. ترنحت، وسقطت على جانب الطريق. كان ذلك بالقرب من الجسر الذي يعبر القناة بجوار محطات الغاز. سقطت، ورقدت بلا حراك.

لا بد أنني بقيت هناك لبعض الوقت.

جلست، في حيرة غريبة. بقيت للحظة، ربما، غير قادر على أن أفهم بوضوح كيف جئت إلى هنا. سقط عني رعبي كأنه قطعة من الملابس. ضاعت قبعتي، وانفكت ياقتي عن مشبكها. لم يكن أمامي، قبل دقائق قليلة، سوى ثلاثة أشياء حقيقية: اتساع الليل والفضاء والطبيعة؛ ضعفي وكربي؛ وقرب الموت مني. يبدو الأمر الآن كما لو أن شيئًا ما قد انقلب، وتغيرت وجهة النظر فجأة. لم يحدث انتقال معقول من حالة ذهنية إلى أخرى. عُدت فورًا إلى ذاتي اليومية– مواطنًا محترمًا وعاديًا. كانت الأرض المشاع الصامتة، ودافع رحلتي، ونيران البداية، بمثابة حلم رأيته. وسألت نفسي: هل حدثت هذه الأشياء الأخيرة بالفعل؟ لم أستطع تصديق ذلك.

نهضت، وسرت مترنحًا أعلى المنحدر المائل من الجسر. كان عقلي في ذهول تام. وبدت عضلاتي وأعصابي مستنزَفة. وأجرؤ على القول إنني كنت أترنح كالسكارى. ارتفع رأس فوق القنطرة، ثم ظهرت هيئة عامل يحمل سلة، ويركض بجانبه صبي صغير. مرّ بجواري، متمنيًا لي ليلة سعيدة. كنت أرغب في التحدث إليه، لكني لم أفعل. أجبت على تحيته بتمتمة لا معنى لها، وواصلت سيري فوق الجسر. يتحرك قطار فوق قنطرة مايبري، وقد أخذ الدخان الأبيض المشتعل يتصاعد، وتمضي سلسلة عرباته الطويلة ذات النوافذ المضاءة نحو الجنوب – مُحدثة جلبة وضوضاء، ثم انطلق. تحدثت مجموعة من الناس عند بوابة أحد المنازل، في ذلك الصف الصغير من الجملونات (12) التي تُسمَّى المساكن الشرقية. كان كل شيء حقيقيًا ومألوفًا. أما ما تركته خلفي! فقد كان مخيفًا وخياليًا! وقلت لنفسي إن مثل هذه الأشياء لا يمكن أن تحدث.

ربما أنا رجل صاحب مزاج استثنائي. لا أعرف ما إذا كانت تجربتي عادية. أعاني أحيانًا من أغرب شعور بالانفصال عن نفسي وعن العالم حولي، أشعر أنني أشاهد كل شيء من الخارج، من موقع بعيد لا يمكن تصوره، موقع خارج الزمان، وخارج المكان، بعيدًا عن ضغوط ومأساة ذلك كله. راودني هذا الشعور بقوة في تلك الليلة. وكان هذا جانبًا آخر من حلمي.

لكن المشكلة كانت تكمن في تعارض هذا السكون تمامًا مع الموت السريع الذي يطير هناك على بعد ميلين. صدر ضجيج من محطات الغاز، وكانت جميع المصابيح الكهربائية مضاءة. توقفت عند مجموعة من الناس.

سألتهم: «ما أخبار الأرض المشاع؟».

كان هناك رجلان وامرأة عند البوابة.

قال رجل منهما وهو يستدير: «هه؟».

قلتُ: «ما أخبار الأرض المشاع؟».

سألنى الرجل: «ألم تأتِ من هناك الآن؟».

قالت المرأة عند البوابة: «يبدو الناس سخفاء إلى حد ما بشأن الأرض المشاع. علامَ هذا كله؟».

قلت: «ألم تسمعى عن الرجال القادمين من المريخ؟ المخلوقات القادمة من المريخ؟».

أجابت: «سمعت بما فيه الكفاية، شكرًا»، وضحك الثلاثة.

شعرت بالحماقة والغضب. حاولت، ولم أستطع أن أحكي لهم ما رأيته. ضحكوا ثانية على عباراتى المتقطعة.

قلت: «سوف تسمعون المزيد»، وذهبت إلى بيتى.

ذُهِلت زوجتي عندما رأتني عند المدخل، فقد كان الإنهاك باديًا على مظهري. ذهبت إلى غرفة الطعام، وجلست، وشربت بعض النبيذ. وما إن استجمعت قواي، حتَّى حكيت لها الأشياء التي رأيتها. أعدَّتْ زوجتي طعام العشاء، لكنه برد وظل على الطاولة ولم نلتفت له بينما أروى قصتى.

قلت، لتهدئة المخاوف التي أثرتها: «لكن هناك شيئًا مهمًّا، وهو أنها أبطأ الكائنات الزاحفة التي رأيتها على الإطلاق. قد يبقون بالحفرة، ويقتلون الأشخاص الذين يقتربون منهم، لكنهم لا يستطيعون الخروج منها ... وإنما يثيرون الرعب!».

قالت زوجتى: «لا تقل شيئًا يا عزيزى!»، وهى تقطب حاجبيها وتضع يدها على يدى.

قلت: «مسكين أوجيلفى! لا أستطيع أن أتصور أنه ربما يرقد هناك ميتًا!».

على الأقل لم تجد زوجتي تجربتي غير قابلة للتصديق. وعندما رأيت كيف شحب وجهها، توقفت فجأة.

قالت مرارًا وتكرارًا: «قد يأتون إلى هنا».

ألححت عليها أن تشرب النبيذ، وحاولت طمأنتها.

قلت: «بالكاد يمكنهم التحرك».

بدأت في طمأنتها وطمأنة نفسي بتكرار كل ما قاله لي أوجيلفي عن استحالة إقامة المريخيين على كوكب الأرض. ركزت بوجه خاص على صعوبة الجاذبية؛ فقوة الجاذبية على سطح كوكبنا تبلغ ثلاثة أضعاف الجاذبية على سطح المريخ. ولذلك، يزيد وزن المريخي ثلاث مرات عن وزنه على كوكبه، وإن ظلت قوته العضلية كما هي. ولذا سيكون جسده ثقيلًا كالرصاص. هذه، في واقع الأمر، هي وجهة النظر السائدة. وعلى سبيل المثال، أكدت صحيفتي «التايمز» و«الديلي تلجراف» ذلك في عدديهما الصادرين صباح اليوم التالى؛ وتجاهل كلاهما، تمامًا كما فعلت، تأثيرين واضحين من شأنهما تعديل هذا التصور.

يحتوي الغلاف الجوي لكوكب الأرض، كما نعرف الآن، على كمية من الأكسجين أكثر بكثير، أو من غاز الأرجون أقل بكثير (أيًّا كانت الطريقة التي يحب المرء أن يضعها)، مما يحتويه الغلاف الجوي لكوكب المريخ. وما من شك في أن تأثير التنشيط الناتج عن هذا الفائض من الأكسجين على المريخيين قد أدى إلى تحقيق التوازن مع زيادة أوزان أجسامهم. ومن ناحية أخرى، أغفلنا جميعًا حقيقة أن هذا الذكاء الميكانيكي الذي يتمتع به المريخيون كان بمقدوره تمامًا الاستغناء عن المجهود العضلى عند الضرورة.

على أن تلك النقاط لم تتبادر إلى ذهني حينذاك، فقد كان تفكيري المنطقي منعدمًا في مواجهة الفرص المتاحة للغزاة. وإنما مع النبيذ والطعام، وثقتي أنني على مائدتي، وضرورة طمأنة زوجتى، تنامت إلى حد كبير شجاعتى وشعورى بالأمان.

قلت وأنا أمسك بكأس النبيذ: «لقد تصرفوا بحماقة. إنهم خطرون؛ فما من شك أن الرعب يتملكهم بجنون. ربما كانوا يتوقعون عدم العثور على كائنات حية – ليس كائنات حية ذكية بالتأكيد».

ثم أضفت: «إذا زادت الأمور سوءًا، سوف يقتلهم جميعًا إلقاء قذيفة فى الحفرة».

لا شك أن الإثارة الشديدة للأحداث تركت قدراتي الإدراكية في حالة اضطراب. أتذكر الآن مائدة العشاء تلك بوضوح غريب. لا يزال ينطبع بوضوح في ذاكرتي وجه زوجتي

العزيزة اللطيف يحدق بقلق في وجهي تحت الظل الوردي للمصباح، كما أتذكر مفرش المائدة الأبيض وأثاثها الزجاجي والفضي- ففي تلك الأيام، كان حتى كُتّاب الفلسفة يمتلكون العديد من الكماليات البسيطة- النبيذ القرمزي الأرجواني في كأسي. وفي النهاية، جلست أتناول المكسرات وأدخن سيجارة، آسفًا على تهور أوجيلفي، مع إدانتي لجُبن المريخيين وقصر نظرهم.

ربما فعلت مثل طيور الدودو (13) المحترمة في أعشاشها بعجرفة في موريشيوس، التي تصورتها تناقش وصول تلك السفينة المملوءة ببحارة قساة يبحثون عن أغذية حيوانية: «سننقرهم غدًا حتى الموت يا عزيزتي». لم أكن أعرف أن هذا كان آخر عشاء حضارى تناولته للكثير من الأيام الغريبة والرهيبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(8)
ليلة الجمعة

كانت أكثر الأفكار إثارة للدهشة في ذهني، من بين كل تلك الأشياء الغريبة والعجيبة التي حدثت يوم الجمعة، هو التداخل بين عادات نظامنا الاجتماعي المألوفة والبدايات الأولى لسلسلة من الأحداث من شأنها أن تطيح تمامًا بهذا النظام الاجتماعي. فمن كان ليرسم، في ليلة الجمعة هذه، دائرة نصف قطرها خمسة أميال حول حفر الرمال في ووكينج، أشك أنه كان ليجد إنسانًا واحدًا خارجها تأثرت عواطفه أو عاداته على الإطلاق بسبب القادمين الجدد- إلا إذا كانت تربطه علاقة بستنت أو بالثلاثة أو الأربعة راكبي الدراجات، أو بسكان لندن الذين يرقدون قتلى على الأرض المشاع. لقد سمع الكثيرون عن الأسطوانة، بطبيعة الحال، وتحدثوا عنها في وقت فراغهم؛ لكنها بالتأكيد لم تثر لديهم الإحساس الذى كان يمكن أن يثيره توجيه إنذار أخير بالحرب إلى ألمانيا.

في تلك الليلة، اعتبرت لندن أن برقية هندرسون المسكين، التي تصف الفتح التدريجي للقذيفة، مجرد إشاعة كاذبة. وبعد أن أرسلت صحيفته المسائية برقية لتوثيق الخبر منه، ولم تتلق أى رد –لأنه قُتِل– قررت عدم إصدار طبعة خاصة.

كانت الغالبية العظمى من الناس خاملة، حتى داخل دائرة الأميال الخمسة. وقد سبق أن وصفت سلوك الرجال والنساء الذين تحدثت معهم. كان السكان، في جميع أنحاء المنطقة، يتناولون طعام العشاء، والرجال يرعون الحدائق بعد مشاق عملهم طول اليوم، والأطفال يخلدون إلى النوم، والشباب يتجولون فى الأزقة للمغازلة، والطلاب يستذكرون دروسهم.

ربما توجد همهمة في شوارع القرية، وموضوع جديد ومهيمن في الأماكن العامة، ومبعوث هنا وهناك، أو حتى شاهد عيان على الأحداث الأخيرة، سببت جميعها دوامة من الإثارة والصياح والركض جيئة وذهابًا. لكن الجزء الأكبر من الروتين اليومي -العمل، وتناول الطعام والشراب، والنوم– استمر كما هو منذ سنوات عديدة، كأن كوكب المريخ غير موجود فى السماء. حتى فى محطة ووكينج، وفى قريتى هورسل وتشوبهام، كان هذا هو الحال.

وكانت القطارات عند ملتقى الخطوط في ووكينج تتوقف وتسير، حتى ساعة متأخرة، وبعضها يتحول إلى المسارات الجانبية، والركاب يترجلون وينتظرون، وكل شيء يسير بالطريقة المعتادة. وصبي من المدينة يبيع الصحف التي تحمل أخبار المساء. اختلط رنين حركة عربات القطارات، وصفير محركاتها الحاد عند ملتقى الخطوط، بصيحات الناس «رجال من المريخ!». وصل رجال متحمسون إلى المحطة حوالي الساعة التاسعة بأخبار لا تُصَدق، ولم يتسببوا في أي إزعاج أكثر مما قد يسببه مجموعة من السّكارى. أطلّ ركاب القطار المتجه إلى لندن محدقين في الظلام خارج نوافذ العربات، ولم يروا سوى شرارة وميض تتلاشى متراقصة من اتجاه قرية هورسل، وهج أحمر وساتر رقيق من الدخان يتحركان عبر النجوم، واعتقدوا أنه مجرد حريق شب في الأرض المشاع. لم يكن الاضطراب محسوسًا إلا حول حافة تلك الأرض؛ حيث كانت نصف دزينة من الفيلات تحترق على حدود ووكينج. كانت أنوار جميع المنازل على جانب الأرض المشاع المشتركة بين القرى الثلاث مضاءة، وظل سكانها مستيقظين حتى الفجر.

استمر حشد من الفضوليين في التسكع بقلق. يأتي الناس ويذهبون ويبقى الحشد على جسري تشوبهام وهورسل. عرفت بعد ذلك أن اثنين من المغامرين زحفا خلال الظلام إلى أن اقتربا كثيرًا من المريخيين، لكنهما لم يعودا أبدًا. وكان شعاع ضوئي، مثل شعاع كشاف سفينة حربية، يجتاح الأرض المشاع بين الحين والآخر، والشعاع الحراري مستعدًّا ليعقبه. وباستثناء ذلك، كانت تلك المنطقة الكبيرة من الأرض المشاع صامتة ومقفرة، كما كانت الأجساد المتفحمة ملقاة عليها طوال الليل تحت النجوم، وطوال اليوم التالي. سمع أناس

كثيرون ضجيج أصوات طرق تصدر من الحفرة.

هذا كان وضع الأمور ليلة الجمعة. كانت الأسطوانة تقع في منتصف الحفرة، مغروزة في أرض كوكبنا القديم كسهم مسموم، لكن مفعول السم لم يبدأ بعد. وتوجد حول الحفرة بقعة صمت مشاع بين القرى، تحترق في بعض الأماكن، وعدد قليل من الكائنات الداكنة التي لا تُرى بوضوح، تتمدد ملتوية هنا وهناك. تناثرت شجيرات أو أشجار مشتعلة. وفي الخلف، يقع جانب من الإثارة، لكن الاشتعال لم يتسلل بعد خلف ذلك الجانب. أما في بقية أنحاء العالم، فلا يزال تيار الحياة يتدفق كما هو منذ سنوات سحيقة؛ ذلك أن حُمى الحرب التي تسد الأوردة والشرايين، وتميت الأعصاب وتدمر العقول، لم تتطور بعد.

استمر المريخيون يطرقون ويتحركون بنشاط طوال الليل بلا نوم، ولا يكلون، خلال عملهم على الآلات التي يقومون بتجهيزها؛ ومن آن لآخر تتدفق نفخة من دخان أبيض مخضر إلى السماء المضاءة بالنجوم.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة، وصلت سرية من الجنود خلال قرية هورسل، وانتشرت على طول حافة الأرض المشاع لتشكيل طوق. كما وصلت لاحقًا سرية ثانية أتت سيرًا على الأقدام من قرية تشوبهام، وانتشرت على الجانب الشمالي من الأرض المشاع. وكان العديد من الضباط من ثكنات بلدة إنكرمان قد وصلوا في وقت سابق من اليوم؛ وأفادوا أن أحدهم، وهو الرائد إيدن، مفقود. جاء عقيد الفوج إلى جسر تشوبهام، وانشغل في استجواب المجموعة في منتصف الليل. كانت السلطات العسكرية بالتأكيد على دراية بخطورة الأمر. وتمكنت الصحف الصادرة صباح اليوم التالي من القول بأن سربًا من سلاح الفرسان، ومدفعين رشاشين من طراز ماكسيم، وحوالي أربعمائة رجل من فوج كارديجان بدأت تتحرك من بلدة ألدرشوت في حوالي الساعة الحادية عشرة.

بعد ثوانٍ قليلة من منتصف الليل، رأى الحشد المتجمع في طريق تشيرتسي، ووكينج، نجمًا يسقط من السماء إلى غابات الصنوبر في اتجاه الشمال الغربي. كان لونه أخضر، وتسبب في سطوع صامت مثل البرق الصيفي. وهذه كانت الأسطوانة الثانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(9)
بداية القتال

لا يزال يوم السبت يعيش في ذاكرتي كيوم مثير. كما كان يومًا كسولًا وحارًّا وخانقًا، وقيل لي إن البارومتر (14) كان سريع التقلب. تمكنت زوجتي من النوم، لكني لم أنم سوى فترة محدودة واستيقظت مبكرًا. ذهبت إلى حديقتي قبل الإفطار ووقفت أستمع. لم يصلنى من اتجاه الأرض المشاع أى شىء يحمل إثارة، لم أسمع سوى صوت بلبل يصدح.

جاء بائع الحليب كالمعتاد. سمعت خشخشة عربته اليدوية، فذهبت إلى البوابة الجانبية لأسأله عن آخر الأخبار. أخبرني أن القوات أحاطت بالمريخيين في أثناء الليل، كان القتال متوقَّعًا. ثم سمعت صوتًا مألوفًا يبعث على الطمأنينة- صوت قطار يتجه نحو محطة ووكينج.

قال بائع الحليب: «ليس من المطلوب قتلهم، إن أمكن تجنب ذلك».

رأيت جاري يقوم بأعمال البستنة في حديقته. تحدثت معه لبعض الوقت، ثم عُدت لتناول الإفطار. كان صباحًا عاديًّا. كان جاري يرى أن القوات العسكرية سوف تتمكن من القبض على المريخيين أو القضاء عليهم خلال النهار.

قال: «من المؤسف أنهم يحولون دون الاقتراب منهم. فمن المشوق أن نعرف كيف يعيشون على كوكب آخر؛ قد نتعلم شيئًا أو آخر».

اقترب من السور وأعطاني حفنة من الفراولة؛ فقد كانت حديقته سخية بقدر ما كانت وفيرة. وأخبرني، في الوقت نفسه، عن احتراق غابات الصنوبر حول ساحات الجولف في قرية بايفليت.

وأضاف: «يقولون إن شيئًا آخر من تلك الأشياء الملعونة قد سقط هناك - إنه الثاني. لكن واحدًا يكفي بالتأكيد. سوف يكلف ذلك رجال التأمين كثيرًا قبل تسوية كل شيء»، وكان يضحك بروح من الدعابة وهو يتحدث. كما قال إن الغابات لا تزال مشتعلة، وأشار نحو ضباب من الدخان. وأضاف: «سوف تظل الأرض ساخنة تحت الأقدام لعدة أيام، بسبب تربة أشواك الصنوبر والعشب السميكة»، ثم اكتست ملامح وجهه بالجدية بسبب «أوجيلفى المسكين».

بعد الإفطار، قررت عدم العمل والذهاب إلى الأرض المشاع. وجدت أسفل جسر السكك الحديدية مجموعة من الجنود – مهندسين عسكريين، على ما أعتقد؛ رجال يرتدون قبعات مستديرة صغيرة، وسترات حمراء متسخة ومفككة الأزرار تُظهِر قمصانهم الزرقاء، وسراويل داكنة، وأحذية طويلة الساق. أخبروني أنه غير مسموح لأحد بعبور القناة. وعندما نظرت على طول الطريق نحو الجسر، رأيت أحد رجال فوج كارديجان يقف هناك. تحدثت مع هؤلاء الجنود لبعض الوقت، وأخبرتهم عن مشاهدتي للمريخيين في المساء السابق. لم يرَ أي منهم المريخيين، وليس لديهم سوى أفكار غامضة عنهم، ولذا أمطروني بالأسئلة. قالوا إنهم لا يعرفون مَن الذي أصدر الأمر بتحركات القوات، كانوا يتصورون أن نزاعًا نشب داخل سلاح الفرسان. يتمتع المهندس العسكري العادي بتعليم أفضل من الجندي العادي، وقد ناقشوا ظروف القتال الغريب الممكنة ببعض الحِدة. وصفت لهم الشعاع الحراري، وبدأوا يتجادلون فيما بينهم.

قال أحدهم: «فلنزحف نحوهم متخفين، ثم نهجم عليهم».

وقال آخر: «يا له من هراء! وكيف نختفي من الحرارة! علينا أن نقترب قدر الإمكان ونحفر خندقًا».

- يا لخنادقك! تريد دائمًا بناء خنادق، كان يجب أن تكون أرنبًا.

وفجأة قال ثالث، وكان رجلًا ضئيلًا أسمر، يحب التأمل ويدخن غليونًا: «أليس لديهم أي

أعناق؟».
كررت وصفى للكائنات المريخية.
فقال: «إنهم أخطبوطات، هذا ما أطلقه عليهم. تتحدثون عن صيادي الرجال– إنهم مقاتلو الأسماك هذه المرة!».
قال المتحدث الأول: «قتل وحوش من هذا القبيل ليس جريمة».
قال الرجل الأسمر الضئيل: «لماذا لا نلقي قذيفة على هذه الأشياء البشعة ونقضي عليها تمامًا؟ لن يتمكنوا من القيام بأى شىء».
قال المتحدث الأول: «أين قذائفكم؟ ليس لدينا وقت. فلنفعل ذلك بسرعة، هذه نصيحتى، وعلى الفور».
استمر نقاشهم. تركتهم بعد فترة، وذهبت إلى محطة السكك الحديدية للحصول على أكبر عدد ممكن من الصحف الصباحية.
لكنني لن أرهق القارئ بوصف ذلك الصباح الطويل وبعد الظهر الأطول. لم أنجح في إلقاء نظرة على الأرض المشاع؛ فقد كانت حتى أبراج كنيستي هورسل وتشوبهام في أيدي السلطات العسكرية. لم يكن الجنود الذين خاطبتهم يعرفون أي شيء، بل لم يكن هناك أي شيء. وكان الضباط في حيرة وانشغال. وجدت الناس في المدينة آمنين تمامًا مرة أخرى في وجود الجيش، وسمعت لأول مرة من مرشال، بائع السجائر، أن ابنه كان من بين القتلى في الأرض المشاع. وقد طلب الجنود من الناس في ضواحي هورسل إغلاق منازلهم ومغادرتها.
عُدت لتناول الغداء في الساعة الثانية تقريبًا، شاعرًا بتعب شديد؛ لأن اليوم، كما قلت، كان حارًّا للغاية ومملًّا. ولإنعاش نفسي، أخذت حمامًا باردًا في فترة ما بعد الظهيرة. وفي حوالي الرابعة والنصف، ذهبت إلى محطة السكك الحديدية لشراء صحيفة مسائية؛ فصحف الصباح لم تحمل سوى وصف غير دقيق على الإطلاق لمقتل ستنت، وهندرسون، وأوجيلفي، والآخرين. لكن الصحيفة لم تحمل أي شيء لا أعرفه. لم يُظهِر المريخيون أي شبر منهم؛ بل بدوا مشغولين في حفرتهم، واستمر صوت الطرق، كما استمر تقريبًا تدفق شريط الدخان. يبدو أنهم كانوا مشغولين بالاستعداد للقتال. وكانت الصيغة النمطية للصحف: «بُذِلت محاولات جديدة للتحدث بلغة الإشارة، ولكن دون جدوى»، أخبرني أحد المهندسين العسكريين أن هذه المحاولة قام بها رجل في خندق، رافعًا راية على سارية. وقد اهتم المريخيون بهذه التطورات بما يماثل اهتمامنا بخوار بقرة.
يجب أن أعترف أن مشهد كل هذا التسلح، وكل ذلك التحضير، أثار حماسي كثيرًا. أصبح خيالي محاربًا، وهزم الغزاة بعشرات الطرق المدهشة، وتذكرت أحلام صباي عن المعارك والبطولة. على أن القتال لم يبد لي عادلًا؛ إذ تصورتهم عاجزين تمامًا في حفرتهم هذه.
في حوالي الساعة الثالثة، بدأت تصدر أصوات قذائف مدفع على فترات زمنية محسوبة، منطلقة من بلدتي: تشيرتسي أو أدلستون. وعرفت أن خشب الصنوبر المحترق، الذي سقطت فيه الأسطوانة الثانية، كان يتعرض للقصف؛ على أمل تدمير ذلك الجسم قبل أن ينفتح. لكن المدفع الميداني لم يصل إلى قرية تشوبهام لاستخدامه ضد أول جسم مريخي إلا حوالى الخامسة.
وفي الساعة السادسة مساء، وأنا جالس أحتسي الشاي مع زوجتي في منزلنا الصيفي، ونتحدث بحماس عن المعركة التي هبطت علينا، سمعت صوت انفجار مكتوم من الأرض المشاع، تلته مباشرة عاصفة من إطلاق النار. وفي أعقاب ذلك، تعالى صوت اصطدام عنيف قريب جدًّا منا، واهتزت الأرض. سرت فوق العشب، ورأيت قمم الأشجار المحيطة بكلية الدراسات الشرقية تنفث لهبًا دخانيًّا أحمر، وينهار برج الكنيسة الصغيرة المجاور متحولًا إلى خراب. كما اختفت مئذنة المسجد، وبدا سقف الكلية نفسها كما لو أن قذيفة مدفع يزن مائة طن قد أصابته. تصدعت إحدى مداخننا، كأن قذيفة أصابتها، ثم تطايرت وسقطت

قطعة منها على البلاط، وكونت كومة من شظايا حمراء مكسورة فوق حوض الزهور بالقرب من نافذة غرفة مكتبى.

وقفت وزوجتي مذهولين، ثم أدركت أن قمة تل مايبري لا بد أنها أصبحت في نطاق الشعاع الحرارى المريخى الآن، حيث فتح تدمير الكلية الطريق أمامه.

وعندئذ أمسكت بذراع زوجتي، وجذبتها إلى الطريق. ثم أخرجت الخادمة، وأخبرتها أننى سأصعد بنفسى إلى الطابق العلوى لإحضار الصندوق الذى كانت تريده.

وأضفت: «لا يمكننا البقاء هنا»؛ وخلال حديثي، بدأ ثانية إطلاق النار للحظة على الأرض المشاع.

قالت زوجتى مذعورة: «ولكن، إلى أين نذهب؟».

كنت فى حيرة، ثم تذكرت أبناء عمومتها فى بلدة ليذرهيد.

صرخت فى وسط الضوضاء المفاجئة: «ليذرهيد!».

أشاحت بوجهها عنى، ونظرت إلى المنحدر. كان الناس يخرجون من منازلهم، مدهوشين.

سألتنى: «كيف يمكننا الوصول إلى ليذرهيد؟».

رأيت أسفل التل مجموعة من الفرسان تحت جسر السكك الحديدية، ركض ثلاثة منهم عبر البوابات المفتوحة لكلية الدراسات الشرقية، وترجل اثنان آخران وأخذا يركضان من منزل إلى منزل. بدت الشمس حمراء قانية، وهي تشرق خلال الدخان المتصاعد من قمم الأشجار، وألقت ضوءًا متوهجًا غير مألوف على كل شيء.

قلت: «توقفي هنا، أنتِ آمنة هنا»؛ وتوجهت نحو حانة «الكلب المرقط»؛ لأنني كنت أعرف أن صاحبها لديه عربة بحصان. ركضت، لأنني أدركت أن كل مَن على هذا الجانب من التل سوف يتحرك خلال لحظات. وجدته في حانته، غير مدرك تمامًا لما يحدث خلف منزله. وقف رجل يتحدث معه وظهره لى.

قال مالك العربة: «أريد جنيهًا؛ وليس لدىَّ أحد يقودها».

قلت، من فوق كتف الغريب: «سأعطيك جنيهين».

- لماذا؟

قلت: «وسأعيدها لك فى منتصف الليل».

قال المالك: «يا إلهى! ولِم العجلة؟ يا للعجب. جنيهان، وتعيدها؟ عمَّ تتحدث؟».

شرحت له على عجل أنني مضطر لمغادرة منزلي، ووافق على منحي العربة والحصان. لم يكن واضحًا لي حينذاك أن مالك الحانة عليه أن يغادر هو أيضًا منزله بسرعة. حرصت على أخذ العربة، وقدتها على الطريق، وتركتها في عهدة زوجتي والخادمة، ثم هرعت إلى بيتي وحزمت بعض الأشياء الثمينة، مثل الحلي النفيسة، وغيرها. خلال قيامي بذلك، كانت أشجار الزان تحت المنزل تحترق، كما كانت الأسوار على طول الطريق متوهجة باللون الأحمر. في أثناء انشغالي، جاء أحد الفرسان الذين ترجلوا عن جيادهم مهرولًا. كان ينتقل من منزل إلى منزل، ويحذر السكان كي يغادروا. كان يسير عندما خرجت من بابي الأمامي، أحمل أشيائى الثمينة فى مفرش المائدة. سألته صائحًا:

- ما الأخبار؟

التفت، حدّق، جعجع بشيء عن «الزحف في شيء مثل غطاء طبق»، وركض إلى بوابة المنزل الذي يقع عند قمة التل. اندلعت دوامة مفاجئة من الدخان الأسود عبر الطريق، وأخفته للحظة. ركضت إلى منزل جاري لأقنع نفسي بما أعرفه بالفعل، أنه أخذ زوجته وذهبا إلى لندن وأغلقا منزلهما. عُدت لمنزلي ثانية لأفي بوعدي وأجلب صندوق خادمتي. سحبت الصندوق، ووضعته بجانبها عند مؤخرة العربة، ثم أمسكت اللجام وقفزت إلى مقعد السائق بجانب زوجتي. ابتعدنا بعد لحظات عن الدخان والضوضاء، وانطلقنا نحو المنحدر المعاكس لتل مايبرى، وفى اتجاه أولد ووكينج.

كان المشهد أمامنا مشمسًا وهادئًا، تمتد حقول القمح على جانبي الطريق، وأمامنا نُزُل مايبوري ويافطته المتأرجحة. رأيت عربة الطبيب أمامي. أدرت رأسي أسفل التل، ووجهت

بصري نحو جانب التل الذي أغادره. كانت تيارات سميكة من دخان أسود مخضبة بخيوط من نار حمراء تتحرك في الهواء الساكن، وتلقي بظلال داكنة على قمم الأشجار الخضراء في اتجاه الشرق. امتد الدخان بعيدًا بالفعل، إلى الشرق والغرب- إلى غابات الصنوبر في قرية بايفليت شرقًا، وإلى بلدة ووكينج ناحية الغرب. تناثر الناس على الطريق، وكانوا يركضون نحونا. وخلال الهواء الساخن الساكن، سمعنا الآن أزيزًا خافتًا وإن كان متميزًا، للمدفع الرشاش الذي كان ساكنًا، بالإضافة إلى فرقعات متقطعة تنطلق من البنادق. يبدو أن المريخيين كانوا يشعلون النار فى أى شىء يقع فى نطاق الشعاع الحرارى.

لم أكن سائقًا خبيرًا، ولذا كان لا بد أن أحول انتباهي على الفور إلى الحصان. عندما نظرت إلى الوراء مرة أخرى، كان التل الثاني يخفي الدخان الأسود. ضربت الحصان بالسوط، وأطلقت له العنان، إلى أن أصبحت ووكينج وقرية سيند تقع بيننا وبين تلك الاضطرابات الشديدة. أدركت الطبيب وتجاوزت عربته بين ووكينج وسيند.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(10)
فى العاصفة

تقع ليذرهيد على بعد 12 ميلًا تقريبًا من تل مايبري. كان الهواء مُحمَّلًا برائحة القش خلال المروج الخصبة خارج قرية بيرفورد، والأسوار على الجانبين جميلة ومرحة وتضم العديد من زهور النسرين (15). وكما بدأ فجأة، توقف فجأة إطلاق النار الكثيف الذي اندلع بينما نقود العربة أسفل تل مايبري، تاركًا المساء هادئًا وساكنًا تمامًا. وصلنا إلى ليذرهيد دون مشاكل في حوالي التاسعة؛ حيث استراح الحصان لمدة ساعة، بينما أتناول العشاء مع أبناء عمومتى، وأوصيتهم رعاية زوجتى.

ظلت زوجتي صامتة بشكل غريب طوال الرحلة، وبدت قلقة من نذر الشر. تحدثت معها لطمأنتها، مُشيرًا إلى أن المريخيين مُرتبطين بالحفرة بسبب أوزانهم الثقيلة، وأقصى ما يستطيعونه هو الزحف قليلًا للخروج منها؛ لكنها أجابت بكلمات مقتضبة. وأعتقد أنه لولا وعدي لحارس النُّزُل، لكانت حثتني على البقاء في ليذرهيد تلك الليلة. ويا ليتني بقيت! أتذكر أن وجهها كان شاحبًا للغاية ونحن نفترق.

على أنني كنت شديد الحماس طوال اليوم. سَرَت في دمائي ما يشبه حمى الحرب التي تمر بها أحيانًا المجتمعات المتحضرة، ولم أشعر في داخلي بأسف يضطرني للعودة إلى مايبري في تلك الليلة، بل كنت أخشى حتى أن تلك الطلقات النارية الأخيرة التي سمعتها قد تعني إبادة الغزاة القادمين من المريخ. وأفضل ما يمكنني التعبير به عن حالتي الذهنية هو القول إننى أردت أن أكون وسط المعركة.

بدأت رحلة العودة في حوالي الساعة الحادية عشرة. كان ظلام الليل حالكًا على غير توقع؛ فعندما خرجت من الممر المضاء في منزل أبناء عمومتي، بدت الليلة سوداء، كما كان الجو حارًّا وخانقًا مثل النهار. كانت الغيوم سريعة الحركة، وإن لم تكن هناك نسمة هواء تثير حركة الشجيرات حولنا. أضاء خادم أبناء عمومتي مصباحين. ولحسن الحظ، كنت أعرف الطريق جيدًا. وقفت زوجتي في ضوء المدخل، وشاهدتني إلى أن قفزت داخل العربة، ثم استدارت فجأة ودخلت إلى المنزل، تاركة أبناء عمومتى يتمنون لى حظًّا سعيدًا.

شعرت بالاكتئاب قليلًا في البداية، حيث انتقلت إليَّ عدوى مخاوف زوجتي، لكن أفكاري سرعان ما عادت إلى المريخيين. لم أكن أعلم حينذاك أي شيء عن مسار القتال الذي نشب في المساء. ولم أكن أعرف حتى الظروف التي عجلت به. وخلال مروري على قرية أوكهام (فقد عُدت من هذا الطريق، وليس من خلال سيند وأولد ووكينج)، رأيت على طول الأفق الغربي وهجًا أحمر بلون الدم، ومع اقترابي منه كان يزحف ببطء نحو السماء. اختلط تجمع غيوم العاصفة الرعدية هناك بكتل الدخان السوداء والحمراء.

كان شارع ريبلي مهجورًا. وباستثناء نافذة مضاءة هنا أو هناك، لم تظهر في القرية أي علامة على الحياة، لكنني نجوت بأعجوبة من حادث عند زاوية الطريق إلى قرية بيرفورد، حيث وقفت مجموعة من الناس وظهورهم نحوي. لم يقولوا لي أي شيء عندما مررت. لا أعرف ما الذي يعرفونه عن الأشياء التي تحدث خلف التل، ولا أعرف ما إذا كان سكان البيوت الصامتة التي مررت بها في طريقي ينامون في أمان، أم تركوها مهجورة وخالية، أم أزعجهم رعب الليل فخرجوا يرقبون ما يحدث.

كنت في وادي واي، خلال رحلتي من ريبلي إلى بيرفورد، ولم يكن الوهج الأحمر ظاهرًا. وعندما صعدت التل الصغير الذي يقع خلف كنيسة بيرفورد، ظهر الوهج ثانية، واهتزت الأشجار حولي مع أول إشارة للعاصفة. سمعت رنين أجراس منتصف الليل ينطلق خلفي من كنيسة بيرفورد، ثم رأيت صورة ظلية لتل مايبري، وقمم أشجاره وأسقف منازله تبدو سوداء فى مواجهة الوهج الأحمر.

وخلال مشاهدتي، أضاء وهج أخضر صارخ الطريق من حولي، وأظهر الغابات البعيدة في اتجاه بلدة أدلستون. شعرت باللجام يهتز بقوة في يدي، ورأيت خيطًا من نار خضراء يخترق الغيوم، ويضيء فجأة تجمُّعَها المشوش، ويسقط في الحقل الذي يقع على يساري. إنه النيزك الساقط الثالث!

ومع اقتراب ظهور العاصفة، تراقصت شرارات أول برق بلون بنفسجي مبهر، وتفجر الرعد كالصاروخ في السماء. تشبثت أسنان الحصان بشكيمته، وانطلق مندفعًا.

توجهنا أسفل منحدر متوسط الميل يمتد نحو سفح تل مايبري. وبمجرد أن بدأ البرق، حتى استمر في تتابع سريع من الومضات لم أشهد مثلها من قبل. توالت أصوات قصف الرعد، يصحبها طقطقة غريبة، بدت أشبه بصوت آلة كهربائية عملاقة أكثر منها أصداء التفجير المعتادة. كان الضوء الوامض يعمي الأبصار ويثير الارتباك، وسقطت أمطار خفيفة على وجهي وأنا أقود العربة أسفل المنحدر.

لم أهتم بشيء في البداية سوى الطريق أمامي، وفجأة أثار انتباهي شيء يتحرك بسرعة أسفل المنحدر المواجه لتل مايبري. تصورت بداية أنه سقف مبتل لأحد المنازل، لكن تتابع الومضات أظهر أنه يتحرك حركة دائرية سريعة. كانت رؤية مراوغة– لحظة من الظلام المُحير، ثم انطلقت ومضة كضوء النهار، وظهرت بوضوح الكتل الحمراء لدار الأيتام بالقرب من قمة التل، والقمم الخضراء لأشجار الصنوبر، كما خرج هذا الكائن المثير للمشاكل واضحًا ولامعًا.

أما هذا الشيء الذي رأيته! كيف يمكنني وصفه؟ شيء ضخم ثلاثي القوائم، أعلى من العديد من المنازل، يخطو خطوات واسعة فوق أشجار الصنوبر الصغيرة ويحطمها خلال سيره. إنه آلة متحركة، مصنوعة من معدن لامع، يخطو الآن فوق نبات الخلنج، وتتدلى منه حبال واضحة من الفولاذ، ويختلط ضجيج مروره بعربدة الرعد. انطلقت ومضة، ظهر بعدها بوضوح متأرجحًا واثنان من أقدامه في الهواء، ليختفي ويعاود الظهور على الفور تقريبًا مع انطلاق الومضة التالية، على بعد مائة ياردة. هل يمكنك أن تتخيل كرسيًّا ثلاثي القوائم يميل ويتدحرج بعنف على الأرض؟ هذا هو الانطباع الذي تركته تلك الومضات الفورية. وإنما تخيل، بدلًا من الكرسي ثلاثي القوائم، أنه جسم ضخم لماكينة على حامل ثلاثي القوائم.

وفجأة بدأت أشجار غابة الصنوبر تتباعد، بمثل ما تتباعد أعواد القصب الجافة عندما يندفع رجل خلالها. كانت الأشجار تُقطع وتُدفع بعيدًا، ثم ظهرت الماكينة الضخمة الثانية، وبدت مسرعة نحوي. كنت أركض بقوة لمقابلتها! لكني فقدت أعصابي تمامًا عند رؤية الوحش الثاني. لم أتوقف لإلقاء نظرة أخرى، بل أدرت رأس الحصان بقوة إلى اليمين، وفي اللحظة التالية جنحت العربة فوق الحصان؛ تحطمت أعمدتها محدثة ضجة، مما دفعني إلى الجانب وانزلقت بقوة في بركة مياه ضحلة.

زحفت خارجًا على الفور وجلست، بينما لا تزال قدماي في الماء تحت أجمة من النباتات. رقد الحصان بلا حراك (رقبته مكسورة، يا له من حيوان مسكين!)، ومكنتني ومضات البرق من رؤية الكتلة السوداء من العربة المنقلبة والصورة الظلية للعجلة وهي لا تزال تدور ببطء. وفي لحظة أخرى، تحركت الماكينة الهائلة بجواري، واتخذت طريقها نحو أعلى التل في اتجاه بيرفورد.

عندما رأيت هذا الشيء عن قرب، وجدته غريبًا بشكل لا يُصدَّق؛ إذ لم يكن مجرد ماكينة غير حساسة تتحرك على الطريق. كانت ماكينة ذات خطوات معدنية رنانة، ومجسات طويلة ومرنة ولامعة (أمسك أحدها بشجرة صنوبر صغيرة) تتأرجح وتهتز حول جسمها الغريب. كانت تخطو على الطريق الذي اختارته، ويتحرك الغطاء المعدني الذي يعلوها جيئة وذهابًا بما يوحي حتمًا بوجود رأس أسفله تنظر حولها. ويوجد خلف جسم الماكينة الرئيس كتلة ضخمة من معدن أبيض، تشبه سلة صياد عملاقة، وتتدفق نفثات من دخان أخضر من مفاصل أطرافها. هذا ما رأيته عندما مرت بجانبي، ثم اختفت في لحظة.

لقد رأيت الكثير حينذاك، وإن كان على نحو مبهم بسبب وميض البرق الذي يلقي ضوءًا يعمى الأعين، فضلًا عن كثافة الظلال السوداء.

أصدرت الماكينة عند مرورها عواء متهللًا يصم الآذان –«ألووو! ألووو!»– غطى على صوت الرعد. ووصلت بعد دقيقة إلى الماكينة الأخرى، على بعد نصف ميل، وانحنت فوق شيء ما في الحقل. ليس لديَّ شك في أن هذا الشيء الملقى في الحقل كان ثالث الأسطوانات العشر التى أطلقوها علينا من المريخ.

بقيت لعدة دقائق مستلقيًا هناك في المطر والظلام أراقب، من خلال الضوء المتقطع، تلك الكائنات المعدنية الوحشية وهي تتحرك عن بعد حول قمم سياج الأشجار وفوقها. بدأت تتساقط الآن أمطار خفيفة، ومع سقوطها وانقطاعها، بدت هياكل تلك الماكينات ضبابية، ثم ومضت في وضوح مرة أخرى. كانت تظهر بين الحين والآخر فجوة في البرق، وعندئذ كان ظلام الليل يبتلع الماكينات.

غمرتني الأمطار من أعلى وبركة المياه من أسفل. مر بعض الوقت قبل أن تتيح لي دهشتي البالغة أن أبذل جهدًا لأصل إلى موقع أكثر جفافًا، أو حتى أفكر في الخطر الوشيك.

رأيت، على مسافة ليست بعيدة عني، كوخًا خشبيًّا صغيرًا، من غرفة واحدة، تحيط به قطعة أرض مزروعة بالبطاطس. جاهدت حتى تمكنت من الوقوف على قدمي أخيرًا. جثمت، واستفدت من كل فرصة للتغطية، ثم أخذت أركض نحو الكوخ. طرقت الباب، لكني لم أتمكن من إيصال صوت طرقاتي إلى من بالداخل (إن كان هناك أي شخص). توقفت بعد فترة، واستفدت من خندق على طول الجزء الأكبر من الطريق، ونجحت في الزحف إلى غابات الصنوبر فى اتجاه مايبرى، دون أن ترانى تلك الماكينات الجبارة.

واصلت طريقي نحو منزلي متخفيًا، مبتلًّا وأرتجف. مشيت بين الأشجار في محاولة للعثور على ممر المشاة. كان الظلام حالكًا في الغابة؛ فلم يعد البرق منتظمًا، والأمطار التي كانت غزيرة أخذت تسقط خلال فجوات أوراق الشجر الثقيلة.

لو أدركت تمامًا معنى كل تلك الأشياء التي رأيتها، لكنت شققت طريقي على الفور من خلال بايفليت إلى شارع كوبهام، وعدت إلى زوجتي في ليذرهيد. لكن غرابة الأشياء حولي في تلك الليلة، وحالتي الجسدية المزرية، منعاني؛ فقد كنت مصابًا بكدمات، ومرهقًا، ومبتلًّا تمامًا، كما أصابتنى العاصفة بالصمم والعمى.

كانت لديّ فكرة مبهمة للذهاب إلى منزلي، وكان هذا بمثابة دافعي الأساسي. سرت مترنحًا خلال الأشجار، سقطت في حفرة واصطدمت ركبتي بلوح خشبي أصابها بكدمة، وأخيرًا خضت مياه الممر أسفل كوليدج أرمز. أقول خُضت؛ لأن مياه العاصفة كانت تجتاح الرمال أسفل التل فى سيل موحل. وهناك، فى الظلام، اصطدم بى رجل فترنحت.

أطلق الرجل صرخة رعب واندفع جانبًا، وهرع قبل أن أتمكن من جمع شتات نفسي للتحدث معه. كان ضغط العاصفة ثقيلًا جدًّا في هذا المكان، ما وضع أمامي أصعب مهمة وهي شق طريقي إلى أعلى التل. اقتربت من السياج القائم على يساري، واتخذت طريقي بجواره.

تعثرت بالقرب من القمة في شيء ناعم. ومن خلال ومضة من البرق، رأيت بين قدمي كومة من القماش الأسود وزوجًا من الأحذية طويلة الرقبة. لكن وميض الضوء اختفى قبل أن أتمكن من التمييز بوضوح كيف يرقد الرجل. وقفت بجواره انتظارًا للومضة التالية. وعندما أتت، رأيت أنه كان رجلًا قويًّا، يرتدي ملابس رخيصة الثمن لكنها ليست رثة. كان رأسه منحنيًا تحت جسده، ويرقد مكومًا بالقرب من السور، كأنما قذفه أحد نحو السور وارتطم به بعنف.

وبعد أن تغلبت على شعوري بالاشمئزاز الطبيعي لمن لم يسبق له أن لمس جثة، انحنيت وقلبته ووضعت يدي على صدره لأتحقق من نبضات قلبه. كان ميتًا. يبدو أن رقبته قد كُسِرت. ومض البرق للمرة الثالثة، فرأيت وجهه. وقفت وقد تعرفت عليه؛ كان صاحب حانة

«الكلب المرقط»، الذى أخذت منه وسيلة نقلى.
خطوت فوقه بحذر شديد وانطلقت أصعد التل. نجحت في شق طريقي عبر مركز الشرطة و«كوليدج أرمز» نحو منزلي. لا شيء كان يحترق على منحدر التل، على الرغم من استمرار تصاعد وهج أحمر ودخان دائري داكن الحُمرة من الأرض المشاع تحت الأمطار الغزيرة. وبقدر ما أمكنني الرؤية عند انبعاث الومضات، لم يلحق الضرر بمعظم المنازل حولى. كما رأيت، بالقرب من «كوليدج أرمز»، كومة مظلمة على الطريق.
وخلال سيري في اتجاه جسر مايبري، سمعت أصواتًا ووقع أقدام؛ لكني لم أملك شجاعة النداء على الناس أو الذهاب إليهم. فتحت مزلاج الباب الخارجي بمفتاحي، ثم أغلقت الباب وأوصدته، كما أوصدت المزلاج. ترنحت عند الدرج، وجلست. كانت مخيلتي مملوءة بوحوش معدنية تخطو، وبالجثة التى تحطمت على السور.
جثمت عند أسفل الدرج وظهرى إلى الجدار، وأنا أرتجف بعنف.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(11)
عند النافذة

قلت سابقًا إن عواصف الانفعالات والمشاعر قادرة على استنفاد نفسها. اكتشفت بعد فترة أنني كنت مبللًا وأشعر بالبرد، حيث توجد برك صغيرة من الماء حولي على بساط السلم. قمت على نحو آلي، وذهبت إلى غرفة الطعام وشربت بعض الويسكي، ثم غيرت ملابسي.

توجهت بعد ذلك إلى غرفة مكتبي في الطابق العلوي، لكنني لا أعرف لماذا فعلت ذلك. تطل نافذة غرفة مكتبي على الأشجار والسكك الحديدية في اتجاه الأرض المشاع عند قرية هورسل. أدركت أننا تركنا هذه النافذة مفتوحة، حيث كنا في عجلة للرحيل. كان الممر مظلمًا؛ وعلى النقيض من الصورة التي يحتويها إطار النافذة، بدا جانب الغرفة مظلمًا على نحو لا يمكن اختراقه. توقفت لفترة قصيرة عند المدخل.

انتهت العاصفة الرعدية. اختفت أبراج كلية الدراسات الشرقية وأشجار الصنوبر المحيطة بها. رأيت الأرض المشاع حول حفر الرمل، على مسافة بعيدة جدًّا، مضاءة بوهج أحمر زاهٍ. ورأيت من خلال الضوء أشكالًا سوداء ضخمة، بشعة وغريبة، تنشغل بالحركة جيئة وذهابًا.

بدا الأمر بالفعل كما لو أن هذا الاتجاه من البلد مشتعل كله– يشتعل جانب عريض من التل وتنبعث منه ألسنة صغيرة من اللهب، تتمايل وتتلوى مع ما تبقى من رياح العاصفة، وتلقي انعكاسًا أحمر على السحاب المنطلق بسرعة أعلاها. وبين الحين والآخر، كان ضباب الدخان المتصاعد من بعض الحرائق القريبة يندفع عبر النافذة ويخفي الكائنات المريخية. لم أتمكن من رؤية ما يفعلونه، ولا هيئتهم بوضوح، كما لم أتعرف على الأشياء السوداء التي ينشغلون بها. ولم أتمكن أيضًا من رؤية النيران القريبة، على الرغم من أن انعكاساتها كانت تتراقص على جدار وسقف غرفة مكتبي. كان الهواء مُحملًا برائحة احتراق حادة وراتنجية (16).

أغلقت الباب بهدوء وتسللت نحو النافذة. وهنا اتسع المشهد أمامي؛ فمن ناحية وصل إلى المنازل المحيطة بمحطة ووكينج، ووصل من ناحية أخرى إلى غابات الصنوبر التي تفحمت واسودت في قرية بايفليت. رأيت ضوءًا أسفل التل، فوق السكك الحديدية بالقرب من القنطرة، وكان العديد من المنازل على طول طريق مايبري والشوارع القريبة من المحطة عبارة عن أنقاض متوهجة. أثار حيرتي في البداية هذا الضوء فوق السكك الحديدية؛ حيث رأيت كومة سوداء ووهجًا ساطعًا، وعلى يمينه صف من مستطيلات صفراء. ثم أدركت أنه قطار مُحطم، تهشم الجزء الأمامي منه واشتعل، بينما لا تزال العربات الخلفية على القضبان.

وبين مراكز الضوء الثلاثة الرئيسة هذه –المنازل، والقطار، والمقاطعة المحترقة في اتجاه تشوبهام- امتدت بقع غير منتظمة من البلد المُظلم، وتناثر الحطام الذي يتخلل مساحات من الأرض المتوهجة بعتامة وينبعث منها الدخان. كان أغرب مشهد: تلك الرقعة السوداء التي اشتعلت فيها النيران. لقد ذكرني هذا المشهد، أكثر من أي شيء آخر، بصناعة الفخار في الليل. لم أتمكن في البداية من تمييز أي شخص على الإطلاق، على الرغم من أنني كنت أحدق نحوهم باهتمام. ثم رأيت لاحقًا، في ضوء محطة ووكينج، عددًا من الشخصيات التى تبدو سوداء يسرعون واحدًا تلو الآخر عبر القضبان.

يا لهذا العالم الصغير الذي أعيش فيه بأمان منذ سنوات، وقد تحول إلى فوضى مشتعلة! ما زلت لا أعرف ماذا حدث في الساعات السبع الماضية. كما ما زلت لا أعرف، على الرغم من أنني بدأت أُخمن، العلاقة بين هذه الكتل الميكانيكية العملاقة وتلك الكائنات البطيئة

التي رأيتها تخرج من الأسطوانة. ومع شعور غريب بالاهتمام، أدرت كرسي مكتبي تجاه النافذة وجلست أحدق في البلد الأسود، لا سيما في ثلاثة أشياء سوداء عملاقة تتحرك جيئة وذهابًا فى الوهج المحيط بحفر الرمال.

بدوا مشغولين بشكل مثير للدهشة. بدأت أسأل نفسي عنهم. هل هم آلات ذكية؟ شعرت باستحالة ذلك. أم أن أحد المريخيين يجلس داخل كل منها، يديرها ويوجهها ويستخدمها بما يماثل تحكم مخ الإنسان في جسده؟ بدأت أقارن تلك الأشياء بالآلات البشرية، وأتساءل لأول مرة في حياتي كيف يمكن أن تبدو عربة مدرعة أو محرك بخاري لحيوان أدنى ذكاءً من البشر.

انقشعت العاصفة وتركت السماء صافية. وعلى دخان الأرض المحترقة، كان المريخ كنقطة صغيرة باهتة يتجه غربًا، عندما دخل جندي إلى حديقتي. سمعت صوت كشط طفيف عند السور. نفضت عني الخمول ونظرت إلى أسفل، فرأيته في العتمة يتسلق السور.

وعند مشاهدتى لإنسان آخر، بعد أن أفقت من خمولى، انحنيت من النافذة بشغف.

قلت هامسًا: «يا رجل!».

توقف وساقاه منفرجتان فوق السور في ارتياب، ثم واصل وعبر الحديقة إلى زاوية المنزل. انحني وخطا بهدوء.

قال: «مَن هناك؟»، وهو يهمس أيضًا، ويقف تحت النافذة محدقًا إلى أعلى.

سألته: «إلى أين تذهب؟».

- لا أعرف.

- هل تحاول الاختباء؟

- نعم.

قلت: «تعال، ادخل إلى المنزل».

نزلت، وفتحت الباب، وسمحت له بالدخول، ثم أغلقت الباب مرة أخرى. لم أستطع رؤية وجهه، كان بلا قبعة، ومعطفه مفكك الأزرار.

قال وهو يدخل: «يا إلهى!».

سألته: «ماذا حدث؟».

«ماذا لم يحدث؟». تمكنت خلال الظلام أن أراه يومئ بيأس.

أعاد مرارًا وتكرارًا: «لقد قضوا علينا- ببساطة قضوا علينا».

تبعنى، بشكل آلى تقريبًا، إلى غرفة الطعام.

«اشرب بعض الويسكى»، قلت له وأنا أصب جرعة قوية.

شربها، ثم جلس فجأة أمام الطاولة، ووضع رأسه على ذراعيه وبدأ يشهق ويبكي مثل صبي صغير، في انفعال عاطفي. والغريب أنني نسيت يأسي مؤخرًا، ووقفت بجانبه متعجبًا.

مر وقت طويل قبل أن تهدأ أعصابه ويرد على أسئلتي، ثم أجاب في حيرة وانكسار. كان سائقًا في سلاح المدفعية، ولم يبدأ المشاركة في القتال إلا في حوالي الساعة السابعة. في ذلك الوقت كان إطلاق النار يجري في الأرض المشاع، وقيل إن المجموعة الأولى من المريخيين كانت تزحف ببطء نحو أسطوانتهم الثانية تحت غطاء درع معدنى.

ترنح هذا الدرع بعد ذلك على الحامل ثلاثي الأرجل، وأصبح أول آلة قتال أراها. كان المدفع الذي يقوده هذا الجندي مُجهزًا لإطلاق النار بالقرب من هورسل، بغية السيطرة على حفر الرمال، وكان وصوله هو ما عجّل بالقتال. وعندما ذهب جنود المدفعية إلى المؤخرة، هرول حصان هذا الجندي نحو حفرة أرنب وسقط، وألقى راكبه في منخفَض أرضي. وفي اللحظة نفسها، انطلق المدفع خلفه، وانفجرت الذخيرة، وبدأ إطلاق النار حوله. وجد الجندي نفسه ملقى تحت كومة من الرجال القتلى المتفحمين والخيول الميتة.

قال: «رقدت بلا حراك، مرتعبًا، وفوقي جزء من حصان. لقد قضوا علينا. والرائحة– يا إلهي! تشبه رائحة لحم محروق! أُصيب ظهري نتيجة لسقوطي من فوق الحصان،

واضطررت للبقاء على هذا الحال حتى شعرت بتحسن. كنا نسير في موكب عسكري، وبعد دقيقة تعثر الحصان، ثم صوت انفجار، تلاه حفيف!».

وأضاف: «لقد قضوا علينا!».

اختبأ لفترة طويلة أسفل الحصان الميت، وكان يختلس النظر إلى الأرض المشاع خفية. وقد حاول رجال فوج الكارديجان الهجوم على الحفرة بطريقة المناوشات، لكنهم أبيدوا تمامًا. ثم نهض الوحش على قدميه وبدأ يمشي على مهل جيئة وذهابًا بين عدد قليل من الفارين، وعلى قمته غطاء يشبه الرأس ويتلفت حوله، يماثل تمامًا رأس إنسان يرتدي قلنسوة. وكان لديه شيء يشبه الذراع ويحمل صندوقًا معدنيًا مُعقدًا، يُطلق ومضات خضراء متألقة، ويتصل به قمع يخرج منه دخان الشعاع الحرارى.

وفي غضون بضع دقائق، خلت الأرض المشاع من أي شيء حي، بقدر ما كان بإمكان الجندي أن يرى؛ فكل شجيرة وشجرة لم تتحول بعد إلى هيكل عظمي أسود كانت تحترق. كان سلاح الفرسان على الطريق، في منطقة تقع خلف أرض منحنية، ولم ير أيًا منهم. سمع لبعض الوقت قعقعة المدافع الرشاشة من طراز ماكسيم، ثم سكنت تمامًا. استبقى العملاق محطة ووكينج ومجموعة المنازل المحيطة بها لتكون آخر ما يجهز عليه؛ ثم في لحظة انطلق الشعاع الحراري وأصبحت المدينة كومة من الأطلال المشتعلة. ثم أطفأ الكائن الشعاع الحراري، وأدار ظهره إلى جندي المدفعية، وبدأ يتهادى بعيدًا في اتجاه غابات الصنوبر المحترقة التي تأوي الأسطوانة الثانية. وعندئذ، تشكّل عملاق لامع ثانٍ، وخرج من الحفرة.

تحرك الوحش الثاني خلف الأول، وهنا بدأ جندي المدفع يزحف بحذر شديد عبر الرماد الساخن نحو هورسل. وقد نجح في البقاء حيًا في الخندق الذي يقع على جانب الطريق، ثم هرب إلى ووكينج. وهناك تسارعت قصته؛ فلم يكن عبور المكان يسيرًا. يبدو أن قليلين هم من بقوا أحياء، وكان معظمهم مذعورًا، وبقي كثيرون محترقين ومتفحمين. اضطرته النيران إلى الابتعاد. وعندما يعود أحد عمالقة المريخ، يختبئ بين الأكوام المحترقة لجدار مكسور. وقد شاهد هذا الكائن يلاحق رجلًا، ويمسكه بأحد مجساته الفولاذية، ويضرب رأسه بجذع شجرة الصنوبر. وأخيرًا، بعد حلول الظلام، اندفع الجندي بسرعة، وصعد فوق جسر السكك الحديدية.

ومنذ ذلك الحين وهو يتسلل نحو مايبري، على أمل الخروج من الخطر في اتجاه لندن. كان الناس يختبئون في الخنادق والأقبية، وانطلق العديد من الناجين نحو ووكينج وسيند. شعر بعطش شديد، ثم وجد أحد أنابيب المياه المحطمة بالقرب من قنطرة السكك الحديدية، والمياه تتدفق منها مثل نبع على الطريق.

تلك كانت القصة التي عرفتها منه شيئًا فشيئًا. أصبح أكثر هدوءًا وهو يروي قصته ويحاول أن يجعلني أرى الأشياء التي رآها. أخبرني في بداية قصته أنه لم يتناول أي طعام منذ منتصف النهار. ذهبت إلى غرفة المؤن، ووجدت بعض لحم الضأن والخبز، فأحضرتهم إلى الغرفة. لم نشعل أي مصباح خوفًا من أن يجذب الضوء المريخيين؛ وكانت أيادينا تمتد للخبز أو اللحم مرارًا وتكرارًا. وخلال حديثه أخذت الأشياء حولنا تظهر معتمة في الظلام، كما أخذت الشجيرات التي سحقتها الأقدام وأشجار الورد المهشمة خارج النافذة تبدو أكثر وضوحًا. يبدو أن عددًا من الرجال أو الحيوانات قد اندفع عبر العشب. بدأت أرى وجهه، مسودًا ومنهكًا، كما كان بلا شك وجهى كذلك.

عندما انتهينا من تناول الطعام، صعدنا بهدوء إلى غرفة مكتبي في الطابق العلوي، ونظرت مرة أخرى من النافذة المفتوحة. أصبح الوادي في ليلة واحدة واديًا من الرماد. تضاءلت الحرائق الآن. حلت تيارات الدخان الآن محل النيران؛ لكن أنقاضًا لا تعد ولا تحصى من المنازل المحطمة والمدمرة والأشجار المتكسرة والمسودة التي أخفاها الليل، تتضح الآن هزيلة ورهيبة في ضوء الفجر بلا شفقة. ومع ذلك، تناثرت هنا وهناك بعض الأشياء التي حالفها الحظ في النجاة– هنا إشارة بيضاء لسكة حديدية، وهناك نهاية مشتل

أبيض وطازج وسط الحطام. لم يحدث من قبل في تاريخ الحروب أن كان الدمار بهذا القدر من العشوائية والاتساع. وقف ثلاثة عمالقة معدنيون حول الحفرة، يلمعون مع تزايد الضوء من الشرق، وقلنسواتهم تدور كأنما يتفقدون الخراب الذى أحدثوه.

بدا لي أن الحفرة قد اتسعت، وتكرر تصاعد نفخات من بخار أخضر زاهٍ منها متجهًا إلى أعلى، نحو الفجر المشرق- يتصاعد، ويدور، ثم ينكسر ويختفى.

وفي الخلف، كانت أعمدة النار تحيط بتشوبهام، وأصبحت أعمدة دخان مصطبغًا بلون الدم مع أول خيوط النهار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(12)

ما رأيته من دمار فى ويبريدج وشيبرتون

مع إشراقة الفجر، تركنا النافذة التي شاهدنا منها المريخيين، وذهبنا بهدوء شديد إلى الطابق السفلى.

وافقني جندي المدفعية أن المنزل لا يصلح مكانًا للإقامة. وقال إنه يفكر أن يمضي في طريقه إلى لندن، ثم ينضم مرة أخرى إلى سرية مدفعيته– السرية رقم 12 للمدفعية المحمولة على الأحصنة. كانت خطتي العودة في الحال إلى ليذرهيد. ولأنني تأثرت إلى حد كبير بقوة المريخيين، فقد عقدت العزم على اصطحاب زوجتي إلى ميناء نيوهافن، ثم نغادر الريف على الفور؛ حيث أدركت بوضوح أن المناطق المحيطة بلندن ستكون حتمًا مسرحًا لقتال كارثى قبل أن يتم تدمير هذه المخلوقات.

بيد أن الأسطوانة الثالثة تقع بيننا وبين ليذرهيد، تحت حراسة العمالقة. لو كنت بمفردي، لاقتنصت الفرصة وتجولت في جميع أنحاء البلد. لكن الجندي نصحني بالعدول قائلًا: «ليس من اللياقة أن تجعل زوجتك الصالحة أرملة». وفي النهاية وافقت على الذهاب معه، تحت غطاء الغابة، في اتجاه الشمال حتى شارع كوبهام ثم نفترق. وبعدها أتخذ طريقًا طويلًا ملتفًّا، من خلال بلدة إبسوم، للوصول إلى ليذرهيد.

كان يجب أن أبدأ على الفور، لكن رفيقي كان في الميدان بالفعل ويعرف أفضل مني. جعلني أفتش المنزل بدقة بحثًا عن قارورة، وملأها بالويسكي؛ كما ملأنا كل جيب متاح بعبوات البسكويت وشرائح اللحم. تسللنا من المنزل، وركضنا بأسرع ما يمكن على الطريق الوعر الذي أتيت منه. بدت المنازل مهجورة. وجدنا في الطريق ثلاث جثث متفحمة متقاربة، ماتت من جراء الشعاع الحراري؛ وتناثرت هنا وهناك أشياء سقطت من الناس- ساعة، شبشب، ملعقة فضية، وغيرها من الأشياء المماثلة متدنية القيمة. وعند الزاوية التي تقود إلى مكتب البريد، وجدنا عربة صغيرة مملوءة بالصناديق والأثاث، وبلا حصان، وتميل على إحدى عجلاتها المكسورة. وكان صندوق النقود مفتوحًا محطمًا، وملقى تحت الأنقاض.

باستثناء قاعة الاستقبال في دار الأيتام، التي كانت لا تزال مشتعلة، لم يتضرر كثيرًا أي من المنازل هنا؛ فقد مس الشعاع الحراري قمم المداخن برفق ثم تجاوزها. ومع ذلك، يبدو أنه لا يوجد أحياء سوانا على تل مايبري. أعتقد أن غالبية السكان هربوا عبر طريق أولد ووكينج- الطريق الذى كنت قد اتخذته عندما قدت العربة إلى ليذرهيد - أو أنهم مختبئون.

سرنا خلال الممر، بجوار جثة الرجل المتفحم التي بلّلتها أمطار الليل، ودخلنا الغابة عند سفح التل. شققنا طريقنا نحو السكك الحديدية دون أن نقابل أحدًا. لم تكن الغابة سوى أنقاض محطمة ومسودة؛ إذ سقط الجزء الأكبر من الأشجار، باستثناء جزء لا يزال قائمًا بجذوع رمادية كئيبة وأوراق بنية داكنة بدلًا من الخضراء.

وعلى جانبنا، لم تفعل النيران شيئًا أكثر من حرق الأشجار القريبة، لكنها فشلت في تأمين انتشارها عبر المكان. وفي أحد المواقع، كان الحطابون يعملون يوم السبت: إذ كانت الأشجار حديثة القطع والتقليم، وموجودة في مكان فسيح مع أكوام من نشارة الخشب الناتجة عن آلة النشر ومحركها، فضلًا عن وجود كوخ مؤقت مهجور. لا توجد نسمة ريح هذا الصباح، وكل شيء هادئ بشكل غريب. حتى الطيور كانت صامتة. تحدثت مع الجندي خلال سيرنا بصوت هامس، وكنا ننظر خلفنا بين الحين والآخر. وتوقفنا مرة أو مرتين نسترق السمع.

اقتربنا من الطريق بعد فترة، وعندئذ سمعنا قعقعة حوافر ورأينا من بين جذوع الأشجار ثلاثة جنود من سلاح الفرسان على أحصنتهم، يتحركون ببطء في اتجاه ووكينج. وجهنا لهم التحية، فتوقفوا. أسرعنا نحوهم. كان أحدهم ملازمًا والاثنان الآخران من جنود سلاح

الفرسان الثامن، ومعهم حامل يشبه جهاز قياس الزوايا، وأخبرني جندي المدفعية أنه هليوجراف (17).

قال الملازم: «أنتم أول رجال أراهم قادمين فى هذا الطريق هذا الصباح. ما الأمر؟».

كان التلهف يبدو على صوته ووجهه. حدق الرجلان خلفه بفضول. قفز جندي المدفعية إلى الطريق وقدم التحية.

وقال: «دُمِّر المدفع الليلة الماضية، يا سيدي. وقد اختبأت، وأحاول العودة ثانية إلى سريتى. وأتوقع أنك سترى المريخيين بعد حوالى نصف ميل على هذا الطريق».

سأله الملازم: «كيف تبدو أشكالهم؟».

- عمالقة مدرعون، يا سيدي. يبلغ طول الواحد منهم 100 قدم. لكل منهم ثلاث أرجل وجسم مثل الألومنيوم، ورأس كبير ضخم داخل قلنسوة، يا سيدى.

قال الملازم: «اغرب عن وجهى! ما هذا الهراء!».

- سوف ترى يا سيدي. إنهم يحملون صندوقًا من نوع ما، يا سيدي، يطلق النار ويرديك قتيلًا.

- ماذا تعنى- مدفع؟

«كلا يا سيدي»، وبدأ جندي المدفعية يحكي عن الشعاع الحراري. قاطعه الملازم في منتصف حديثه، ونظر نحوى. كنت لا أزال واقفًا على المنحدر بجانب الطريق.

قلت: «هذا صحيح تمامًا».

فقال الملازم: «حسنًا، أعتقد أن من صميم عملي أن أرى ذلك أيضًا». وأضاف، موجهًا حديثه إلى جندي المدفعية: «اسمع. مهمتنا هنا إجلاء الناس من بيوتهم. من الأفضل أن تذهب وتسلم نفسك إلى العميد مارفن وتخبره بكل ما تعرفه. إنه في ويبريدج. هل تعرف الطريق؟».

قلت: «نعم»؛ فأدار حصانه جنوبًا مرة أخرى.

ثم سأل: «هل تقول نصف ميل؟».

أجبت: «على الأكثر»، وأنا أشير إلى قمم الأشجار في اتجاه الجنوب. شكرني وواصل طريقه، ولم نرهم بعدها.

صادفنا على الطريق بعد مدة مجموعة من ثلاث نساء وطفلين، منشغلين في إخلاء كوخ أحد العمال. فقد تمكنوا من الحصول على عربة يد صغيرة، ويكدسون فوقها رزمًا تبدو متسخة وأثاثًا رثًّا. وكانوا جميعًا في غاية الانشغال بحيث لم يتحدث أحد منهم معنا أثناء مرورنا.

خرجنا من بين أشجار الصنوبر عند محطة بايفليت، ووجدنا البلد هادئًا ومسالمًا تحت أشعة شمس الصباح. كنا بعيدين عن نطاق مدى الشعاع الحراري هناك. كان يمكن أن يبدو اليوم مثل أي يوم أحد آخر لولا صمت بعض المنازل المهجورة، والانشغال بحركة تعبئة الأمتعة في بعضها الآخر، ومجموعة الجنود الذين يقفون على الجسر فوق السكك الحديدية ويحدقون إلى أسفل فى اتجاه ووكينج.

كانت العديد من العربات الزراعية وعربات اليد تصدر صريرًا وهي تتحرك على طول الطريق إلى أدلستون. وفجأة رأينا من خلال بوابة أحد الحقول، وعبر امتداد مرج مستوٍ، ستة مدافع بكل منها 12 قذيفة تقف بانتظام على مسافات متساوية وفي اتجاه ووكينج. وقف جنود المدفعية ينتظرون بجوار المدافع، وكانت عربات الذخيرة تقع على مسافة منتظمة. وقف الرجال كأنهم فى وضع التفتيش.

قلت: «جيد! أمامهم فرصة واحدة عادلة، على أى حال».

تردد جندى المدفعية عند البوابة.

ثم قال: «سأواصل الطريق».

وعلى مسافة بعيدة في اتجاه ويبريدج، فوق الجسر مباشرة، وقف عدد من الرجال، يرتدون سترات عسكرية بيضاء، يشيدون استحكامات طويلة، وخلفهم المزيد من المدافع.

قال جندى المدفعية: «إنها كأقواس وسهام ضد البرق. لم يروا شعاع النار بعد».
وقف الضباط الذين لم يشاركوا بنشاط يحدقون في قمم الأشجار باتجاه الجنوب الغربي، بينما كان الرجال المنشغلون بالحفر يتوقفون بين الحين والآخر للتحديق في الاتجاه نفسه.
ساد الاضطراب قرية بايفليت: الناس يحزمون الأمتعة، وعشرات من جنود سلاح الفرسان- بعضهم ترجل، والبعض الآخر على ظهور الخيل– يدفعونهم للإجلاء. وفي شارع القرية، يجري تحميل ثلاث أو أربع عربات حكومية عليها علامة الصليب وسط دائرة بيضاء، وحافلة قديمة، من بين مركبات أخرى. وهناك عشرات الأشخاص ينشغل معظمهم بارتداء أفضل ملابسه، ويواجه الجنود صعوبة كبيرة لإقناعهم بخطورة موقفهم. رأينا زميلًا مسنًّا واهنًا يحمل صندوقًا ضخمًا ومجموعة من أواني زهور الأوركيد، يحتج بغضب مع العريف الذى يريده أن يتركهم. توقفت وأمسكت بذراعه.
قلت له، وأنا أشير إلى قمم أشجار الصنوبر التي أخفت المريخيين: «هل تعرف ماذا يوجد هناك؟»
أجاب وهو يستدير: «هه؟ كنت أوضح أنها أشياء ثمينة».
قلت صائحًا: «الموت! الموت قادم! الموت!»، وتركته يستوعب إن أمكنه، وأسرعت لألحق بجندي المدفعية. وعند الناصية، نظرت إلى الخلف. وجدت أن الجندي تركه، لكن الرجل لا يزال يقف بجوار صندوقه، بعد أن وضع أواني الأوركيد فوق غطائه، وأخذ يحدق شاردًا نحو الأشجار.
ليس بإمكان أحد في ويبريدج أن يخبرنا أين يقع مقر القوات العسكرية؛ فالمكان كله في حالة ارتباك لم أرها في أي بلدة من قبل. عربات، ومركبات في كل مكان، مجموعة مذهلة من وسائل النقل والخيول. وكان سكان المكان المحترمون -رجال يرتدون ملابس الجولف وملابس تجديف القوارب، وزوجات يرتدين ملابس جميلة– منشغلين في حزم الأمتعة؛ والمتسكعون على جانب النهر ينشطون في تقديم يد المساعدة، والأطفال متحمسون وأغلبهم في سعادة بالغة لهذا التغيير المدهش في خبرات أيام الأحد. وفي وسط ذلك كله، كان القسيس المبجل يعقد ببسالة قداسًا في وقت مبكر، ورنين جرس الكنيسة يعلو فوق الانفعالات.
جلست وجندي المدفعية على سلم سبيل مياه، وأعددنا وجبة مقبولة بما جلبناه معنا. وكانت دوريات الجنود– ليس الفرسان وإنما قاذفو القنابل الذين يرتدون ملابس بيضاء - تطالب الناس بالتحرك على الفور أو اللجوء إلى أقبيتهم بمجرد بدء إطلاق النار. رأينا ونحن نعبر جسر السكك الحديدية حشدًا متزايدًا من الناس يتجمعون داخل محطة السكك الحديدية وحولها، وكان الرصيف مزدحمًا بالصناديق والأمتعة. أعتقد أن حركة المرور العادية قد توقفت، بغية السماح بمرور القوات والمدافع إلى تشيرتسي، وسمعت حينذاك أن قتالًا وحشيًّا قد وقع من أجل الفوز بأماكن في القطارات الخاصة التي بدأت عملها في وقت لاحق.
بقينا في ويبريدج حتى منتصف النهار، وفي تلك الساعة وجدنا أنفسنا في مكان قريب من هويس شيبرتون، حيث يلتقي النهران: واي والتيمز. استغرقنا جزءًا من الوقت في مساعدة سيدتين مسنتين على حزم أمتعتهما في عربة صغيرة. لنهر واي ثلاثة فروع، ويمكن استئجار القوارب عند موقع تلاقيهم، كما تتوفر معدية لعبور النهر. يوجد على جانب شيبرتون نُزل به حديقة، يقع خلفها برج كنيسة شيبرتون –حلت محله قمة مستدقة- يرتفع أعلى من الأشجار.
وجدنا هنا حشدًا منفعلًا وصاخبًا من الفارين، لم يصل بهم الحال بعد إلى الذعر. لكن أعداد الناس هناك كانت بالفعل أكبر بكثير من أعداد القوارب التي يمكن أن تستوعبهم لعبور النهر. جاء الناس يلهثون بالأمتعة الثقيلة التي يحملونها؛ ها هو زوج وزوجة يحملان بابًا صغيرًا تكدست فوقه بعض أمتعتهما المنزلية. وأخبرنا رجل أنه كان يحاول الفرار عن

طريق محطة شيبرتون.

ضج المكان بالصراخ، وهناك رجل كان حتى يمزح. يبدو أن الفكرة التي سيطرت على الناس هنا أن المريخيين هم ببساطة بشر هائلو الحجم، قد يهاجمون البلدة وينهبونها، وفي النهاية يمكن القضاء عليهم. وكان الناس ينظرون بعصبية، بين الحين والآخر، عبر نهر واي إلى المروج في اتجاه تشيرتسي، لكن السكون كان لا يزال يعم كل شيء هناك.

كان كل شيء هادئًا عبر نهر التيمز، باستثناء المكان الذي هبطت فيه القوارب، على النقيض من ضفة النهر عند الجانب المطل على سووري. اتخذ الناس الذين هبطوا هناك من القوارب مسارهم على الطريق. كانت المعدية الكبيرة قد أنجزت رحلة للتو. وقف ثلاثة أو أربعة جنود في حديقة النُّزل يحدقون ويمزحون مع الفارين، دون أن يعرضوا تقديم المساعدة. كان النُّزل مغلقًا؛ لأننا الآن في ساعات الحظر.

صاح مراكبي: «ما هذا؟»، وقال رجل بجواري لكلب ينبح: «اخرس يا أحمق!». ثم جاء الصوت مرة أخرى، بمثابة هدير مكتوم- صوت مدفع- لكنه الآن من اتجاه تشيرتسي.

كانت بداية القتال. وفي الحال، على جانب الآخر من النهر على يميننا، أطلقت سريات مدفعية، تختبئ خلف الأشجار، وابلًا كثيفًا من القذائف واحدة تلو الأخرى. صرخت امرأة. تسمر الجميع لاندلاع المعركة المفاجئ بالقرب منا، ومع ذلك لم نر شيئًا. لم يكن بمقدورنا رؤية أي شيء سوى المروج المنبسطة، والأبقار التي ترعى غير معنية بما يحدث، وأشجار الصفصاف الفضية مقطوعة الأغصان التي تقف بلا حراك تحت ضوء الشمس الدافئ.

قالت امرأة متشككة، تقف بجانبي: «سوف يوقفهم الجنود». تصاعد الضباب فوق قمم الأشجار.

وفجأة رأينا اندفاع الدخان بعيدًا من النهر، نفخة من الدخان تصاعدت مرتعشة في الهواء وظلت معلقة؛ وعلى الفور اهتزت الأرض تحت أقدامنا وهز انفجار عنيف الهواء، ما أدى إلى تحطيم نافذتين أو ثلاث في المنازل القريبة، وتركنا مذهولين.

صاح رجل يرتدي سترة زرقاء: «ها هم! هناك! هل ترونهم؟ هناك!».

وسرعان ما ظهر المريخيون واحدًا تلو الآخر- واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة من المريخيين المدرعين– أعلى من الأشجار الصغيرة البعيدة، عبر المروج المنبسطة التي تمتد نحو تشيرتسي، وأخذوا يتقدمون على عجل بخطوات واسعة نحو النهر. ظهروا بداية ككائنات ترتدي قلنسوات، وتتحرك متأرجحة وبسرعة تماثل سرعة طيران الطيور.

ثم ظهر الخامس، وتقدم نحونا متمايلًا. لمعت أجسادهم المدرعة في الشمس وهم يندفعون بسرعة إلى الأمام فوق المدافع. زادت ضخامتهم مع زيادة اقترابهم. رفع أبعدهم، في أقصى اليسار، علبة ضخمة عاليًا في الهواء، وانطلق الشعاع الحراري الشبحي الرهيب– الذي سبق أن رأيته ليلة الجمعة– نحو تشيرتسي، وضرب البلدة.

وعند رؤية هذه المخلوقات الغريبة والسريعة والرهيبة، بدا لي للحظة أن الحشد القريب من حافة الماء قد أصابه الذعر. ما من صرخات أو صياح، بل ساد الصمت. ثم انطلقت أصوات همهمة غليظة وحركة أقدام– أصوات خوض في الماء. تمايل رجل، يخشى سقوط الحقيبة التي يحملها على كتفه، وجعلني أترنح نتيجة ضربة تلقيتها من جانب حقيبته. دفعتني امرأة بيدها، ثم أسرعت تركض. اندفعت نحوي بيدها وهرعت أمامي. استدرت مع اندفاع الناس، لكن خوفي لم يُعقْ تفكيري؛ فقد كان الشعاع الحراري الرهيب في ذهني. النزول تحت الماء! هذا هو الحل!

«عليكم النزول تحت الماء!»، صرختُ، ولكن لم يلتفت أحد.

تلفَّتُّ حولي ثانية، ثم اندفعتُ نحو المريخي الذي يقترب، ثم ركضت على حصى الشاطئ وقفزت دون تردد في الماء. تصرف البعض مثلي. قفز أشخاص من زورقهم المملوء بالناس، خلال اندفاعي بجوارهم. كانت الحجارة تحت قدمي موحلة وزلقة، وكان النهر ضحلًا للغاية لدرجة أنني ركضت ربما عشرين قدمًا والمياه تصل بالكاد إلى خصري. وعندما ظهر المريخي على مسافة بضع مئات من الياردات، ألقيت نفسي تحت سطح الماء. وعندما

قفز ركاب القوارب إلى النهر، ترددت في أذني أصوات تناثر المياه مثل قصف الرعد. أسرع الناس يهبطون على جانبي النهر. لكن الآلة المريخية لم تنتبه ولو للحظة للناس الذين يركضون بهذه الطريقة، مثلما لا ينتبه رجل لارتباك نمل في العش الذي ركلته قدمه. بدأت أشعر باختناق، فرفعت رأسي فوق الماء. كانت قلنسوة المريخي تشير إلى وحدات المدفعية التي لا تزال مستمرة في إطلاق النار عبر النهر. ومع تقدم المريخي، تدلى منه شيء، لا بد أنه مولد الشعاع الحراري.

وفي لحظة تالية، وصل المريخي إلى ضفة النهر، وقطع نصف المسافة بخطوة واسعة في الماء. انثنت ركبتا ساقيه الأماميتين عند الضفة الأخرى، ثم رفع نفسه بالكامل مرة أخرى في لحظة بالقرب من قرية شيبرتون. وعلى الفور، انطلقت في وقت واحد نيران المدافع الستة، التي لا يعرف بوجودها أحد على الضفة اليمنى، لأنها مخبأة خلف ضواحي تلك القرية. قفز قلبي من جراء هذه الانفجارات القريبة المفاجئة؛ إذ تتابعت الطلقات دون فاصل يُذكر بين الطلقتين الأولى والأخيرة. كان الوحش يرفع بالفعل علبة توليد الشعاع الحراري عندما انفجرت القذيفة الأولى على مسافة ست ياردات فوق قلنسوته.

صرخت مندهشًا. لم أرَ وحوش المريخ الأربعة الآخرين ولم أفكر فيهم؛ حيث انصب اهتمامي على الحادث القريب. انفجرت في وقت واحد قذيفتان في الهواء بالقرب من جسم الآلة المريخية، والتوَت قلنسوته في الوقت المناسب لتلقي القذيفة الرابعة، ولكن ليس في الوقت المناسب لتفاديها.

انفجرت القذيفة في وجهه مباشرة. انتفخت القلنسوة وومضت، ثم دارت في دوامة وانقسمت إلى عشرات من الأجزاء الممزقة من اللحم الأحمر والمعدن اللامع.

قلت بصوت يجمع بين الصراخ والهتاف: «اضرب!».

سمعت صيحات الناس في الماء حولي ترد على صيحتي. كدت أقفز من الماء من فرط ذلك الابتهاج اللحظي.

ترنح العملاق مقطوع الرأس كعملاق مخمور، لكنه لم يسقط. استعاد توازنه بمعجزة، لكنه لم يعُد منتبهًا لخطواته. أخذ يترنح بسرعة فوق شيبرتون، وهو يرفع بقوة الصندوق الذي يطلق الشعاع الحراري. قُتِل الذكاء الحي -المريخي داخل القلنسوة– وتناثرت أشلاؤه، وأصبحت الآلة الآن مجرد جهاز معدني معقد يدور متجهًا نحو دماره. سار في خط مستقيم غير قادر على التوجيه. اصطدم ببرج كنيسة شيبرتون وحطمه، مثل تأثير كبش ينطح بقوة، ثم انحرف العملاق جانبًا وتعثر، وانهار بقوة هائلة في النهر بعيدًا عن ناظري.

هز انفجار عنيف الهواء، واندفع سيل من الماء، والبخار، والطين، والمعادن المحطمة، إلى السماء. وعندما اصطدمت علبة الشعاع الحراري بالماء، أومض الماء على الفور وانبعث منه بخار. وفي لحظة تالية انطلقت موجة ضخمة، مثل موجة المد الموحلة وإن كانت شديدة الحرارة، اكتسحت المنعطف في اتجاه أعلى النهر. رأيت الناس يكافحون للوصول إلى الشاطئ، وسمعت صراخهم وصياحهم الذي وصلني خافتًا نتيجة الجلبة والهدير الذي أسفر عن انهيار المريخي.

لم أهتم للحظة بالحرارة، ونسيت الضرورة الملحة للحفاظ على الذات. تحركت خلال المياه العاصفة، ودفعت جانبًا رجلًا يرتدي ملابس سوداء كي أتمكن من مواصلة شق طريقي، إلى أن تمكنت من رؤية المنعطف. تأرجحت بلا هدف نصف دزينة من القوارب المهجورة، فوق الأمواج المضطربة. رأيت المريخي المنهار عند المصب، ممددًا عبر النهر، وأغلبه مغمور في الماء.

كانت سحب كثيفة من البخار تتدفق من الحطام. وتمكنت من خلال خيوطها الدوارة المضطربة من أن أرى، بشكل متقطع ومبهم، الأطراف العملاقة وهي تتحرك في الماء بعنف وتقذف دفقاتٍ ورذاذًا من الطين والرغوة في الهواء. كانت المجسات تتمايل وتضرب كأذرع حية. ولولا عجز هذه الحركات البائسة، لقلت إن كائنًا جريحًا يكافح من أجل حياته وسط الأمواج. تدفقت كميات هائلة من سائل بُنى تشوبه الحمرة منبثقًا من الآلة ومُحدثًا جلبة.

سمعت صرخة مدوية، تشبه ما تطلق عليه المدن الصناعية صافرة إنذار، حولت انتباهي عن اضطراب الموت. رأيت رجلًا تصل المياه إلى ركبتيه، بالقرب من الطريق المحاذي لضفة النهر، ويصيح بصوت ضعيف ويشير إليّ. نظرت إلى الوراء، ورأيت المريخيين الآخرين يتقدمون بخطوات عملاقة على ضفة النهر من اتجاه تشيرتسي. لم تنجح مدافع شيبرتون هذه المرة.

غطست على الفور في الماء، وحبست أنفاسي حتى أصبحت الحركة عذابًا. أخذت أتخبط بشكل مؤلم تحت السطح بقدر ما استطعت. كان الماء مضطربًا حولي، وتزداد سخونته بسرعة.

رفعت رأسي للحظة لالتقاط أنفاسي وإزالة الشعر والماء من عيني، رأيت البخار يتصاعد في دوامة ضباب أبيض، أخفى في البداية المريخيين تمامًا. كانت الضوضاء تصم الآذان. ثم رأيت أشكالهم باهتة، هيئات رمادية عملاقة زاد الضباب من ضخامتها. مروا بجواري، وانحنى اثنان منهم فوق أنقاض رفيقهم المزبدة المضطربة.

وقف الثالث والرابع بجانبه في الماء، ربما على بعد مائتي ياردة مني، والآخر باتجاه قرية لاليهام. ارتفعت ذبذبة مولدات الشعاع الحراري، وانطلقت إشارات الهسهسة بطريقة أو أخرى.

كان الهواء مليئًا بالأصوات، خليط متصارع من الضوضاء المُربِكة التي تصم الآذان – ضجيج المريخيين الصاخب، وتحطُّم المنازل المنهارة، وجلبة الأشجار والأسوار والحظائر التي اشتعلت فيها النيران، وطقطقة النار وزئيرها. وكان الدخان الأسود الكثيف يتقافز ليختلط بالبخار المتصاعد من النهر. وعندما كان الشعاع الحراري يتنقل جيئة وذهابًا فوق ويبريدج، وضح تأثيره بومضات من اللون الأبيض المتوهج، تترك مكانها على الفور لرقصة دخانية من ألسنة اللهب. لا تزال المنازل القريبة تقف دون مساس، في انتظار مصيرها، وتبدو مظللة وباهتة وشاحبة وسط البخار، فى حين تتنقل النيران خلفها جيئة وذهابًا.

وقفت هناك، ربما للحظات، والمياه التي تكاد تكون مغلية تصل إلى ارتفاع صدري. وقفت مصعوقًا من وضعي، ويائسًا من إيجاد مهرب. ومن خلال الدخان، تمكنت من رؤية الأشخاص الذين كانوا معي في النهر يخرجون من الماء متدافعين خلال الأعشاب -مثلما تسرع الضفادع الصغيرة خلال العشب عندما يقترب منها شخص- أو يركضون جيئة وذهابًا فى فزع تام على الطريق المحاذى لضفة النهر.

وفجأة ظهرت ومضات الشعاع الحراري البيضاء، متقافزة نحوي. انهارت المنازل، حيث ذابت عندما مسها الشعاع، واندلعت فيها النيران،؛ واشتعلت الأشجار هادرة. ومض الشعاع صعودًا وهبوطًا على الطريق المحاذي لضفة النهر، مكتسحًا الأشخاص الذين يركضون هنا وهناك، إلى أن وصل إلى حافة الماء على مسافة أقل من خمسين ياردة من المكان الذي أقف فيه. عبر الشعاع النهر إلى شيبرتون، وارتفعت المياه في مساره وهي تغلي ويتوجها البخار. استدرتُ نحو الشاطئ.

اندفعتْ نحوي بعد لحظة موجة ضخمة، تصل حرارتها إلى درجة الغليان تقريبًا. صرخت بصوت عال؛ وترنحت محروقًا، ونصف أعمى، ومتألمًا، خلال تقافز الماء وهسهسته نحو الشاطئ. لو تعثرت قدمي، لكانت نهايتي. انهرت بلا حول ولا قوة، على مرأى من المريخيين، فوق الأرض المنبسطة المملوءة بالحصى، التي يمتد اتساعها إلى زاوية التقاء نهرى واى والتيمز. لم أتوقع شيئًا سوى الموت.

لديّ ذاكرة قاتمة عن قدم أحد المريخيين تهبط على مسافة عدة ياردات من رأسي، فوق الحصى اللين بحيث يتناثر بشكل دائري في كافة الأنحاء. وأتذكر أيضًا فترة القلق الطويلة، قبل أن يحمل المريخيون الأربعة معًا حطام رفيقهم- يبدون بوضوح، ثم بشكل ضبابي من خلال ساتر الدخان – وهم يبتعدون دون توقف، كما بدا لي، عبر مساحة النهر والمرج الواسعة. وعندئذ، أدركت ببطء شديد أننى نجوت بمعجزة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(13)
كيف التقيت بالقسيس مصادفة؟

بعد أن تعلم المريخيون هذا الدرس المفاجئ عن قوة أسلحة كوكب الأرض، تراجعوا إلى موقعهم الأصلي على الأرض المشاع عند هورسل. وفي تسرعهم، وهم مثقلون بحطام رفيقهم المهشم، تغاضوا دون شك عن العديد من الضحايا التافهين أمثالي. لو كانوا تركوا رفيقهم وواصلوا طريقهم على الفور، لم يكن ليبعدهم عن لندن حينذاك سوى سريات بطاريات المدفعية التي تضم 12 من مدافع الهاون، ولكانوا وصلوا بالتأكيد إلى العاصمة قبل وصول أخبار اقترابهم؛ ولأصبح قدومهم المفاجئ، والمروع، والمدمر بمثابة الزلزال الذى دمر لشبونة(18) قبل قرن من الزمان.

لكنهم لم يكونوا في عجلة من أمرهم. تتابعت رحلات الأسطوانات واحدة تلو الأخرى عبر الكواكب؛ لتجلب لهم تعزيزات كل أربع وعشرين ساعة. وفي الوقت نفسه، أخذت السلطات العسكرية والبحرية تعمل بكامل طاقتها، بعد أن أدركت تمامًا قوة خصومها الهائلة. استمرت مدافع جديدة تتخذ مواقعها كل دقيقة؛ بحيث اختفت قبل الغسق كل أيكة، وكل صفوف فيلات الضواحي على المنحدرات الجبلية حول بلدتي كينجستون وريتشموند، وراء فوهة سوداء لأحد المدافع. وعبر المنطقة المتفحمة والخربة -ربما عشرين ميلًا مربعًا في مجملها- التي طوقت معسكر المريخيين في الأرض المشاع عند هورسل، وعبر القرى المتفحمة والمدمرة بين الأشجار الخضراء، وعبر الممرات المسودة التي لا يزال الدخان يتصاعد منها بعد أن كانت قبل يوم واحد أيكة من أشجار الصنوبر، زحف رجال مستطلعون مخلصون ومعهم أجهزة الهليوجراف التي استخدموها لتحذير رجال المدفعية من اقتراب المريخيين. لكن المريخيين فهموا الآن سيطرتنا على المدفعية وخطر الاقتراب من البشر؛ كما لم يغامر أى رجل بالاقتراب من الأسطوانتين أكثر من ميل، حتى لا يكلفه ذلك حياته.

يبدو أن هؤلاء العمالقة استغرقوا الفترة المبكرة من بعد الظهيرة في الانتقال جيئة وذهابًا لنقل كل شيء من الأسطوانتين الثانية والثالثة -الثانية في ساحات أدلستون للجولف، والثالثة في بيرفورد- إلى الحفرة الأصلية في الأرض المشاع عند هورسل. وهناك، فوق الأعشاب والمباني المسودة والمدمرة، التي امتدت على نطاق واسع، وقف أحدهم كحارس، بينما ترك بقيتهم آلات القتال الضخمة وهبطوا داخل الحفرة. أخذوا يعملون بجد داخلها حتى وقت متأخر من الليل، وكان العمود الشاهق من الدخان الأخضر الكثيف الذي يتصاعد من الحفرة يمكن رؤيته من التلال المحيطة بقرية ميرو. ويُقال حتى إنه كان مرئيًا من منخفضات بلدتى بانستيد وإبسوم.

وبينما كان المريخيون خلفي يستعدون لطلعتهم التالية، والبشر يتجمعون أمامي للمعركة، أخذت أشق طريقي نحو لندن وأنا أشعر بآلام لا حد لها وأبذل جهدًا مضنيًا خلال نيران ودخان ويبريدج المشتعلة.

رأيت قاربًا مهجورًا، صغيرًا جدًا ونائيًا، انجرف في اتجاه مجرى النهر. تخلصت من معظم ملابسي المبتلة، وتوجهت نحو القارب وحصلت عليه، وهكذا هربت من ذلك الدمار. لم يكن بالقارب أي مجاديف، لكنني استخدمت يديَّ كمجدافين، بقدر ما تسمح يداي المحترقتان، وتحركت نحو هاليفورد ووالتون ببطء شديد، وكنت أنظر خلفي باستمرار ويمكنك أن تتفهم ذلك جيدًا. تابعت مع النهر؛ إذ اعتبرت أن الماء أعطاني أفضل فرصة للهروب فى حال عودة هؤلاء العمالقة.

انجرفت معي المياه الساخنة في اتجاه مجرى النهر، نتيجة لسقوط الكائن المريخي، بحيث لم أعد أرى الضفتين على مسافة ميل في أفضل الأحوال. على أنني رأيت لمرة واحدة صفًا من هياكل سوداء تسرع عبر المروج من اتجاه ويبريدج. ويبدو أن قرية

هاليفورد كانت مهجورة، والنيران مشتعلة في العديد من المنازل المواجِهة للنهر. وكان من الغريب أن نرى المكان هادئًا ومقفرًا تحت السماء الزرقاء الساخنة، مع تصاعد الدخان وخيوط صغيرة من اللهب وسط حرارة فترة ما بعد الظهيرة. لم يسبق لي أن رأيت منازل تحترق دون حشود من الناس حولها. وعلى مسافة أبعد قليلًا، كانت أعواد القصب الجافة على الضفة متوهجة ويصدر منها دخان، كما كان خط من النيران يسير باطراد عبر ما كان حقلًا من الحشائش.

ظللت أنجرف لفترة طويلة، وأنا أشعر بألم وإرهاق شديدين بعد ما واجهته من عنف، علاوة على شدة الحرارة على الماء. ثم تملكتني المخاوف ثانية، فاستأنفت التجديف. أحرقت الشمس ظهري العاري. وأخيرًا، عندما أصبح جسر والتون مرئيًا في الأفق عند المنعطف، تغلب إعيائي وضعفي على مخاوفي وترجلت على ضفة ميدلسيكس ثم استلقيت في حالة مرضية شديدة وسط العشب الطويل. أعتقد أن الساعة كان الرابعة أو الخامسة. نهضت، ومشيت ربما نصف ميل دون لقاء أحد، ثم استلقيت ثانية تحت ظلال سياج من الشجيرات. أذكر أنني كنت أتحدث شاردًا إلى نفسي خلال تلك الفترة المجهدة. كنت أيضًا شديد العطش، وندمت كثيرًا أنني لم أشرب المزيد من الماء. ومن الغريب أنني شعرت بالغضب من زوجتي. لم أجد سببًا لذلك، لكن رغبتي العاجزة للوصول إلى ليذرهيد أقلقتني بشكل مفرط.

لا أتذكر بوضوح وصول القسيس، ربما غفوت. أدركت وجوده كشخص جالس يرتدي قميصًا أكمامه ملطّخة بالسخام، ووجهه المقلوب الحليق يحدق في وميض خافت يتراقص في السماء. اتخذت السماء شكلًا يُسمَّى السماء المرقطة- صفوف من أعمدة السحب الباهتة، لا تصطبغ إلا بلون غروب شمس منتصف الصيف.

جلست، ومع حفيف حركتى نظر نحوى بسرعة.

سألته فجأة: «هل لديك أى ماء؟».

هز رأسه.

وقال: «أنت تطلب الماء منذ ساعة».

صمتنا للحظة، كل منا يتفحص الآخر. أجرؤ على القول إنه وجدني شخصية غريبة بما فيه الكفاية؛ كنت عاريًا، باستثناء سروالي وجواربي الغارقة في الماء، ومحروقًا، ووجهي وكتفي يكتسيان بالسواد من جراء الدخان. كان وجهه ضعيفًا إلى حد ما، وذقنه متراجعة للخلف، وينسدل شعره المموج كالكتان على جبينه. وكانت عيناه كبيرتين نوعًا ما، ولونهما أزرق شاحبًا، ويحدق فى هدوء. وفجأة تحدث، وهو يبعد نظره عنى.

قال: «ماذا يعنى ذلك؟ ماذا تعنى هذه الأشياء؟».

نظرت نحوه محدقًا ولم أجب.

مد يده البيضاء الرفيعة، وتحدث في نبرة شاكية تقريبًا. «لماذا سُمِح بهذه الأمور؟ ما الخطايا التي ارتكبناها؟ بعد الانتهاء من الصلاة الصباحية، كنت أمشي خلال الطرقات لتصفية ذهني استعدادًا لفترة ما بعد الظهيرة، وعندئذ- النار، الزلزال، الموت! كأنها سدوم وعمورة(19)! انتهت كل أعمالنا، كل أعمالنا - ما هؤلاء المريخيون؟».

أجبته وأنا أتنحنح: «وما نحن؟».

أمسك بركبته وأدار بصره لينظر لى مرة أخرى. ظل لنصف دقيقة، ربما، يحدق بصمت.

قال: «كنت أسير خلال الطرقات لتصفية ذهنى. وفجأة– النار، والزلزال، والموت!».

عاد إلى الصمت، وذقنه الآن تكاد تصل إلى ركبتيه.

بدأ يلوح بيده.

«كل العمل... كل مدارس الأحد... ماذا فعلنا... ماذا فعلت ويبريدج؟ راح كل شيء... دُمِّرَ كل شيء... الكنيسة! لقد قمنا بإعادة بنائها قبل ثلاث سنوات فقط. راحت! لم تعد موجودة! لماذا؟».

صمت ثانية، ثم انطلق مرة أخرى كالمعتوه.

صاح: «يتصاعد دخان حريقها دومًا وإلى الأبد!».
توهجت عيناه، وأشار بإصبعه الهزيل فى اتجاه ويبريدج.
وهنا بدأت في تقييم حالته. لقد دفعته المأساة الرهيبة التي شهدها إلى حافة الجنون– فمن الواضح أنه هرب من ويبريدج.
سألته بنبرة تنم عن الأمر الواقع: «هل نحن بعيدون عن بلدة «سانبورى؟».
سألنى: «ماذا نفعل؟ هل توجد هذه المخلوقات فى كل مكان؟ هل سُلِّمت الأرض لهم؟».
- هل نحن بعيدون عن سانبرى؟
- لقد أقمت الشعائر الدينية اليوم، فى الصباح المبكر ...
قلت بهدوء: «لقد تغيرت الأمور. يجب أن تهدأ. لا يزال هناك أمل».
- أمل!
- نعم، أمل كبير... رغم كل هذا الدمار!
بدأت أشرح وجهة نظري حول وضعنا. استمع في البداية، ولكن مع استمرار حديثي حل تحديقه السابق محل الاهتمام الذى كان تبديه عيناه، وابتعد ببصره عنى.
قاطعني قائلًا: «لا بد أن هذه هي بداية النهاية. النهاية! يوم الرب، اليوم العظيم والرهيب! عندما ينادي الناس على الجبال والصخور لتسقط عليهم وتخفيهم... تخفيهم عن وجهه، وجه القدير الذى يستوى على العرش!».
بدأت أفهم الوضع. توقفت عن التفكير الجاد، وبذلت جهدًا لأنهض على قدمي، وقفت أمامه ووضعت يدى على كتفه.
قلت له: «كن رجلًا! أنت مذعور! ما فائدة الدين إذا انهار عند وقوع كارثة؟ فكّر في ما فعلته الزلازل والفيضانات والحروب والبراكين من قبل بالبشر! هل تعتقد أن الرب استثنى ويبريدج؟».
جلس صامتًا لفترة.
وفجأة سأل: «ولكن كيف يمكننا الهروب؟ إنهم منيعون، وبلا رحمة».
أجبته: «لا هذا ولا ذاك، ربما. وكلما كانوا أقوى، علينا أن نكون أكثر عقلانية وحذرًا. لقد قُتِل أحدهم منذ ثلاث ساعات».
قال وهو يحدق نحوى: «قُتِل! كيف يمكن قتل مبعوثى الفضاء؟».
بدأت أحكي له: «لقد رأيت ذلك يحدث؛ تصادف وجودنا أثناء حدوث ذلك، وهذا كل شىء».
سأل فجأة: «ما هذا الوميض الذى يظهر فى السماء؟».
أخبرته أنها إشارة جهاز الهليوجراف، وأنها علامة تظهر في السماء تشير إلى المساعدة الإنسانية والجهد.
قلت: «علينا أن نهدأ ونحن في وسط ذلك. يخبرنا ذلك الوميض في السماء عن العاصفة التي تتجمع. وأعتقد أن المريخيين يتحركون وفي اتجاه لندن، حيث ترتفع تلك التلال حول ريتشموند وكينجستون، وتوفر الأشجار غطاءً. ويتولى الجنود الآن إقامة المتاريس، كما تتخذ المدافع مواقعها. وسوف يأتى المريخيون الآن من هذا الطريق مرة أخرى».
نهض على قدميه وأنا أتحدث، وأوقفنى بإيماءة.
قال: «أنصت!».
من وراء التلال المنخفضة، على الضفة الأخرى من النهر، جاء صدى صوت خافت صادر من المدافع البعيدة، وصراخ غريب عن بُعد. ثم ساد السكون. مرت خنفساء متكاسلة فوق سياج الأشجار، وتجاوزتنا. ظهر الهلال عاليًا في الغرب، باهتًا وشاحبًا فوق الدخان المتصاعد من ويبريدج وشيبرتون وحرارة غروب الشمس الذى لا يزال رائعًا.
قلت: «من الأفضل أن نتبع هذا الطريق، فى اتجاه الشمال».
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(14)
فى لندن

كان أخي الأصغر في لندن عندما هبط المريخيون في ووكينج. وأخي طالب في كلية الطب، ويستعد لاختبار وشيك، ولم يسمع شيئًا عن وصول المريخيين حتى صباح السبت. تضمنت صحف يوم السبت الصحافية -بالإضافة إلى مقالات خاصة مطولة عن كوكب المريخ، وعن الحياة في الكواكب، وما إلى ذلك- برقية قصيرة غامضة الصياغة، لفت إيجازها الأنظار.

قتل المريخيون، الذين أزعجهم اقتراب حشد من الناس، عددًا من الأشخاص بمدفع سريع الطلقات- هكذا نُشِرت القصة. واختُتِمت البرقية بعبارة: «على الرغم من ضخامة المريخيين، لم يتحركوا من الحفرة التي هبطوا فيها، ويبدو أنهم في الواقع غير قادرين على ذلك. وربما يرجع ذلك إلى القوة النسبية لطاقة جاذبية كوكب الأرض». وقد توسع كاتب الصحيفة الرئيس حول هذه العبارة الأخيرة بصيغة مطمئنة.

وبطبيعة الحال، كان جميع الطلاب في فصل الأحياء، الذي ذهب إليه أخي في ذلك اليوم، مهتمين بدرجة كبيرة، لكن الشوارع لم تشهد أي علامات على إثارة غير عادية. نشرت الصحف المسائية قصاصات من الأخبار تحت عناوين كبيرة. لم يكن لديهم ما يقولونه حتى الساعة الثامنة غير تحركات القوات حول الأرض المشاع، وحرق غابات الصنوبر بين ووكينج وويبريدج. ثم أعلنت جريدة «سان جيمس جازيت»، في طبعة إضافية خاصة، حقيقة انقطاع الاتصالات التلغرافية. وكان من المعتقد أن هذا الانقطاع يرجع إلى سقوط أشجار الصنوبر المحترقة فوق خط الاتصال. لم يكن معروفًا أكثر من نشوب قتال فى تلك الليلة... ليلة رحلتى إلى ليذرهيد والعودة.

لم يشعر أخي بأي قلق علينا؛ لأنه كان يعرف من وصف الصحف أن الأسطوانة تقع على بعد ميلين من منزلي. وقد قرر أن يزورني في تلك الليلة كي يتمكن، كما يقول، من رؤية تلك الأشياء المريخية قبل قتلها. أرسل إليَّ برقية في الساعة الرابعة تقريبًا، لكنها لم تصلني أبدًا، وأمضى المساء فى قاعة للموسيقى.

شهدت لندن أيضًا عاصفة رعدية في ليلة السبت، ووصل أخي إلى ووترلو في سيارة أجرة. وعند رصيف قطار منتصف الليل، عرف بعد فترة من الانتظار أن حادثًا منع وصول القطارات إلى ووكينج في تلك الليلة. لكنه لم يستطع معرفة طبيعة الحادث؛ فالسلطات في هيئة السكك الحديدية لم تكن تعرف، في الواقع، ماذا حدث تحديدًا. كان التوتر في المحطة محدودًا؛ ذلك أن المسؤولين، الذين لم يعرفوا أي شيء أكثر من حدوث انهيار بين تقاطع بايفليت ووويكينج، كانوا يتولون تشغيل القطارات التي تمر عادة بتقاطع ووكينج عن طريق فرجينيا ووتر أو جيلدفورد. كما كانوا مشغولين باتخاذ الترتيبات اللازمة لتغيير مسار رحلات قطارات صنداي ليج المتجهة إلى ساوثهامبتون وبورتسموث. أسرع مراسل صحيفة ليلية إلى أخي، متصورًا أنه مدير حركة سير القطارات –لأن بينهما بعض الشبه- وحاول إجراء مقابلة معه. ربط عدد قليل من الناس، باستثناء مسؤولي السكك الحديدية، ذلك الانهيار بالمريخيين.

قرأت، في رواية أخرى لهذه الأحداث، أنه في صباح يوم الأحد «كانت لندن كلها مشحونة من الأخبار الواردة من ووكينج». وفي الواقع، ليس هناك ما يبرر هذه العبارة المتهورة. لم يسمع الكثيرون من سكان لندن عن المريخيين حتى ساد الذعر في صباح يوم الإثنين. ومن سمعوا بالأخبار، استغرقوا وقتًا لإدراك تلك البرقيات التي صيغت على عجل ونقلتها صحف الأحد. ولا يقرأ غالبية الناس فى لندن صحف الأحد.

علاوة على ذلك، يتأصل الشعور بالأمن الشخصي عادة في ذهن اللندنيين بعمق، كما أن

الأخبار المروعة أصبحت أمرًا مألوفًا في الصحف، إلى حد أنه يمكن قراءتها دون أي هزات شخصية: «خرج المريخيون من الأسطوانة في حوالي الساعة السابعة من مساء أمس، وتحركوا داخل دروع معدنية، ودمروا محطة ووكينج بالكامل والمنازل المجاورة لها، وذبحوا كتيبة كاملة من فوج كارديجان. ولا توجد تفاصيل معروفة. لم تكن مدافع مكسيم مجدية على الإطلاق ضد دروعهم؛ كما تمكنوا من تعطيل المدافع الميدانية. كان جنود سلاح الفرسان يركضون نحو تشيرتسي. يبدو أن المريخيين يتحركون ببطء نحو تشيرتسي أو وندسور. ويسود قلق كبير في غرب سووري، ويجري بناء المتاريس لمنع تقدمهم نحو لندن». هذه كانت صياغة صحيفة «صنداي صن»؛ كما قام مقال تفصيلي بارز نُشر في جريدة «ريفيرى» بتشبيه ما حدث بإطلاق سراح حيوانات بحديقة حيوان فجأة فى قرية.

لا يعرف أحد في لندن بشكل يقيني طبيعة المريخيين المدرعين، ولا تزال هناك فكرة ثابتة أن هذه الوحوش لا بد أنها بطيئة: «يزحفون»، «يزحفون بشكل مؤلم» — ظهرت مثل تلك الكلمات والعبارات في جميع التقارير السابقة تقريبًا. لم يكتب أي شاهد عيان تلك البرقيات التي تتحدث عن تقدم المريخيين. ونشرت صحف الأحد طبعات منفصلة مع وصول المزيد من الأخبار، وحتى في حالة عدم وجود أخبار. وعمليًا، لم يكن هناك شيء آخر يمكن إبلاغ الناس به حتى وقت متأخر من بعد الظهيرة، عندما أعطت السلطات لوكالات الأنباء الأخبار التي في حوزتها. قالت إن سكان والتون وويبريدج، والمنطقة برمتها، يتدفقون على الطرقات نحو لندن — وهذا كان كل شيء.

ذهب أخي إلى الكنيسة في مستشفى فاوندلينج في الصباح، وهو لا يزال لا يعرف ما حدث في الليلة السابقة. وهناك سمع تلميحات إلى الغزو، وصلاة خاصة من أجل السلام. خرج من الكنيسة، واشترى جريدة «ريفيري». أزعجته الأخبار، فذهب مرة أخرى إلى محطة واترلو ليتحقق من استعادة الاتصالات. يبدو أن العربات العامة، والعربات، وراكبي الدراجات، وعددًا لا يُحصى من الأشخاص الذين يسيرون مرتدين أفضل ملابسهم، لم يتأثروا بما يقوله بائعو الصحف عن تلك الكائنات الذكية. انصب اهتمام الناس أو جزعهم على السكان المحليين فقط. سمع أخي في المحطة، للمرة الأولى، أن خطوط وندسور وتشيرتسي قد تعطلت الآن. وأخبره الحمّالون بوصول عدة برقيات غير عادية في الصباح من محطتي بايفليت وتشيرتسي، لكن وصولها توقف فجأة. لم يتمكن أخي من الحصول منهم إلا على قليل من التفاصيل الدقيقة.

«القتال يدور حول ويبريدج»، كانت هذه هى المعلومات الوحيدة لديهم.

تفتقر خدمة القطارات الآن إلى التنظيم بدرجة كبيرة. وقف عند المحطة عدد كبير من الناس الذين يتوقعون وصول أصدقاء من أماكن تقع على شبكة الجنوب الغربي. جاء رجل عجوز، رمادي الشعر، واشتكى لأخي بمرارة من شركة الجنوب الغربي؛ ثم قال: «يجب فضحهم».

وصل قطار أو قطاران من ريتشموند، وبوتني، وكينجستون، يحملون ركابًا خرجوا للنزهة في الزوارق ليوم واحد ووجدوا كل شيء مغلقًا والشعور بالذعر يسود في الأجواء. تحدث مع أخي رجل يرتدي سترة تجمع بين اللونين الأزرق والأبيض، وأخبره بالعديد من الأنباء الغريبة.

قال: «يقود حشود من الناس عرباتهم إلى كينجستون، ويحملون متاعهم وصناديق بأشيائهم الثمينة. إنهم قادمون من موليسي وويبريدج ووالتون، ويقولون إنهم سمعوا أصوات المدافع وإطلاق النار بكثافة في تشيرتسي، وطلب منهم جنود سلاح الفرسان الفرار في الحال لأن المريخيين قادمون. سمعنا أصوات إطلاق النار في محطة هامبتون كورت، لكننا تصورنا أنه الرعد. ما معنى ذلك؟ ليس بإمكان المريخيين الخروج من حفرتهم، أليس كذلك؟».

لم يستطع أخى أن يرد عليه.

وجد أخي بعد ذلك أن الشعور المبهم بالذعر قد انتشر ووصل أيضًا إلى ركاب قطارات

الأنفاق، وأن المتنزهين يوم الأحد بدأوا يعودون من متنزهات شبكة الجنوب الغربي –بارنز، ويمبلدون، ريتشموند بارك، كيو، وغيرها– في ساعات مبكرة على غير العادة؛ ولم يكن لدى أي منهم ما يرويه أكثر من شائعات مبهمة. بدا المزاج السيئ على كل من يوجد في المحطة.

وفي حوالي الساعة الخامسة، كان الحشد المتجمع في المحطة متحمسًا للغاية لفتح خط الاتصال، المغلق دائمًا تقريبًا، بين محطات الجنوب الشرقي والجنوب الغربي، ومرور شاحنات النقل التي تحمل المدافع، فضلًا عن العربات الضخمة المكتظة بالجنود. لقد كانت المدافع التي تم إحضارها من وولويتش وشاتهام لتغطية كينجستون. تبادل الناس المزاح: «سيأكلونكم!»، «نحن نروض الوحوش!»، وما إلى ذلك. وبعد فترة قصيرة، دخلت فرقة من الشرطة إلى المحطة وبدأت في إجلاء الجمهور من الأرصفة، وخرج أخي إلى الشارع مرة أخرى.

كانت أجراس الكنيسة تقرع إيذانًا بصلاة المساء، وجاءت فرقة من فتيات «جيش الخلاص»(20) تنشد التراتيل على طريق واترلو. وعلى الجسر، كان عدد من المتسكعين يشاهدون زبدًا غريبًا بني اللون ينجرف مع التيار على شكل بقع. بدأت الشمس تغرب، وارتفع برج الساعة ومبنى البرلمان في ظل أكثر الأجواء التي يمكن تخيلها هدوءًا؛ سماء ذهبية، مغطاة بخطوط عرضية طويلة من سحب أرجوانية ضاربة إلى الحمرة. هناك حديث عن جثة عائمة. ورجل هناك، قال إنه جندي احتياطي، أخبر أخي أنه رأى وميض الهليوجراف في الغرب.

التقى أخي في شارع ولينجتون برجلين يتسمان بقوة البنيان والخشونة، اندفعا لتوهما من شارع فليت وبحوزتهما صحف حديثة الصدور ولافتات بارزة. «يا لها من كارثة مروعة!»، صاح أحدهما عند شارع ولينجتون. «القتال في ويبريدج! وصف كامل! صدّ المريخيين! لندن في خطر!». كان عليه أن يدفع ثلاثة بنسات ليحصل على نسخة من تلك الصحيفة.

أدرك عندئذ فقط مدى قوة تلك الوحوش وما تثيره من ذعر. عرف أنهم ليسوا مجرد حفنة من المخلوقات الصغيرة البطيئة، وإنما عقول تدير أجسامًا ميكانيكية ضخمة؛ بل يمكنهم أيضًا التحرك بسرعة وتسديد ضربات بقوة لا تستطيع حتى أقوى البنادق الوقوف ضدها.

جاء في وصفهم أنهم «آلات ضخمة تشبه العنكبوت، يبلغ ارتفاع كل منها حوالي مائة قدم، وتماثل سرعتها سرعة قطار سريع، وقادرة على إطلاق شعاع من الحرارة الشديدة». وقد وُضعت سريات مدفعية بعد تخبئتها، وأساسًا من المدافع الميدانية، في البلد حول الأرض المشاع عند هورسل، لا سيما بين ووكينج ولندن. شُوهدت خمس من تلك الآلات تتحرك نحو نهر التيمز، وأمكن بمصادفة سعيدة تدمير إحداها. بيد أن القذائف لم تصبها في الحالات الأخرى، بينما أبادت الأشعة الحرارية على الفور سريات المدفعية. ذكرت الصحف وقوع خسائر فادحة بين الجنود، لكن صياغة الخبر كانت متفائلة.

لقد أمكن صد المريخيين، فهم ليسوا منيعين. وتراجعوا إلى مثلث أسطواناتهم مرة أخرى، في الدائرة التي تحيط بووكينج. وكان مُرسِلو إشارات الهليوجراف يتقدمون نحوهم من جميع الجوانب. كما كانت المدافع تُنقل سريعًا من وندسور، بورتسموث، ألدرشوت، وولويتش- وحتى من الشمال؛ ومن بينها نقل مدافع بمواسير طويلة، تزن خمسة وتسعين طنًّا، من وولويتش. وفي المجمل، استقر مائة وستة عشر مدفعًا في موقعه، أو على وشك أن يصل إلى موقعه، ليغطي لندن في الأساس. لم يحدث في إنجلترا من قبل مثل هذا التركيز الواسع أو السريع للمعدات العسكرية.

وكان من المأمول التمكن من تدمير أي أسطوانات أخرى تسقط على الفور، وذلك باستخدام مواد شديدة الانفجار يجري تصنيعها وتوزيعها بسرعة. وقد أشارت تقارير الصحف إلى أن الوضع كان يحمل دون شك أغرب وأخطر أوصاف؛ لكنها حثت الجمهور

على التخلص من الذعر وتجنبه. لا شك أن المريخيين كانوا يتسمون بالغرابة والفظاعة إلى أقصى حد، لكن عددهم لا يمكن أن يزيد على عشرين فى مواجهتنا ونحن ملايين.

افترضت السلطات، انطلاقًا من حجم الأسطوانات، أن كل أسطوانة لا يمكن أن تحمل أكثر من خمسة– أي هم خمسة عشر في المجمل. وقد أمكن التخلص من واحد على الأقل - وربما أكثر. وتقوم السلطات بتحذير الجمهور عند اقتراب الخطر، مع اتخاذ إجراءات مشددة لحماية المواطنين فى الضواحي الجنوبية الغربية المهددة. وانتهى التقرير بتكرار التأكيد على سلامة لندن، وقدرة السلطات على مواجهة هذه الوضع الصعب.

نُشر هذا التقرير بخط كبير في الصحف التي صدرت لتوها، حتى أن حبر الطباعة لم يجف بعد، وليس هناك وقت لإضافة تعليق. وقال أخي إنه من الغريب أن ترى كيف أمكن اقتطاع المحتويات المعتادة فى الصحيفة بلا رحمة كى يأخذ هذا التقرير مكانها.

يمكنك أن ترى الناس في شارع ولينجتون يقلبون الأوراق الوردية ويقرأون. وفجأة أصبح شارع ستراند صاخبًا بأصوات جيش من الباعة المتجولين الذين جاءوا في أعقاب هؤلاء الفارين الأوائل. تدافع الرجال من العربات العامة لشراء نسخ من الصحيفة. أثارت هذه الأخبار حماس الناس بالتأكيد، بعد شعورهم السابق باللا مبالاة. قال أخي إن الناس انتزعت مصراعي متجر للخرائط في شارع ستراند. ورأى في داخل المتجر رجلًا يرتدي ملابس يوم الأحد، وقفازات باللون الأصفر الليموني، ويلصق متعجلًا خرائط سووري على الزجاج.

واصل أخي سيره على طول شارع ستراند إلى ميدان ترافالجر والصحيفة في يده، ورأى خلال سيره بعض الفارين من غرب سووري. شاهد رجلًا وبرفقته زوجته وصبيان، ومعهم بعض قطع الأثاث، في عربة يد تشبه عربات بائعي الخضر. كان يسوق العربة من اتجاه جسر وستمنستر؛ وتتحرك خلفه، على مسافة قريبة، عربة لنقل القش تضم خمسة أو ستة أشخاص مظهرهم ينم على الاحترام ومعهم بعض الصناديق والحِزم. كان الإنهاك يبدو على وجوههم، ومظهرهم بأكمله يتناقض بشكل واضح مع مظهر راكبي العربات العامة الذين يرتدون أفضل ملابسهم في يوم الأحد. تطلع نحوهم راكبو عربات الأجرة الذين يرتدون ملابس أنيقة. توقفوا في الميدان كما لو كانوا يترددون في اختيار الطريق الذي يتخذونه، ثم اتجهوا في النهاية شرقًا على طول شارع ستراند. وجاء بعدهم بمسافة رجل يرتدي ملابس العمل، ويركب دراجة عتيقة الطراز من ثلاث عجلات، بعجلة أمامية صغيرة. كان رثًّا وشاحب الوجه.

استدار أخي نحو محطة فيكتوريا، والتقى عددًا من مثل هؤلاء الناس. تصور أنه قد يجدني. لاحظ وجود عدد غير عادي من رجال الشرطة ينظمون حركة المرور. وكان بعض النازحين يتبادلون الأخبار مع ركاب العربات العامة. أكد أحدهم أنه رأى المريخيين: «مراجل فوق عكازات، أقول لكم، ويسيرون بخطوات واسعة مثل البشر». وكان معظمهم يشعر بالإثارة والحماس من هذه التجربة الغريبة التى مروا بها.

نشط أصحابُ النُّزل خلف محطة فيكتوريا في التجارة مع هؤلاء الوافدين. وكنت ترى، في جميع أركان الشوارع، مجموعات من الناس يقرأون الصحف، ويتحدثون بحماس، أو يحدقون في زوار الأحد غير المعتادين. ويبدو أن أعدادهم تزايدت مع حلول الليل، حتى أصبحت الطرق في النهاية – كما قال أخي - مثل الشارع الرئيس في مدينة إبسوم يوم سباق الخيل. تحدث أخي مع العديد من هؤلاء الفارين، وكانت معظم الإجابات التي حصل عليها غير مُرضية.

لم يستطع أي منهم أن يخبره بأي أنباء عن ووكينج باستثناء رجل واحد، أكد له أن ووكينج أصابها دمار كامل فى الليلة السابقة.

قال: «أتيت من بايفليت. جاء رجل على دراجة في الصباح الباكر، وركض من باب إلى باب يحذرنا ويطلب منا أن نرحل. ثم جاء الجنود. خرجنا ننظر، ورأينا سحب الدخان جنوبًا – لا شيء سوى الدخان، ولم يأت أي شخص من هذا الطريق. ثم سمعنا أصوات المدافع في

تشيرتسى، وحشودًا قادمة من ويبريدج. ولذا أوصدت منزلى وأتيت».
ساد شعور قوي في الشوارع حينذاك بأن السلطات هي المسؤولة، نظرًا لعجزها عن التخلص من الغزاة بعد كل هذا الذعر.
وفي حوالي الساعة الثامنة، كان ضجيج إطلاق النيران بكثافة مسموعًا بوضوح في جميع أنحاء جنوب لندن. لم يسمعه أخي بسبب حركة المرور في الطرق الرئيسة، لكنه تمكن من تمييزه بوضوح عندما سار فى الشوارع الخلفية الهادئة المؤدية إلى النهر.
سار من وستمنستر إلى شقته بالقرب من ريجنت بارك، حوالي الساعة الثانية. شعر بقلق شديد عليَّ، وأزعجه حجم المشكلة الواضح. كان عقله يميل إلى التفكير في العمليات العسكرية، كما حدث معي يوم السبت. فكّر في كل تلك المدافع الصامتة المنتظِرة، وفي الريف الذي رحل سكانه فجأة؛ وحاول أن يتخيل «المراجل فوق العكازات» التي يبلغ طولها مائة قدم.
كانت هناك عربة أو عربتان محملتين باللاجئين في شارع أكسفورد، وعدة عربات في طريق ماريليبون؛ لكن الأنباء كانت تنتشر ببطء شديد، بحيث امتلأ شارع ريجنت وميدان بورتلاند بالمتنزهين المعتادين في ليلة الأحد. ومع حديث الناس في مجموعات، شهدت أطراف ريجنت بارك العديد من الثنائيات الصامتة، «يتنزهون» تحت مصابيح الغاز المتناثرة، كما يحدث هناك دائمًا. كان الليل دافئًا وساكنًا، ومُضجِرًا قليلًا. استمر صوت المدافع بشكل متقطع، وبدأ بعد منتصف الليل لمعان البرق فى الجنوب.
قرأ أخي الصحيفة ثم أعاد قراءتها، خشية أن يكون أصابني مكروه. كان مضطربًا، وخرج ثانية بعد العشاء ليتجول بلا هدف. عاد، وحاول عبثًا تحويل انتباهه إلى أوراق اختباره الوشيك. ذهب إلى الفراش بعد منتصف الليل بقليل، واستيقظ من أحلام مزعجة في ساعة مبكرة من يوم الإثنين على صوت طرق على الأبواب، وأقدام تجري في الشارع، وقرع الطبول من بعيد، وصخب الأجراس. تراقصت انعكاسات حمراء على السقف. ظل راقدًا للحظة مندهشًا، متسائلًا ما إذا كان الصباح قد أشرق أم جُن جنون العالم. قفز من السرير وركض إلى النافذة.
كانت غرفته تحت سطح المنزل مباشرة. وبينما كان يخرج رأسه من النافذة، سمع ضجيج فتح نوافذ المنازل على طول الشارع، وتطل منها رؤوس استيقظت منزعجة، وتصيح متسائلة عما يحدث. قال شرطي وهو يدق على الباب: «إنهم قادمون! المريخيون قادمون!»، ثم أسرع إلى الباب المجاور.

جاء صوت الطبول ونفخ الأبواق من ثكنات شارع ألباني، وكانت كل كنيسة على مدى السمع تعمل بجد لتوقظ الناس بدق ناقوس الخطر بقوة. انتشر ضجيج فتح الأبواب، كما أخذت النوافذ تومض واحدة تلو الأخرى في المنازل المقابلة وتنتقل من الظلام إلى الإضاءة الصفراء.
ظهرت في الشارع عربة مغلقة تتحرك بسرعة، وأثارت فجأة ضوضاء عند الناصية، وبلغت القعقعة ذروتها تحت النافذة، ثم بدأت تخفت ببطء مع ابتعاد العربة. ظهرت خلفها عربتا أجرة، كانتا في مقدمة موكب طويل من العربات المسرعة التي يتجه معظمها إلى محطة تشوك فارم، حيث يجري تحميل قطارات الشمال الغربي الخاصة، بدلًا من هبوط المنحدر نحو يوستون.
ظل أخي يحدق من النافذة لفترة طويلة في ذهول، يراقب رجال الشرطة وهم يطرقون بابًا تلو الآخر، ويبلغون رسالتهم المبهمة. ثم فُتِح الباب خلفه، ودخل أحد المستأجرين. كان يرتدي قميصًا وبنطالًا وخُفًّا، وحمالات بنطاله فضفاضة حول خصره، وشعره مشعث من أثر النوم.
سأل: «ماذا يحدث؟ هل هناك حريق؟ يا له من ضجيج!».
مد كلاهما رأسه من النافذة، وحاولا جاهدين سماع ما يقوله رجال الشرطة في صيحاتهم. كان الناس يخرجون من الشوارع الجانبية، ويقفون في مجموعات على النواصي

يتحدثون.
قال المستأجر، زميل أخي: «ما كل هذا؟».
أجابه أخي على نحو مبهم وبدأ يرتدي ملابسه، وهو يركض مع قطعة ملابس إلى النافذة حتى لا يفوته شيء من هذه الإثارة المتزايدة. جاء الآن بائعو الصحف في موعد مبكر عن المعتاد، وهم يصرخون فى الشارع:
«خطر الاختناق يحيط بلندن! هزيمة دفاعات كينجستون وريتشموند! مجازر مخيفة فى وادى التيمز!».
في كل مكان حوله– في غرف الطوابق السفلى، في المنازل على جانبي الطريق وعبره، وفي الخلف في المباني السكنية وفي مئات الشوارع الأخرى في ذلك الجزء من ماريلبون، ومنطقة ويستبورن بارك وسانت بانكراس، وغربًا وشمالًا في كيلبورن وسانت جون وود وهامبستد، وشرقًا في شورديتش وهايبري وهاجرستون وهوكستون، وفي الواقع على مدى اتساع لندن من إيلينج إلى إيستهام- كان الناس يفركون أعينهم، ويفتحون النوافذ للتحديق وطرح أسئلة بلا هدف، وهم يرتدون ملابسهم على عجل مع هبوب أول نفخات عاصفة الخوف في الشوارع. كان فجر الذعر الكبير. استيقظت لندن، التي نامت ليلة الأحد غافلة وخاملة، استيقظت فى الساعات الأولى من صباح يوم الإثنين على شعور حقيقى بالخطر.
نزل أخي إلى الشارع؛ لأنه لم يتمكن من معرفة ما يحدث من نافذته، وكان لون السماء ورديًّا بين حواجز شرفات المنازل مع بزوغ الفجر. تزايدت في كل لحظة أعداد الناس الذين يتحركون مسرعين سيرًا على الأقدام وفي المركبات. سمع الناس يصيحون: «دخان أسود!»، ويكررون: «دخان أسود!». كانت عدوى هذا الخوف الجماعي حتمية. وخلال تردد أخي على عتبة الباب، رأى بائع صحف آخر يقترب، فاشترى صحيفة على الفور. كان الرجل يركض مع الناس، ويبيع الصحيفة مقابل شلن وهو يركض- اختلاط بشع من الربح والذعر.
قرأ أخي فى هذه الصحيفة رسالة رئيس الأركان الكارثية:
«المريخيون قادرون على إطلاق سحب هائلة من بخار أسود وسام بواسطة قذائف. لقد خنقت سريات مدفعيتنا، ودمرت ريتشموند وكينجستون وويمبلدون، ويتقدمون ببطء نحو لندن، مع تدمير كل شيء في طريقهم. من المستحيل إيقافهم. ما من طريقة للنجاة من الدخان الأسود سوى الهروب الفورى».
هذا كل ما ورد في الرسالة، لكنه كان كافيًا لكي يتحرك جميع سكان المدينة الكبيرة، البالغ عددهم ستة ملايين نسمة، ويسقطون، ويركضون؛ وحاليًا يتدفقون بشكل جماعي في اتجاه الشمال.
تعالت الأصوات: «دخان أسود! حريق!».
أحدثت أجراس الكنيسة المجاورة جلبة صاخبة، وتحطمت عربة يد على حوض المياه في الشارع، كان سائقها يقودها بلا مبالاة وسط الصراخ والشتائم. كانت الأضواء الصفراء الباهتة تضيء وتنطفئ داخل البيوت، وتتباهى بعض سيارات الأجرة المارة بمصابيحها المنيرة. وكان الفجر يزداد بهاء، ويشرق صافيًا وثابتًا وهادئًا.
سمع أخي خطوات تتحرك جيئة وذهابًا في الغرف، وصعودًا وهبوطًا على السلم خلفه. جاءت صاحبة المنزل إلى الباب، مرتدية ملابس منزلية وشالًا، وخلفها زوجها يصيح بصوت عال.
وعندما بدأ أخي يدرك مغزى كل هذه الأشياء، اتجه على عجل إلى غرفته ووضع كل ما لديه من أموال فى جيوبه -حوالى عشرة جنيهات فى مجملها- ثم خرج إلى الشارع ثانية.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(15)
ما حدث فى سوورى

استأنف المريخيون الهجوم في الوقت الذي كان القسيس يجلس ويحدثني مذعورًا تحت سياج من الشجيرات في المروج المستوية بالقرب من هاليفورد، وكان أخي يشاهد تدفق الهاربين فوق جسر وستمنستر. وبقدر ما يمكن التأكد من الروايات المتضاربة، انشغلت غالبية المريخيين بالاستعدادات في حفرة هورسل حتى التاسعة من تلك الليلة، مع تعجيل بعض العمليات التى أدت إلى إطلاق كميات هائلة من الدخان الأخضر.

لكن ثلاثة منهم خرجوا بالتأكيد حوالي الساعة الثامنة، وتقدموا ببطء وحذر، حيث شقوا طريقهم خلال بايفليت وبيرفورد نحو ريبلي وويبريدج، وهكذا أصبحوا على مرأى من سريات المدفعية المنتظِرة أمام شمس الغروب. لم يتقدم هؤلاء المريخيون معًا ككتلة واحدة، وإنما في صف، بحيث تبعد مسافة كل منهم بحوالي ميل ونصف عن أقرب زميل له. وكانوا يتواصلون مع بعضهم عن طريق عواء يشبه صفارات الإنذار، ويتقافزون صعودًا وهبوطًا مع كل انتقال من نغمة إلى أخرى.

لقد كان هذا العويل وطلقات المدافع في ريبلي وسانت جورج هيل، هو ما سمعناه في أبرهاليفورد العليا. قام جنود المدفعية في ريبلي -المتطوعون غير المتمرسين، الذين لا ينبغي أبدًا وضعهم في مثل هذا الموقف– بإطلاق قذيفة واحدة جامحة، سابقة لأوانها وغير فعالة، ثم هربوا فوق ظهور الجياد أو سيرًا على الأقدام إلى القرية التي هجرها سكانها؛ بينما سار المريخي بهدوء خلال المدافع، دون استخدام الشعاع الحراري الذي بحوزته، وخطا بحذر بينهم، ومر أمامها؛ وهكذا جاء بشكل غير متوقع إلى المدافع الموجودة فى بينسهيل بارك، التى دمرها.

بيد أن رجال سانت جورج هيل كانوا يقودون بشكل أفضل أو يتمتعون بقدرات أفضل. ونظرًا لأن غابة الصنوبر كانت تخفيهم، لم يتوقع أقرب مريخي وجودهم. لقد وضعوا مدافعهم عمدًا كأنما فى موكب، وأطلقوا النار على مدى يبلغ حوالى ألف ياردة.

توهجت القذائف حوله من كل جانب، وشوهد وهو يتقدم بضع خطوات، ويترنح، ويسقط. هلل الجميع في وقت واحد، وأعادوا شحن المدافع بسرعة محمومة. صدرت عن المريخي الذي سقط ولولة طويلة، فظهر على الفور العملاق الثاني اللامع –أعلى من الأشجار في اتجاه الجنوب- ورد عليه. ويبدو أن قذيفة حطمت إحدى سيقانه الثلاث. طارت القذيفة الثانية على مسافة كبيرة متجاوزة المريخي وسقطت على الأرض؛ وفي الوقت نفسه، صوب رفيقاه الشعاع الحراري نحو سرية المدفعية. انفجرت الذخيرة، واشتعلت النيران في أشجار الصنوبر المحيطة بالمدافع، ولم يتمكن من الفرار سوى رجل أو اثنين من الرجال الذين كانوا يركضون بالفعل فوق قمة التل.

ويبدو أن المريخيين الثلاثة توقفوا بعد ذلك للتشاور، وقال المراقبون الذين كانوا يشاهدونهم إنهم ظلوا على حالهم دون تحرك للنصف ساعة التالية. أما المريخي الذي سقط، فقد زحف ببطء خارج قلنسوته. وكان عبارة عن كائن صغير بُني اللون، يوحي مظهره الغريب من تلك المسافة أنه نقطة تشبه آفة زراعية، وينشغل على ما يبدو في إصلاح دعامته. انتهى من عمله في حوالي التاسعة، حيث شوهدت قلنسوته فوق الأشجار مرة أخرى.

وبعد التاسعة ببضع دقائق، في تلك الليلة، انضم أربعة مريخيين آخرون إلى هؤلاء الحراس الثلاثة، يحمل كل منهم أنبوبًا سميكًا أسود اللون. وسلموا أنبوبًا مماثلًا لكل حارس من الحراس الثلاثة، وبدأ السبعة في توزيع أنفسهم على مسافات متساوية على خط منحنٍ بين سانت جورج هيل وويبريدج وقرية سيند، جنوب غرب ريبلى.

وبمجرد أن بدأوا في التحرك، انطلقت عشرات القذائف من التلال أمامهم، وبذلك حذرت سريات المدفعية المنتظِرة حول ديتون وإشر. وفي الوقت نفسه، عبرت أربعٌ من آلاتهم القتالية النهر، مُسلحة بأنابيب مماثلة؛ وظهرت اثنتان منهم في الأفق، كهياكل سوداء في مواجهة السماء الغربية، رأيناهما أنا والقسيس ونحن نسرع مرهقين ومتألمين على طول الطريق الذي يمتد شمالًا من هاليفورد. ظهرا لنا كأنهما تتحركان فوق سحابة؛ حيث غطى ضباب أبيض الحقول وارتفع إلى ثلث طولهما.

بكى القسيس بكاء مكتومًا عند رؤية هذا المشهد، وبدأ يركض. لكنني كنت أعرف أن الركض من المريخيين ليس التصرف الصحيح، ولذا تنحيت جانبًا وزحفت خلال نباتات القراص والعُليق الندية في القناة العريضة التي تقع على جانب الطريق. نظر القسيس إلى الوراء ورأى ما أفعله، فاستدار ليلحق بى.

توقف الاثنان. وقف الأقرب إلينا في مواجهة بلدة صنبري، أما الأبعد فكان مثل كتلة رمادية غير واضحة فى اتجاه نجم المساء، بعيدًا نحو بلدة ستينز.

توقف عواء المريخيين المتقطع؛ لكنهم اتخذوا مواقعهم في الهلال الضخم المحيط بأسطواناتهم في صمت مطلق. بلغت المسافة بين طرفي الهلال 12 ميلًا. لم تشهد أي معركة، منذ ابتكار البارود، مثل هذه البداية الهادئة. لم يكن تأثير المشهد ليختلف بالنسبة لنا ولمراقب حول بلدة ريبلي- بدا المريخيون يمتلكون وحدهم الليل المظلم، الذي لا يضيئه سوى القمر النحيل، والنجوم، ووهج ضوء النهار اللاحق، فضلًا عن الوهج الوردي المنبعث من سانت جورج هيل وغابات بينسهيل.

على أن المدافع كانت تنتظر، في مواجهة هذا الهلال، في كل مكان– في ستينز، وهونسلو، وديتون، وإيشر، وأوكهام، وخلف التلال والغابات جنوب النهر، وعبر المروج العشبية المستوية في اتجاه الشمال منه- أينما تمنح مجموعة من الأشجار أو منازل القرية غطاء كافيًا. انطلقت قذائف الإشارة وأمطرت الليل بشراراتها ثم اختفت. ارتفعت معنويات جميع من يشاهدون سريات المدفعية إلى توقعات متوترة. لم يبق سوى أن يتقدم المريخيون إلى خط النار، وعندئذ سوف تتفجر على الفور، في معركة من غضب صاعق، تلك الأشكال السوداء من الرجال المنتظرين بلا حراك، وتلك المدافع المتلألئة بحزن في وقت مبكر من الليل.

ولا شك أن الفكرة التي احتلت موقع الصدارة في ألف من تلك العقول اليقظة، مثلما كان الحال معي، هي ذلك اللغز: إلى أي مدى يفهموننا. هل أدركوا أننا، أن الملايين منا، منظمون ومنضبطون ونعمل معًا؟ أم أنهم فسروا انطلاق نيراننا، وانطلاق قذائفنا المفاجئ، وحصارنا المطرد لمعسكرهم، بمثل ما نفسر الغضب الجماعي لخلية نحل مضطربة تعرضت لهجوم؟ هل يحلمون بإبادتنا؟ (لم يكن أحد يعرف، في ذلك الوقت، ما نوع الطعام الذي يحتاجونه). تصارعت مئات من هذه الأسئلة في ذهني وأنا أشاهد هيئة هذا الحارس الهائلة. وفي خلفية ذهني كان تفكيري يدور حول كل تلك القوى المجهولة والخفية الضخمة المتجهة إلى لندن. هل نصبوا فخاخًا؟ هل كانت مجموعات المدافع وكميات البارود في هونسلو جاهزة لاصطيادهم؟ هل سيمتلك سكان لندن الشجاعة والجرأة لتحويل منازلهم إلى قلاع ومتاريس كما فعل سكان موسكو(21)

وبعد فترة، بدت بلا نهاية، بقينا خلالها جاثمين ومحدقين من خلال سياج الشجيرات، سمعنا صوتًا يشبه انطلاق قذيفة من مدفع بعيد؛ ثم صوتًا مماثلًا آخر أكثر قربًا، وتلاه صوت آخر. ثم رفع المريخي القريب منا الأنبوب الذي يحمله عاليًا وأطلقه، كمدفع، مُحدِثًا فرقعة هائلة أدت إلى اهتزاز الأرض. رد عليه المريخي الذي يقف في اتجاه ستينز. لم يظهر وميض أو دخان، وإنما فقط ذلك الانفجار المدوى.

أثارت تلك المدافع الدقيقة الثقيلة المتتالية حماسي، حتى أنني نسيت سلامتي الشخصية ويديَّ المحروقتين وتسلقت سياج الشجيرات لأنظر في اتجاه صنبري. وعندئذ صدرت فرقعة أخرى، واندفعت قذيفة كبيرة نحو هونسلو. توقعت أن أرى دخانًا أو نارًا،

على الأقل، أو ما يدل على انطلاق القذيفة. لكنني لم أرَ سوى السماء بلونها الأزرق العميق في أعلى، ونجمة واحدة منعزلة، وضباب أبيض ينتشر بانخفاض على نطاق واسع. لم يكن هناك أى تحطم، ولا انفجار مقابل. عاد الصمت؛ ومر الوقت من دقيقة إلى ثلاث دقائق.

قال القسيس، الذى يقف بجوارى: «ماذا حدث؟».

أجبته: «لا أعرف!».

ظهر خفاش بجانبنا ثم اختفى. بدأ ضجيج صراخ بعيد ثم توقف. نظرت ثانية إلى المريخي، ورأيته يتجه الآن شرقًا على طول ضفة النهر، بحركة سريعة ومتدحرجة. كنت أتوقع انطلاق قذائف سرية مدفعية مختفية نحوه؛ لكن هدوء المساء استمر دون انقطاع. أخذ حجم المريخي يتضاءل مع ابتعاده، وابتلعه الآن الليل والضباب. وبدافع مشترك، تسلقنا السياج إلى نقطة أعلى. رأينا شيئًا داكنًا في اتجاه صنبري، كأنما تلة مخروطية ظهرت فجأة، وأخفت عن ناظرنا البلد الأبعد؛ ثم رأينا بعد ذلك قمة أخرى مماثلة عبر النهر، فوق والتون. وبدأت هذه الأشكال الشبيهة بالتلال تزداد انخفاضًا واتساعًا حتى ونحن نحدق فيها.

تبادرت إلى ذهني فكرة مفاجئة، فنظرت في اتجاه الشمال، حيث لاحظت ارتفاع تلة ثالثة من تلك التلال السوداء الداكنة.

لقد أصبح كل شيء ساكنًا فجأة. وبعيدًا في اتجاه الجنوب الشرقي، حيث يسود الهدوء، سمعنا صياح المريخيين مع بعضهم، ثم ارتجف الهواء مرة أخرى مع هدير بعيد من مدافعهم. لكن المدفعية الأرضية لم ترد.

لم يكن في إمكاننا حينذاك فهم هذه الأشياء، لكنني عرفت في وقت لاحق معنى هذه التلال المشؤومة التي تجمعت عند الغسق. كان كل مريخي، ممن يتخذون مواقعهم في الهلال العظيم الذي وصفته، قد أطلق بواسطة الأنبوب الذي يحمله ويشبه المدفع، عبوة كبيرة فوق أي تلة، أو أيكة، أو مجموعة من المنازل، أو أي غطاء آخر محتمَل للمدافع يتصادف وجوده أمامه. أطلق بعضهم قذيفة واحدة من تلك القذائف، وأطلق بعضهم قذيفتين - كما في الحالة التي رأيناها؛ وقيل إن المريخي الموجود في ريبلي أطلق ما لا يقل عن خمس قذائف في ذلك الوقت. تحطمت هذه العبوات عند اصطدامها بالأرض ولم تنفجر؛ بل استمرت تطلق حجمًا هائلًا من البخار الثقيل بلون الحبر الأسود، الذي أخذ يتصاعد ويتدفق بالتفاف إلى الأعلى مُشكلًا سحابة ركامية ضخمة- تلة غازية تنخفض وتنتشر ببطء فوق البلدة المحيطة. كان لمس ذلك البخار، واستنشاق حِزمه اللاذعة، يفضي إلى موت أى كائن حى.

كما كان هذا البخار ثقيلًا، أثقل من أكثر أنواع الدخان كثافة؛ بحيث يغرق في الهواء بعد أول اندفاع شديد وتدفق لتأثيره، وينسكب على الأرض على شكل سائل وليس كغاز، وعندئذ يهجر التلال ويتدفق في الوديان والقنوات والمجاري المائية- كما سمعت أنه بذلك يماثل ما يفعله غاز حمض الكربونيك الذي يصب من الشقوق البركانية. كما تحدث بعض التفاعلات الكيميائية عند التقائه بالماء؛ إذ يتغطى سطح الماء على الفور برغوة ناعمة، تغرق ببطء وتشق الطريق للمزيد. وهذه الرغوة غير قابلة للذوبان على الإطلاق. ومن الغريب رؤية التأثير الفوري للغاز؛ إذ يمكن للمرء أن يشرب الماء بعد تصفيته منه دون أن يتأذى. لم ينتشر البخار بنفس طريقة انتشار الغاز الحقيقي. فهو يظل معلقًا عند الضفاف، وينساب ببطء على انحدار الأرض، ويتحرك على مضض مع الريح، ويندمج ببطء شديد مع الضباب ورطوبة الهواء، ثم يغوص في الأرض على شكل غبار. ولا نزال نجهل تمامًا طبيعة هذه المادة، باستثناء أنها عنصر غير معروف، ويعطي مجموعة من أربعة خطوط باللون الأزرق من الطيف.

وبمجرد انتهاء الجَيَشان الصاخب المصاحب لتشتت هذه المادة، يتشبث الدخان الأسود بشكل وثيق بالأرض، حتى قبل ترسبه، إلى حد وجود فرصة للنجاة من سمومه تمامًا- تصل إلى ارتفاع خمسين قدمًا في الهواء، وعلى الأسطح والطوابق العليا بالمنازل المرتفعة، وعلى

الأشجار الشاهقة- كما ثبت حتى فى تلك الليلة فى شارع كوبهام وفى ديتون.

ويحكي الرجل الذي تمكن من النجاة هناك قصة مدهشة عن غرابة التفاف تدفق هذه المادة، وكيف نظر إلى أسفل من برج الكنيسة ورأى منازل القرية تقف مرتفعة كأشباح وسط العدم حبري السواد. ظل الرجل هناك لمدة يوم ونصف، مرهقًا وجائعًا وتحرقه الشمس؛ وتبدو الأرض تحت السماء الزرقاء وأمام مشهد التلال البعيدة عبارة عن مساحة سوداء مخملية، تحتوي على سقوف حمراء، وأشجار خضراء، ثم لاحقًا شجيرات، وبوابات، وحظائر، ومبان خارجية، وأسوار، مغطاة بالسواد، ترتفع هنا وهناك تحت ضوء الشمس.

كان ذلك في شارع كوبهام، حيث سُمِح للبخار الأسود بالبقاء إلى أن غرق من تلقاء نفسه في الأرض. وكقاعدة عامة، وبعد أن يحقق ذلك البخار غرضه، يقوم المريخيون بإخلاء الهواء منه ثانية عن طريق الخوض فيه وتوجيه تيار من البخار نحوه.

هذا ما فعلوه مع ركام البخار بالقرب منا، كما رأينا في ضوء النجوم من نافذة منزل مهجور في أبرهاليفورد، حيث عُدنا. كان بمقدورنا من هناك أن نرى أضواء الكشافات على ريتشموند هيل وكينجستون تتحرك جيئة وذهابًا. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة، اهتزت النوافذ وسمعنا أصوات المدافع الضخمة التي اتخذت مواقعها هناك. استمر إطلاق النار بشكل متقطع لمدة ربع ساعة، مع إرسال طلقات عشوائية نحو المريخيين غير المرئيين في هامبتون وديتون، ثم اختفت أشعة الضوء الكهربائي الشاحبة وحل محلها توهج أحمر ساطع.

ثم سقطت الأسطوانة الرابعة– نيزك أخضر متوهج – كما عرفت بعد ذلك، في حديقة بوشي. وقبل أن تبدأ المدافع على خط تلال ريتشموند وكينجستون، كان هناك هجوم متقطع بالمدفعية بعيدًا في الجنوب الغربي؛ وأعتقد أن ذلك يرجع إلى إطلاق قذائف المدفعية عشوائيًّا قبل أن يبتلع البخار الأسود جنود المدفعية.

وهكذا، نشر المريخيون هذا البخار الغريب الخانق فوق البلدة الواقعة في اتجاه لندن، مثلما يستخدم البشر الدخان عادة للتخلص من عش للدبابير. تباعد طرفا الهلال ببطء، إلى أن شكلا في النهاية خطًّا من ضاحية هانويل إلى ضاحية كومبي وبلدة مالدين. وظلت أنابيبهم التدميرية تتقدم طوال الليل. لم يحدث ولا لمرة واحدة، بعد إسقاط المريخي عند سانت جورج هيل، أن ترك المريخيون أي فرصة للمدفعية كي تتغلب عليهم. فأينما كان هناك احتمال لوجود مدافع غير مرئية لهم، كانوا يطلقون عبوة جديدة من البخار الأسود؛ وأينما كانت المدافع مرئية بوضوح، كانوا يطلقون عليها الشعاع الحرارى.

وبحلول منتصف الليل، ألقت الأشجار المشتعلة على طول سفوح ريتشموند بارك، فضلًا عن وهج كينجستون هيل، ضوءها على شبكة من الدخان الأسود، لوثت وادي نهر التيمز بأكمله وامتدت إلى أبعد ما يمكن أن تصل إليه العين. شق هذان المريخيان طريقهما ببطء خلال هذا كله، وأدارا تدفقات البخار وهى تصدر هسهساتها فى الاتجاهات المختلفة.

كانوا يدّخرون الشعاع الحراري في تلك الليلة؛ إما لمحدودية إمداداتهم من المواد اللازمة لإنتاجه، أو لعدم رغبتهم في تدمير البلدة وإنما الاكتفاء بإرهاب المقاومة تجاههم. وقد نجحوا بالتأكيد في تحقيق الهدف الثاني. وكانت ليلة الأحد بمثابة نهاية المقاومة المنظمة لتحركاتهم. بعدها لن يقف البشر ضدهم، ويصبح مشروع المقاومة ميؤوسًا منه. حتى أطقم زوارق الطوربيد والمدمرات، التي جلبت قاذفاتها السريعة إلى نهر التيمز، رفضت التوقف، وتمردت، ثم ابتعدت ثانية. وكانت العملية الهجومية الوحيدة التي غامر بها الرجال بعد تلك الليلة هي زرع الألغام ونصب الشِّراك، وحتى في ذلك كانت طاقاتهم محمومة ومتشنجة.

لك أن تتخيل مصير سريات المدفعية في اتجاه بلدة إيشر، وهي تنتظر بتوتر شديد في ضوء الشفق. لا يوجد ناجون. ولك أن تتصور التوقعات المنظمة، ويقظة الضباط وتنبههم، وجهوزية جنود المدفعية، وتكدس الذخيرة المتاحة، ورشاقة جنود المدفعية فوق الأحصنة والعربات، ومجموعات المتفرجين المدنيين الذين يقفون في أقرب مكان مسموح لهم،

وسكون المساء، وسيارات الإسعاف وخيام المستشفيات التي تضم المصابين بحروق وجروح من ويبريدج؛ ثم الصدى الباهت للقذائف التي أطلقها المريخيون، والقذيفة الخرقاء التى تحوم فوق الأشجار والمنازل وتتحطم وسط الحقول المجاورة.

ولك أن تتخيل أيضًا التحول المفاجئ للانتباه؛ وسرعة انتشار التفافات وتموجات هذا السواد الذي يتقدم بغير تردد متجهًا نحو السماء؛ وتحول الشفق إلى ظلام دامس؛ وخصم غريب وفظيع من البخار يخطو على ضحاياه، ويبدو مشهد الرجال والخيول بالقرب منه ضبابيًا وهم يركضون ويصرخون ويتساقطون ويصيحون فزعًا؛ ومدافع أصبحت فجأة مهجورة؛ ورجال يختنقون ويتلوون على الأرض؛ ومخروط من الدخان المعتم يتسع بسرعة. ثم الليل والانقراض– لا شيء سوى كتلة صامتة من بخار، يتعذر اختراقه، يخفي موتاه.

كان البخار الأسود يتدفق قبل الفجر في شوارع ريتشموند. كما كان الكيان الحكومي المتفكك يبذل آخر جهد له، ويستحث سكان لندن على ضرورة الهروب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(16)
الرحيل من لندن

أنت تدرك الآن موجة الخوف العاصفة التي اجتاحت أعظم مدينة في العالم مع بزوغ فجر يوم الإثنين– سرعان ما تحول تيار الفرار إلى سيل جارف، في ظل حالة من الاضطراب الشديد حول محطات السكك الحديدية، حيث تكدس الناس في صراع رهيب للفرار من خلال نهر التيمز، والاندفاع بسرعة عبر كل قناة متاحة في اتجاهي الشمال والشرق. وقد فقد جهاز الشرطة، بحلول الساعة العاشرة، وهيئة السكك الحديدية، بحلول منتصف النهار، التماسك والشكل والكفاءة، وانتابهما الضعف، واندمجا في النهاية في ذلك السيل السريع من البشر.

وقد تلقت جميع خطوط السكك الحديدية شمال نهر التيمز، وسكان الجنوب الشرقي في شارع كانون، تحذيرات بحلول منتصف ليلة الأحد، وازدحمت القطارات بالركاب. كان الناس يتقاتلون بوحشية للتمكن من إيجاد مكان للوقوف داخل عربات القطارات حتى الساعة الثانية. وفي الساعة الثالثة، كان الناس يتعرضون للدهس والسحق حتى في شارع بيشوبس جيت، على مسافة بضع مئات من الياردات أو أكثر من محطة شارع ليفربول. جرى إطلاق النار من المسدسات، كما تعرض كثيرون لطعنات. أما رجال الشرطة الذين وصلوا لتوجيه حركة المرور، فقد كانوا منهكين وغاضبين؛ ورغم أنهم جاءوا لحماية الناس ومساعدتهم، فقد أخذوا يضربون رؤوس الناس بالهراوات.

ومع تقدم النهار، رفض سائقو القطارات والعاملون فيها العودة إلى لندن؛ ومن ثم أدى ضغط الرغبة في الفرار إلى ابتعاد حشود عديدة من الناس عن المحطات واتخاذهم الطرق المتجهة شمالًا. وبحلول منتصف النهار، شوهد مريخي في حي بارنز، كما شوهدت سحابة من بخار أسود يغوص منخفضًا ببطء على طول نهر التيمز وعبر سهول لامبث، تحُول خلال تقدمها البطيء دون جميع سبل الهروب عن طريق الجسور. تحركت سحابة أخرى فوق إيلينج، وأحاطت بجزيرة صغيرة من الناجين في كاسل هيل. كانوا جميعًا أحياء، لكنهم عاجزون عن الفرار.

ظهر أخي على طريق تشوك فارم، بعد صراع عقيم للصعود على متن قطار الشمال الغربي في تشوك فارم – حيث تحركت القطارات، التي تم تحميلها عند رصيف البضائع، منطلقة بسرعة وسط صراخ الناس وجهود عشرات من الرجال الأقوياء لمنع الحشود من سحق السائق- ونجح في تفادي سرب مسرع من العربات، وحالفه الحظ أن يكون في مقدمة من يتمكنون من نهب متجر للدراجات. حدث ثقب في الإطار الأمامي للعجلة التي حصل عليها خلال جرها من النافذة، لكنه تمكن من النهوض وغادر دون إصابة أخرى سوى جرح في معصمه. كان من المتعذر المرور خلال هافرستوك هيل المنحدِر، بسبب انقلاب العديد من الخيول؛ فاتخذ أخي طريق بيلسايز.

وهكذا خرج من المنطقة التي سادت فيها ضراوة الذعر، ودار حول طريق إدجوار، ليصل إلى إدجوار في حوالي السابعة، جائعًا ومنهكًا، ولكن قبل وصول الحشود بكثير. وقف الناس على طول الطريق، في فضول وتساؤل. مر به عدد من راكبي الدراجات، وبعض الفرسان، وعربتان. تحطمت حافة العجلة على بعد ميل من إدجوار، ولم تعد الدراجة صالحة للسير، فتركها على جانب الطريق وسار متثاقلًا عبر القرية. ضم شارع القرية الرئيس متاجر نصف مفتوحة، وتزاحم الناس على الرصيف وفي المداخل والنوافذ، يحدقون مندهشين في هذا الموكب الغريب من الهاربين الذي بدأ يظهر. نجح أخي في الحصول على طعام في إحدى النُّزُل.

ظل أخي لفترة من الوقت في إدجوار، لا يعرف ماذا يفعل. زادت أعداد المسافرين، وبدا

العديدون منهم، مثل أخي، يميلون إلى التسكع في المكان. لم تصل أي أخبار جديدة عن الغزاة القادمين من المريخ.

كان الطريق مزدحمًا في ذلك الوقت، لكن الازدحام لم يتسبب في غلقه. ركب معظم الهاربين في تلك الساعة دراجات، وسرعان ما ظهرت السيارات والعربات التي تجرها الخيول، تتحرك مسرعة على الطريق؛ وشوهد غبار معلق في سحب ثقيلة على طول الطريق إلى سانت ألبانز.

تبادرت إلى ذهنه فكرة ربما مبهمة أن يتوجه إلى مدينة تشيلمسفورد، حيث يسكن بعض أصدقائه؛ وهي الفكرة التي دفعت أخي أخيرًا أن يسلك حارة هادئة في اتجاه الشرق. وصل الآن إلى فتحة في سور فعبرها، وسار على ممر للمشاة باتجاه الشمال الشرقي. مر بالقرب من عدة بيوت ريفية وبعض الأماكن الصغيرة التي لا يعرف أسماءَها. رأى عددًا قليلًا من الهاربين، وواصل طريقه إلى أن شاهد في ممر عشبي في اتجاه هاي بارنيت سيدتين، أصبحتا رفيقتيه فى رحلته. لقد وصل إليهما فى الوقت المناسب، لإنقاذهما.

سمع أخي صراخهما، فأسرع إلى الناصية حيث شاهد رجلين يجاهدان لإنزالهما من فوق العربة التي تركبانها ويجرها مُهر صغير، بينما يمسك الثالث بصعوبة برأس المهر الخائف. كانت إحدى السيدتين قصيرة القامة وترتدي ملابس بيضاء، ويعلو صوتها بالصراخ؛ بينما كانت السيدة الأخرى سمراء ونحيلة، وتمكنت من ضرب الرجل الذي أمسك ذراعها بسوط فى يدها.

أدرك أخي الوضع على الفور، وأسرع نحوهم صائحًا. توقف أحد الرجال واستدار نحوه. أدرك أخي من ملامح وجه خصمه أن الشجار لا مفر منه. ولأن أخي ملاكم متمرس، توجه إليه على الفور وعاجله بلكمة أسقطته عند عجلة العربة. لم يكن الوقت مناسبًا للتعامل بشهامة الملاكمين، ولذا ركله أخي ركلة قوية أعجزته عن الحركة، ثم أمسك بياقة الرجل الذي سحب ذراع السيدة النحيلة. سمع قعقعة الحوافر، ولسع السوط وجهه، وضربه الخصم الثالث بين عينيه، وتمكن الرجل الذي كان يمسك بياقته من تحرير نفسه وانطلق إلى الممر فى الاتجاه الذى جاء منه.

وجد نفسه، وهو في ذهول جزئي، في مواجهة الرجل الذي كان يمسك برأس الحصان، وأدرك أن العربة تنطلق عكس الاتجاه متمايلة من جانب إلى آخر، والسيدتان داخلها تنظران إلى الخلف. حاول الرجل الذي أمامه، وكان فظًّا وقوي البنية، الاشتباك معه؛ لكنه أوقفه بلكمة في وجهه. وعندما أدرك أنه أصبح وحيدًا، استدار وأخذ يركض عبر الممر وراء العربة والرجل الفظ خلفه، ويتبعه عن بعد الرجل الهارب، الذى استدار الآن.

تعثر أخي فجأة وسقط، فتوجه نحوه مطارده القريب منه. نهض أخي على قدميه ليجد نفسه مع الخصمين مرة أخرى. ربما لم تكن لديه فرصة ضدهم لولا أن قامت السيدة النحيلة بإيقاف العربة ببسالة لمساعدته نظير ما قدمه لهن من مساعدة. يبدو أنها كانت تحمل مسدسًا طوال هذا الوقت، لكنه كان أسفل المقعد عندما هوجمت هي ورفيقتها. أطلقت النار على مسافة ستة ياردات، وتمكنت بصعوبة من عدم إصابة أخي. هرب أقل اللصين شجاعة، وتبعه رفيقه وهو يلعن جُبنه. توقف كلاهما على مرأى من أخي، حيث كان الرجل الثالث يرقد فاقدًا للوعى.

«خذ هذا!»، قالت السيدة النحيلة، وأعطت أخى مسدسها.

قال أخى، وهو يمسح الدم من شفته المصابة: «عودى إلى المقعد».

استدارت دون أن تتفوه بكلمة –كان كلاهما يلهث– وعادا إلى حيث كانت السيدة التي ترتدى ملابس بيضاء تجاهد للإبقاء على المُهر الخائف.

من الواضح أن اللصوص اكتفوا بهذا القدر؛ فعندما نظر أخى ثانية، وجدهم يتراجعون.

قال أخي: «سوف أجلس هنا، بعد إذنك»؛ وجلس على المقعد الأمامي الفارغ. نظرت السيدة خلفها.

قالت: «أعطني اللجام»، ووضعت السوط على جانب المهر. وبعد لحظة، عند منعطف

فى الطريق، اختفى الرجال الثلاثة عن عينى أخى.
وهكذا، وبشكل غير متوقع تمامًا، وجد أخي نفسه، يلهث، وفمه مجروح، وبفكه كدمات، ومفاصل أصبعه ملطخة بالدماء، ويقود عربة عبر ممر غير معروف مع هاتين المرأتين.
عرف أن إحداهما زوجة جراح يعيش في ستانمور والثانية شقيقته الصغرى، وقد عاد منذ عدة ساعات بعد زيارة حالة خطيرة في بينر، وسمع في إحدى محطات السكك الحديدية على الطريق عن وصول المريخيين. أسرع إلى المنزل، وأيقظ المرأتين - فقد تركتهم الخادمة قبل يومين- وحزم بعض الأغراض، ووضع مسدسه تحت المقعد- لحسن حظ أخي - وطلب منهن القيادة إلى إدجوار، حيث تصور إمكانية ركوب القطار من هناك؛ ثم تركهما ليخبر الجيران. قال إنه سيلحق بهما في حوالي الساعة الرابعة والنصف صباحًا، وحتى الآن- نحو التاسعة – لم يظهر. لم يتمكنا من التوقف في إدجوار نظرًا لتزايد حركة المرور هناك، وهكذا جاءا إلى هذا الممر الجانبى.
كانت تلك هي القصة التي أخبرا بها أخي على نحو متقطع، عند توقفهما الآن مرة أخرى في منطقة أقرب إلى نيو بارنيت. وعدهما أخي بالبقاء معهما، على الأقل حتى تتمكنا من تحديد ما عليهما القيام به، أو حتى يصل الجراح المفقود؛ كما قال لهما إنه متمرس في استخدام المسدس حتى يُشعرهما بالثقة، رغم أنه لا يعرف كيفية استخدامه.
أقاموا ما يشبه المخيم على جانب الطريق، وسعد المهر بسياج الشجيرات. حكى لهما أخي عن هروبه من لندن، وكل ما يعرفه عن هؤلاء المريخيين وطرقهم. تسللت الشمس إلى السماء، وانتهى حديثهم بعد فترة وحلت محله حالة ترقب غير مستقرة. شهد الزقاق مرور العديد من عابري السبيل، وجمع منهم أخي كل ما أمكنه من أخبار. كانت كل إجابة غير مكتملة تزيد من عمق انطباعه عن الكارثة الكبرى التي حلت بالبشرية، وتُعَمِّق اقتناعه بضرورة مواصلة الهرب فورًا. وناقشهما فى الأمر بإلحاح.
قالت المرأة النحيلة: «لدينا المال»، ثم ترددت.
التقت عيناها بعينى أخى، وانتهى ترددها.
وقال أخى: «أنا أيضًا لدى مال».
أوضحت المرأة أن لديهما حوالي ثلاثين جنيهًا من الذهب، بالإضافة إلى ورقة بخمسة جنيهات، واقترحت أنهم يستطيعون بهذا المبلغ ركوب القطار من سانت ألبانز أو نيو بارنيت. رأى أخي أن هذا الحل ميؤوس منه؛ حيث شاهد بنفسه ضراوة سكان لندن عند تزاحمهم على القطارات، وطرح فكرته الخاصة بالتوجه عبر إسكس إلى هارويتش ثم الفرار من البلد كلها.
لم تكن السيدة إلفينستون –وهذا هو اسم المرأة التي ترتدي ملابس بيضاء- تستمع إلى أي منطق، وظلت تنادي على «جورج»؛ لكن شقيقة زوجها كانت هادئة ومتأنية بشكل مدهش، ووافقت أخيرًا على اقتراح أخي. وعلى هذا النحو، ومع قرارهم بعبور طريق جريت نورث، توجهوا نحو بارنيت، وتولى أخي قيادة المهر ليحافظ عليه قدر الإمكان. زحفت الشمس إلى السماء، واشتدت حرارة النهار، وزادت سخونة الرمال البيضاء، بحيث أصبحت حركتهم بطيئة للغاية. تلونت أسيجة الأشجار باللون الرمادي نتيجة الغبار. ومع تقدمهم نحو بارنيت، أخذ صوت همهمة صاخبة يزداد قوة.
بدأوا يقابلون المزيد من الناس؛ أغلبهم يحدقون نحوهم، ويتمتمون بأسئلة غير واضحة، فضلًا عن إنهاكهم وإرهاقهم ومظهرهم الرث. مر أمامهم رجل يرتدي ملابس المساء ويسير على قدميه، وعيناه تنظران إلى الأرض. سمعوا صوته، وعندما نظروا إليه، شاهدوا إحدى يديه تتشبث بشعره واليد الأخرى تضرب أشياء غير مرئية. وبعد أن انتهت نوبة غضبه، مضى فى طريقه دون أن ينظر وراءه ولو لمرة واحدة.
وبينما كان أخي ومجموعته يتجهون نحو مفترق الطرق جنوب بارنيت، رأوا امرأة تقترب من الطريق خلال الحقول على يسارهم، وهي تحمل طفلًا ومعها طفلان آخران؛ ثم مر رجل يرتدي ملابس سوداء قذرة، ويحمل عصا سميكة في إحدى يديه وحقيبة سفر

صغيرة في اليد الأخرى. وعند ناصية الزقاق، بين الفيلات التي تحرسه عند التقائه بالطريق السريع، جاءت عربة صغيرة يجرها مهر أسود يتصبب عرقًا ويقودها شاب شاحب يرتدي قبعة مستديرة أصبح لونها رماديًا نتيجة الغبار. اكتظت العربة بثلاث فتيات من مصنع إيست إند، وطفلين صغيرين.

سأل السائق، بوجهه الشاحب وعينيه الجامحتين: «هل يصل بنا هذا الطريق إلى إدجوار؟» رد عليه أخي بالإيجاب وأخبره أن يستدير إلى اليسار، وعندئذ ضرب السائق المهر بالسوط ومضى في الحال دون حتى أن يشكر أخي.

لاحظ أخي تصاعد دخان أو ضباب رمادي باهت بين المنازل أمامهم، بما يحجب الواجهة البيضاء لشرفة خلف الطريق الذي ظهر بين ظهور الفيلات. وفجأة صرخت السيدة إلفينستون عندما رأت عددًا من ألسنة اللهب الأحمر الدخاني تتقافز فوق المنازل أمامهم في مواجهة السماء الزرقاء الحارة. تحول الآن الضجيج الصاخب إلى اختلاط متداخل بين العديد من الأصوات، فضلًا عن صرير العديد من العجلات والعربات، ووقْع حوافر الخيل. انعطف الزقاق بحدة على مسافة أقل من خمسين ياردة من مفترق الطرق.

صاحت السيدة إلفينستون: «يا إلهي! إلى أين تأخذنا؟».

توقف أخي.

كان الطريق الرئيس عبارة عن تيار من الناس في حالة غليان؛ سيل من البشر يندفع شمالًا، يضغط أحدهم على الآخر. وها هي كتلة كبيرة من الغبار، الأبيض والمضيء في وهج الشمس، لونت كل شيء على بُعد عشرين قدمًا بلون الأرض الرمادي الباهت، وتجدد على الدوام تحت وقع الأقدام المسرعة لذلك الحشد الكثيف من الخيول، والرجال والنساء السائرين على أقدامهم، فضلًا عن عجلات المركبات من كل نوع.

سمع أخي أصواتًا تصيح: «الطريق! أفسحوا الطريق!».

كان الأمر أشبه بالحركة وسط دخان حريق، في محاولة للاقتراب من نقطة التقاء الزقاق والطريق السريع؛ كان الحشد يزأر كأنه حريق، وكان الغبار حارًّا ولاذعًا. وفي واقع الأمر، وعلى مسافة قصيرة على الطريق، شُوهدت فيلا تحترق وتتصاعد منها كتلٌ دائرية من دخان أسود عبر الطريق، مما يزيد من الارتباك.

مر رجلان بجوار أخي والسيدتين؛ ثم امرأة متسخة الثياب تحمل حزمة ثقيلة وتبكي. دار حولهم مرتابًا كلب ضاع من أصحابه، ولسانه يتدلى خائفًا وبائسًا، لكنه هرب عندما هدده أخي.

بقدر ما أمكنهم رؤية الطريق المؤدي إلى لندن، بين المنازل على يمينهم، شاهدوا سيلًا صاخبًا من الناس بملابس متسخة ويركضون محصورين بين الفيلات على الجانبين. ظهرت الرؤوس السوداء والأشكال المزدحمة أكثر وضوحًا مع اندفاعها نحو الناصية مسرعين، ثم ذابوا ثانية كأفراد في الحشد المتراجع الذي ابتلعته أخيرًا سحابة الغبار.

صاحت أصوات: «تحركوا! تحركوا! أفسحوا الطريق! أفسحوا الطريق!».

ضغطت يدا رجل على ظهر رجل آخر. وقف أخي عند رأس المهر. جذب الحشد انتباه المهر بدرجة يصعب مقاومتها، ولذا كان يتقدم ببطء، خطوة بخطوة على طول الزقاق.

كانت إدجوار مسرحًا للارتباك، وتشوك فارم مسرحًا لاضطراب مروع؛ فقد كانت جموع السكان تتحرك. يصعب تخيل تلك الحشود. لم يكن هناك ما يميزها. تدفقت بعض الشخصيات نحو الناصية وتجاوزوها، ثم تراجعوا بظهورهم إلى المجموعة الموجودة في الزقاق. وصل إلى طرف الزقاق مَن كانوا يسيرون على الأقدام تتهددهم عجلات العربات، يتعثرون في قنوات الصرف، ويتخبطون في بعضهم.

تكدست العربات متقاربة، مما لم يفسح المجال كثيرًا لتلك المركبات الأسرع التي نفد صبرها؛ فكانت تندفع إلى الأمام بين الحين والآخر عندما تظهر أمامها أي فرصة، وهو ما أسفر عن تشتت الناس عند أسوار الفيلات وبواباتها.

صدرت صيحات: «تقدموا! تقدموا! إنهم قادمون!».

وقف رجل ضرير في إحدى العربات، وهو يرتدي زي جيش الخلاص، وكان يومئ بأصابعه الملتوية ويصرخ: «الخلود! الخلود!» كان صوته أجش وعاليًا جدًّا، إلى حد أن أخي تمكن من سماعه بعد أن اختفى في الغبار بفترة طويلة. استخدم بعض الناس الذين احتشدوا في العربات السياط بغباء لضرب خيولهم وتشاجروا مع السائقين الآخرين. وجلس البعض بلا حراك، يحدق في أي شيء بأعين بائسة؛ وأخذ بعضهم يقضمون أيديهم من العطش، أو يتمددون على أرضية عرباتهم. كانت شكائم الخيول مغطاة بالرغوة، وأعينها ملطخة بالدماء.

كان هناك عدد لا يُعد ولا يُحصى من سيارات الأجرة، والعربات العامة، وعربات التسوق، والعربات التي تجرها الخيول؛ فضلًا عن عربة بريد، وعربة لتنظيف الطرق تحمل علامة «مجلس كنيسة سانت بانكراس»، وهي عربة خشبية ضخمة مزدحمة برجال أفظاظ. أصدرت العجلتان المتقاربتان لعربة نقل الخمور صريرًا خلال سيرها، وكانتا ملطختين بدماء لم تجف بعد.

تعالت أصوات: «أفسحوا الطريق! أفسحوا الطريق!».

جاء صدى صوت من الطريق: «الخلود! الخلود!».

ظهرت نساء يبدو عليهن الحزن والإنهاك، يرتدين ملابس جيدة، ويسرن مع أطفال يبكون متعثرين، وملابسهم الأنيقة يلفها الغبار، وجوههم المرهقة ملطخة بالدموع. ومع العديد من هؤلاء جاء رجال، يقدمون يد المساعدة أحيانًا، ويبدون متجهمين وشرسين في أحيان أخرى. تدافع أيضًا بعض المشردين وسط الحشد، بملابسهم البالية السوداء، وأعينهم المتسعة، وأصواتهم العالية، وألفاظهم البذيئة. هناك أيضًا عمال أقوياء، يشقون طريقهم؛ ورجال بؤساء أجلاف، يرتدون ملابس تشبه ملابس الكتبة أو التجار، ويتصارعون بين الفينة والأخرى. كما شاهد أخي أحد الجنود الجرحى، ورجالًا يرتدون ملابس حمالي السكك الحديدية، ومخلوقًا بائسًا يرتدي ملابس النوم ويضع فوقها معطفًا.

وعلى الرغم من تنوع تكوين الحشد، هناك أشياء معينة يشترك فيها الجميع: كان الخوف والألم يكسو وجوههم، والخوف مما قد يأتي من خلفهم. ساد الاضطراب على الطريق، والشجار للحصول على مكان في أي عربة، مما جعل المجموعة برمتها تسرع من وتيرتها؛ حتى أن رجلًا كان خائفًا للغاية ويثني ركبتيه تحته، انتابه للحظة نشاطٌ متجددٌ. كان ارتفاع الحرارة وانتشار الغبار يؤثران بالفعل على هذا العدد الكبير؛ فقد جفت بشرتهم، واسودت شفاههم وتشققت. كانوا جميعًا عطشى، ومنهكين، وأقدامهم متقرحة. ووسط الصراخ والصياح، كانت أصوات النزاعات، والشتائم مسموعة أيضًا، فضلًا عن آهات الإرهاق والإعياء؛ وكانت معظم الأصوات غليظة وضعيفة. وخلال كل تلك الأصوات تكررت عبارة:

«أفسحوا الطريق! أفسحوا الطريق! المريخيون قادمون!».

توقف عدد قليل، وابتعدوا عن ذلك الفيضان البشري. انفتح الزقاق بشكل مائل على الطريق الرئيس بفتحة ضيقة، وكان له مظهر خادع كأنه قادم من اتجاه لندن. اندفع ما يشبه دوامة بشرية نحو الفتحة؛ لكن ضعاف البنية شقوا طريقهم خارج ذلك التيار ليستريحوا للحظات قبل أن يغوصوا داخل الحشد مرة أخرى. على مسافة صغيرة في الزقاق، رقد رجل عاري القدمين، تلتف حولهما خرق ملطخة بالدماء، وينحني بجواره اثنان من أصدقائه. يا له من رجل محظوظ؛ لأن لديه أصدقاء.

وها هو رجل عسكري ضئيل الحجم، بشارب رمادي ومعطف أسود قذر، سار وهو يعرج وجلس بجانب العربة ثم خلع حذاءَهُ —كان جوربه ملطخًا بالدماء— وأزال منه حصاة، ثم واصل طريقه ثانية وهو يعرج؛ وها هي فتاة صغيرة، حوالي ثمانية أو تسعة أعوام، بمفردها تمامًا، ألقت نفسها تحت سياج الشجيرات بالقرب من أخي وهي تبكي.

«لا أستطيع الاستمرار! لا أستطيع الاستمرار!».

استيقظ أخي من دهشته البليدة وحمل الطفلة وهو يتحدث إليها بلطف، ثم أخذها إلى الآنسة إلفينستون. سكنت الطفلة تمامًا بمجرد أن لمسها أخي، كانت خائفة.

«إلين!»، صرخت امرأة من داخل الحشد والدموع في صوتها - «إلين!». فاندفعت الطفلة فجأة بعيدًا عن أخى، وهى تصيح «أماه!».
قال رجل يركب حصانًا ويعبر الزقاق: «إنهم قادمون».
صاح حوذي وهو يرفع رأسه عاليًا: «ها هم هناك، بعيدًا!». رأى أخى عربة مغلقة يجرها حصان تستدير نحو الزقاق.
تصادم الناس في اندفاعهم لتجنب الحصان. دفع أخي المهر والعربة نحو سياج الشجيرات، وتحرك بها سائقها حتى توقف عند منعطف الطريق. كانت العربة مجهزة لزوج من الخيول، لكن حصانًا واحدًا فقط كان مربوطًا بها. رأى أخي على نحو ضبابي من خلال الغبار رجلين يرفعان شيئًا من فوق نقالة بيضاء، ويضعانها بلطف على العشب تحت سياج شجيرات منزل خاص.
جاء أحد الرجلين راكضًا إلى أخى.
وسأله: «أين توجد أى مياه؟ إنه يحتضر، وشديد العطش. إنه اللورد جاريك».
قال أخى: «لورد جاريك! رئيس المحكمة العليا؟».
قال الرجل: «الماء؟».
أجابه أخي: «قد يوجد صنبور في إحدى المنازل. ليس لدينا ماء. ولا أستطيع أن أترك من معى».
دفع الرجل الحشد، واتجه إلى بوابة منزل عند الناصية.
قال الناس وهو يدفعونه: «واصل طريقك! إنهم قادمون! واصل طريقك!».
جذب رجل ملتحٍ ذو وجه يشبه وجه النسر انتباه أخي؛ حيث كان الرجل يجر حقيبة يد صغيرة، انشقت عندما كان أخي ينظر إليها، ووقعت منها كتلة تضم نقودًا إنجليزية ذهبية، تناثرت إلى عملات معدنية منفصلة عند اصطدامها بالأرض. تدحرجت العملات هنا وهناك بين أقدام الرجال والخيول. توقف الرجل ونظر بغباء إلى الكومة، واصطدم محور سيارة بكتفه، مما جعله يترنح. صرخ وتراجع إلى الخلف، وكادت عجلات إحدى العربات أن تصيبه.
صاح الرجال من حوله: «الطريق! أفسحوا الطريق!».
وبمجرد مرور سيارة الأجرة، قذف الرجل نفسه، ويداه مفتوحتان، فوق كومة العملات المعدنية، وبدأ في دفعها إلى جيبه. اقترب منه حصان، ووجد الرجل نفسه في لحظة أسفل حوافر الحصان.
صاح أخى: «توقف!»، ودفع امرأة من طريقه، وحاول أن يمسك بلجام الحصان.
وقبل أن يتمكن من الوصول إليه، سمع صرخة تحت العجلات، ورأى من خلال الغبار إطار العجلة يمر فوق ظهر الرجل البائس. ضرب سائق العربة بالسوط في اتجاه أخي، الذي ركض خلف العربة. أربك الصراخ المتعدد أذنيه. كان الرجل يتلوى في الغبار بين أمواله المتناثرة، غير قادر على النهوض، حيث كسرت العجلة ظهره، وتمددت أطرافه السفلية ضعيفة بلا حركة. وقف أخي وصرخ في السائق التالي، وجاء رجل على حصان أسود لمساعدته.
«أبعدْه عن الطريق»، قال وهو يمسك ياقة الرجل بإحدى يديه، بينما يسحبه أخي جانبًا.
لكن الرجل لا يزال متشبثًا بأمواله، ونظر إلى أخى بعنف، وضرب ذراعه بحفنة من الذهب.
صاحت أصوات غاضبة فى الخلف: «هيا! هيا! أفسحوا الطريق! أفسحوا الطريق!».
حدث تحطُّم عندما اصطدمت عارضة عربة بالعربة التي أوقفها الرجل الذي يمتطي الحصان. نظر أخي إلى أعلى، وأدار الرجل الذي يحمل الذهب رأسه وعض المعصم الذي يمسك بياقته. وقع اصطدام، وترنح الحصان الأسود نحو الجانب، واندفع حصان العربة بجانبه. بالكاد أخطأ حافر قدم أخي؛ فأطلق قبضته عن الرجل الذي سقط، وقفز إلى الخلف. رأى الغضب يتحول إلى رعب على وجه البائس المسكين الممدد على الأرض واختفى في لحظة، بينما اضطر أخي للتراجع إلى الخلف ودفعه الناس عبر مدخل الزقاق، كما اضطر إلى

القتال بقوة وسط الحشد ليتمكن من النجاة.

رأى الآنسة إلفينستون تغطي عينيها، وطفل صغير يحدق بعينين متسعتين- بكل احتياجه إلى خيال متعاطف- في شيء يلفه الغبار يرقد مسودًا وساكنًا، مطحونًا ومسحوقًا تحت العجلات الدوارة. صاح: «فلنرجع إلى الخلف!»، وبدأ يدير المهر. قال: «لا يمكننا عبور هذا الجحيم»، تراجعوا إلى الوراء مائة ياردة على الطريق الذي جاءوا منه، إلى أن اختفى الحشد المتقاتل. وخلال مرورهم بمنعطف الزقاق، شاهد أخي وجه الرجل المحتضر في قناة تحت شجرة تمر الحنة، وجه أبيض شاحب، ويلمع من العرق. جلست المرأتان صامتتين، جاثمتين ومرتعشتين فى مقعدهما.

توقف أخي ثانية بعد اجتياز المنعطف. كانت الآنسة إلفينستون بيضاء وشاحبة، وجلست زوجة أخيها باكية، وبائسة للغاية إلى حد أنها لم تنادِ على «جورج». كان أخي مرعوبًا ومضطربًا. وما إن تراجعوا، حتَّى أدرك كيف كان هذا المسار ضروريًّا وحتميًّا. التفت إلى الآنسة إلفينستون، وتحدث فجأة بحزم:

«يجب أن نذهب في هذا الاتجاه»، وأدار المهر مرة أخرى. أثبتت هذه الفتاة حسن خصالها للمرة الثانية في ذلك اليوم. غاص أخي وسط حركة الحشد، لشق طريقهم عبر طوفان الناس، ومنع تقدم حصان عربة أجرة، في حين قادت هي مُهر عربتهم. توقفت عجلات عربة للحظة وأحدثت شقًّا طويلًا في المقعد. وفي لحظة أخرى جرفهم الحشد. ومع تناثر العلامات الحمراء على وجه سائق العربة ويديه، اندفع أخي إلى مقعد العربة وأخذ اللجام منها.

قال، وهو يعطيها المسدس: «وجِّهي المسدس نحو الرجل الذي يقف في الخلف، إذا ضغط علينا بشدة. كلا! – وجِّهى المسدس نحو حصانه».

ثم بدأ يبحث عن فرصة للاتجاه نحو اليمين على الطريق. لكنه ما أن دخل وسط الطوفان البشري، بدا فاقدًا لإرادته، وأصبح جزءًا من ذلك الاضطراب المليء بالغبار. جرفهم الطوفان البشري خلال تشيبينج بارنيت، على بعد ميل تقريبًا من وسط المدينة قبل أن يكافحوا للعبور إلى الجانب الآخر من الطريق. يصعب وصف الضجيج والارتباك؛ لكن الطرق داخل المدينة وخارجها كانت تتفرع بشكل متكرر، وهو ما خفف من الإجهاد إلى حد ما.

توجهوا شرقًا خلال حي هادلي. وهناك، على جانبي الطريق، وفي موقع آخر أبعد، التقوا بعدد كبير من الناس يشربون من النهر، وبعضهم يتصارع من أجل الوصول إلى الماء. وعلى مسافة أبعد، تتمتع بالهدوء بالقرب من شرق بارنيت، شاهدوا قطارين يسيران ببطء أحدهما تلو الآخر دون إشارة أو نظام -قطارين مكدسان بالناس، ورجالًا يقفون حتى بين الفحم خلف المحركات- يسيران شمالًا على طول خط السكك الحديدية الشمالية الكبرى. افترض أخي أن الناس ركبت القطارين خارج لندن، ذلك أن فزع الناس الجنوني حينذاك قد جعل الركوب من المحطة المركزية مستحيلًا.

توقفوا بالقرب من هذا المكان لبقية فترة ما بعد الظهيرة؛ ذلك أن عنف هذا اليوم قد استنفد بالفعل طاقاتهم تمامًا. بدأوا يعانون من بوادر الجوع؛ وكانت الليلة باردة، ولم يقدر أي منهم على النوم. وفي المساء، جاء العديدون مسرعين على طول الطريق القريب من مكان توقفهم، هربًا من مخاطر مجهولة أمامهم، ويذهبون فى الاتجاه الذى جاء منه أخى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(17)
«طفل الرعد»

لو كان المريخيون يهدفون إلى التدمير فقط، لكانوا أبادوا جميع سكان لندن يوم الإثنين، حيث انتشروا ببطء عبر المقاطعات الرئيسة. لم يقتصر تدفق الحشد المحموم على طول الطريق خلال بارنيت، وإنما أيضًا خلال إدجوار وولثام آبيي، وعلى طول الطرق شرقًا إلى ساوث إند وشوبورينس، وجنوب نهر التيمز إلى دييل وبرودستيرز. إذا كان يمكن للمرء أن يطير في منطاد عبر السماء الزرقاء الحارقة صباح ذلك اليوم من شهر يونيو فوق لندن، لشاهد أن كل طريق في اتجاه الشمال والشرق خارج متاهة متشابكة من الشوارع كان ليبدو مزدحمًا بنقاط سوداء من الهاربين المتدفقين؛ كل نقطة تمثل عذابًا إنسانيًا من الرعب والألم الجسدي. وقد أوضحت بالتفصيل في الفصل الأخير ما حكاه أخي عن الطريق خلال تشيبينج بارنيت، وذلك حتى يدرك القراء كيف ظهر حشد النقاط السوداء لأولئك المعنيين. لم يحدث من قبل في تاريخ العالم أن تحركت مثل هذه الكتلة من البشر وعانت معًا. إن حشود القوطيين والهونيين الأسطورية -أكبر الجيوش التي شهدتها آسيا على الإطلاق– لم تكن سوى قطرة في مثل هذا التيار. لم تكن هذه المسيرة منظمة، بل كانت تدافعًا عملاقًا ورهيبًا من دون نظام ومن دون هدف؛ ستة ملايين شخص غير مسلحين وغير مزودين بالمؤن، ويتحركون بتهور. لقد كانت بداية هزيمة الحضارة، بداية مذبحة بشرية.

كما كان يمكن لسائق المنطاد أن يرى تحته مباشرة شبكة الشوارع البعيدة والواسعة، والمنازل، والكنائس، والساحات، والشوارع الملتوية، والحدائق- المهجورة بالفعل - تمتد كخريطة ضخمة، جنوبها ملطخ بالبقع. وقد يبدو المظهر في إيلينج، وريتشموند، وويمبلدون، كأنما قلم وحشيّ قذف الحبر على الخريطة. وتنمو كل بقعة سوداء باطراد وبلا انقطاع وتنتشر، تمتد في تشعبات في هذا الطريق أو ذاك، والآن تتكتل في مواجهة أرض مرتفعة، ثم تتدفق بسرعة من فوق قمة نحو وادٍ جديد وجدته، تمامًا كبقعة حبر تنشر نفسها على ورق النشاف.

وأبعد من ذلك، فوق التلال الزرقاء التي ترتفع جنوب النهر، كان المريخيون اللامعون يتحركون جيئة وذهابًا، وينشرون بهدوء ومنهجية سحابة السم فوق هذه الرقعة من البلد ثم ينتقلون إلى رقعة أخرى، وينشرون بخارهم مرة أخرى، وفي النهاية يستولون على المنطقة التي غزوها. ويبدو أن هدفهم لم يكن الإبادة بقدر ما كان إضعاف الروح المعنوية وتدمير أي معارضة. فقد فجروا كل مخزن للبارود عثروا عليه، وقطعوا كل خطوط التلغراف، وحطموا السكك الحديدية هنا وهناك. كانوا يستهدفون تعجيز البشر. بدا أنهم ليسوا في عجلة من أمرهم لتوسيع مجال عملياتهم، ولم يتجاوزوا الجزء الأوسط من لندن طوال ذلك اليوم. ومن المحتمل أن عددًا كبيرًا من سكان لندن قد بقوا في منازلهم حتى صباح يوم الإثنين. ومن المؤكد أن العديدين قد لقوا حتفهم في منازلهم خنقًا، من جراء الدخان الأسود.

كانت منطقة حوض لندن النهري (22) بمثابة مشهد مذهل، حتى منتصف النهار تقريبًا؛ حيث توفرت جميع أنواع القوارب البخارية وعمليات الشحن، تحت إغراء مبالغ مالية هائلة يقدمها الهاربون، ويُقال إن العديدين الذين سبحوا إلى تلك القوارب دفعتهم خطافاتها وغرقوا. وفي حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، ظهرت بقايا رقيقة من سحابة البخار الأسود بين قناطر جسر بلاكفرايرز. وعندئذ أصبح الحوض مسرحًا للارتباك المجنون، والقتال، والاصطدام؛ كما تكدست لفترة العديد من القوارب والصنادل في القوس الشمالي لجسر تاور بريدج، حتى اضطر البحارة والعاملون على الصنادل إلى الدخول في قتال وحشي ضد الناس الذين احتشدوا حولهم من النهر؛ حيث كان الناس يتسلقون دعائم

الجسر بالفعل من أعلى.
وعندما ظهر مريخي، بعد ساعة، وراء برج الساعة وخاض أسفل النهر، لم يتبقَّ شيء سوى حطام يطفو فوق لايمهاوس.
أحكي الآن عن سقوط الأسطوانة الخامسة، أما النيزك السادس فقد سقط في ويمبلدون. كان أخي يراقب الوضع من العربة بجانب المرأتين في أحد المروج، ورأى الوميض الأخضر على مسافة أبعد من التلال. وفي يوم الثلاثاء، قامت مجموعة صغيرة، لا تزال عازمة على عبور البحر، بشق طريقها خلال المنطقة المكتظة بالحشود واتجهوا إلى كولشستر. تأكدت أخبار استيلاء المريخيين على لندن بأكملها. شوهِدوا في هايجيت، بل وقيل في نيسدن. لكن أخي لم يرهم حتى اليوم التالي.
بدأت الجموع المتناثرة تدرك، في ذلك اليوم، حاجتها الملحة إلى المواد الغذائية. ومع الشعور بالجوع، لم يعد أحد يبالي بحقوق الملكية. خرج المزارعون يحملون الأسلحة للدفاع عن حظائر الماشية، ومخازن الحبوب، والمحاصيل الناضجة. وتوجه عدد من الناس الآن شرقًا، مثل أخي، وشعر البعض باليأس حتى من العودة إلى لندن للحصول على الغذاء. كان هؤلاء أساسًا من الضواحي الشمالية، الذين عرفوا بأمر الدخان الأسود من الشائعات. سمع أخي أن حوالي نصف أعضاء الحكومة قد تجمعوا في برمنجهام، وأنه يجري إعداد كميات هائلة من المواد شديدة الانفجار لاستخدامها في الألغام الآلية في جميع أنحاء مقاطعات ميدلاند.
وقيل له أيضًا إن شركة ميدلاند للسكك الحديدية قد تمكنت من حل مشكلة الفرار من الذعر في اليوم الأول واستأنفت حركة المرور، وكانت قطاراتها تسير في اتجاه الشمال من سانت ألبانز بغية تخفيف الازدحام في المقاطعات الرئيسة. كما كانت هناك لافتة في تشيبينج أونجار تعلن عن توفر مخازن كبيرة من الدقيق في المدن الشمالية، وأن الخبز سيجري توزيعه في غضون أربع وعشرين ساعة بين الجوعى في الحي. لكن هذه المعلومات لم تردعه عن خطة الهروب التي وضعها، وتحرك الثلاثة شرقًا طوال اليوم، ولم يسمعوا أكثر من هذا الوعد بتوزيع الخبز. كما لم يسمع عنه أي شخص آخر أي شيء أيضًا. سقط النيزك السابع في تلك الليلة، سقط على برايمروز هيل. سقطت بينما كانت الآنسة إلفينستون تراقب الوضع، حيث تقوم بهذه المهمة بالتناوب مع أخي. لقد رأت الأسطوانة تسقط.
وصل الهاربون الثلاثة إلى «تشيلمسفورد» يوم الأربعاء، بعد أن قضوا الليلة في حقل قمح غير ناضج. وفي تشيلمسفورد، وجدوا مجموعة من السكان تطلق على نفسها اسم «لجنة التموين العام»، وقد استولت على المهر باعتباره من المؤن، ولم تقدم شيئًا في المقابل سوى الوعد بحصة من لحمه في اليوم التالي. سمعوا أيضًا شائعات عن المريخيين في إيبينج، وأخبار عن تدمير مصانع البارود في وولثهام آبي في محاولة عبثية لتفجير أحد الغزاة.
كان الناس هنا يراقبون المريخيين من أبراج الكنيسة. ومن قبيل المصادفة، ولحسن حظ أخي، أنه فضّل المضي على الفور إلى الساحل بدلًا من انتظار الحصول على الطعام، على الرغم من أن الثلاثة كانوا يعانون من شدة الجوع. وصلوا إلى تيلينجهام بحلول منتصف النهار، والتي كان من الغريب أنها تبدو صامتة تمامًا ومهجورة، باستثناء عدد قليل من اللصوص المتخفين الذين يبحثون عن الطعام. وبالقرب من تيلينجهام شاهدوا فجأة البحر، فضلًا عن أروع حشد من جميع أنواع السفن التي يمكن تصورها.
فعندما تعذَّر على البحارة الوصول إلى نهر التيمز، جاءوا إلى ساحل إسيكس، إلى هارويتش ووالتون وكلاكتون، وبعد ذلك إلى فاولنس وشيبيري لنقل الناس. كانوا يقفون في منحنى ضخم على شكل منجل، اختفى أخيرًا في الضباب باتجاه نيز. وعلى مقربة من الشاطئ، ظهر العديد من قوارب الصيد- الإنجليزية، والإسكتلندية، والفرنسية، والهولندية، والسويدية؛ وزوارق بخارية تنطلق من نهر التيمز، ويخوت، وقوارب كهربائية؛ وخلفها

السفن ذات الحمولات الأكبر، والعديد من عمال المناجم المتسخين، والتجار المتأنقين، وسفن نقل الماشية، وقوارب الركاب، وناقلات البترول، والمراكب الشراعية، وسفن النقل البيضاء القديمة، وسفن الركاب البيضاء والرمادية الأنيقة من ساوثهامبتون وهامبورج. وعلى طول الساحل الأزرق لنهر بلاك ووتر، تمكن أخي من أن يلاحظ في العتمة سربًا كثيفًا من القوارب يساوم أصحابها على الأسعار مع الناس المنتظرين على الشاطئ، وقد امتد أيضًا هذا السرب على طول نهر بلاك ووتر وصولًا إلى مالدون تقريبًا.

وعلى بُعد بضعة أميال، رأى أخي شيئًا مدرعًا، يقع على عمق في الماء، بدا له كسفينة تغوص بحملها في المياه. كانت سفينة «ابنة الرعد»؛ السفينة الحربية الوحيدة التي تبدو على مرمى البصر. وبعيدًا، على اليمين، على سطح البحر الأملس –حيث ساد هدوء مميت في ذلك اليوم– تصاعد دخان أسود يتلوى كالثعبان وظهرت خلاله السفن الحربية المدرعة لأسطول «تشانل فلييت»، تحوم في خط ممتد، تشتعل حماسًا وعلى أهبة الاستعداد، عبر مصب نهر التيمز لمواجهة الغزو المريخى. وعلى الرغم من يقظتها، عجزت عن منعه.

وأمام مشهد البحر، تملك الذعر من السيدة إلفينستون، على الرغم من تطمينات شقيقة زوجها. لم تغادر السيدة إلفينستون إنجلترا من قبل، وهي تفضل الموت على أن تعيش بلا أصدقاء في بلد أجنبي. تصورت تلك المرأة المسكينة أن الفرنسيين والمريخيين ربما يتشابهون إلى حد كبير. تزايدت حالتها الهستيرية، كما تزايد خوفها واكتئابها، خلال الرحلة التي استغرقت يومين. كانت فكرتها الكبرى أن تعود إلى ستانمور؛ حيث كانت الحياة دائمًا على ما يرام وآمنة. وقد يجدون جورج فى بلدة ستانمور...

تمكنوا بصعوبة شديدة من إنزالها إلى الشاطئ، ونجح أخي في جذب انتباه بعض الرجال على متن سفينة بخارية تستخدم التجديف في نهر التيمز. أرسل الرجال قاربًا، وعقدوا صفقة لنقل الثلاثة مقابل ستة وثلاثين جنيهًا. وقال هؤلاء الرجال إن السفينة البخارية متجهة إلى أوستند.

كانت الساعة حوالي الثانية عندما وجد أخي نفسه آمنًا على متن القارب البخاري مع السيدتين، بعد أن دفع الأجر إلى البحارة على سلم السفينة. وجد ثلاثتهم طعامًا على متن القارب، وإن كانت أسعاره باهظة. وتدبر ثلاثتهم تناول وجبة على أحد المقاعد الأمامية.

ضم القارب بضع عشرات من الركاب، أنفق بعضهم آخر ما لديه من أموال في هذه الرحلة. لم يغادر القبطان بلاك ووتر حتى الساعة الخامسة بعد الظهر، كي يملأ القارب بالركاب. وبالفعل ازدحمت أسطح الجلوس على نحو ينذر بالخطر. وربما كان ليبقى فترة أطول، لولا صوت طلقات المدافع التي بدأت في تلك الساعة جنوبًا. أطلقت السفينة الحربية المدرعة طلقة صغيرة في اتجاه البحر، وكأنما ترد على تلك المدافع، ورفعت سلسلة من الأعلام. وتدفق الدخان من مداخنها.

ذهب بعض الركاب إلى أن إطلاق النار هذا جاء من شوبيرينس، إلى أن لوحظ أن صوته يزداد ارتفاعًا. وفي الوقت نفسه، بعيدًا في الجنوب الشرقي، ارتفعت من البحر الصواري والأجزاء العلوية لثلاث سفن مدرعة، واحدة تلو الأخرى، أسفل سحب من الدخان الأسود. لكن انتباه أخي تحول بسرعة إلى إطلاق النار البعيد في الجنوب؛ حيث تخيل أنه رأى عمودًا من الدخان يتصاعد من الضباب الرمادى البعيد.

كانت السفينة البخارية الصغيرة في طريقها بالفعل في اتجاه الشرق، وكان ساحل إسيكس المنخفض يزداد زرقة وضبابية، عندما ظهر أحد المريخيين، صغيرًا وغير واضح عن بُعد، يتحرك على طول الساحل الموحل من اتجاه فولنس. وعندئذ صاح القبطان بأعلى صوته، لاعنًا نفسه في خوف وغضب على تأخره، كما بدت المجاديف كأن رعبًا أصابها. وقفت جميع الركاب على جانب السفينة البخارية أو فوق مقاعدها يحدقون في ذلك المخلوق البعيد، الذي يرتفع أعلى من الأشجار أو أبراج الكنائس، ويتقدم على مهل محاكيًا بسخرية خطوات البشر.

كان أول مريخي يراه أخي؛ فوقف مذهولًا أكثر منه خائفًا يشاهد هذا العملاق وهو

يتحرك عمدًا نحو أسطول السفن، ويخوض في الماء مبتعدًا عن الساحل. ثم ظهر مريخي آخر، بعيدًا وراء نهر كراوتش، يخطو فوق بعض الأشجار الصغيرة. وبعدها ظهر مريخي آخر، لا يزال أبعد، يخوض بعمق في مسطح طيني لامع، ويبدو كأنه معلق في منتصف الطريق بين البحر والسماء. كانوا جميعًا يتحركون نحو البحر، كما لو كانوا يستهدفون اعتراض هروب السفن المتعددة التي تتزاحم بين جزيرة فولنس وساحل ناز. على الرغم من قوة جهود محركات السفينة الصغيرة ذات المجاديف، والرغوة المتدفقة التي تقذفها عجلاتها خلفها، فقد تراجعت ببطء رعبًا من تقدم المريخيين المشؤوم.

ألقى أخي نظرة خاطفة في اتجاه الشمال الغربي، ورأى هلال أسطول السفن الكبير يتحرك حركات ملتوية مع اقتراب ذلك الرعب؛ تتحرك كل سفينة وراء أخرى، وتأتي سفينة أخرى من جانب آخر، وتطلق السفن البخارية كميات كبيرة من البخار، وترتفع الأشرعة، وتنطلق الزوارق البخارية مسرعة هنا وهناك. كان أخي مفتونًا بذلك، وبالخطر الذي يزحف إلى اليسار، لدرجة أنه لم ينظر إلى أي شيء في اتجاه البحر. ثم تحركت السفينة البخارية حركة سريعة (حيث استدارت فجأة لتتجنب المطاردة) قذفته من المقعد الذي كان يقف عليه. تصاعد الصياح حوله، وسمع وقع الأقدام، وهتافًا يبدو أن الرد عليه كان ضعيفًا. تمايلت السفينة البخارية، فانقلب على يديه.

وقف أخي وشاهد عند الميمنة، على مسافة أقل من مائة ياردة، سفينتهم المتأرجحة، كتلة حديدية ضخمة مثل شفرة محراث تمزق المياه وتقذفها على الجانبين في موجات ضخمة من الرغوة التي قفزت نحو السفينة البخارية، وتقذف مجاديفها عديمي الحيلة في الهواء، ثم تمتص سطح السفينة إلى أسفل، إلى سطح المياه تقريبًا.

أعمى سيل من الرذاذ أخي للحظة. عندما استعاد بصره ثانية، رأى الوحش بعد أن عبر المياه يندفع مسرعًا نحو اليابسة. ارتفعت الأجزاء العلوية الحديدية الكبيرة من ذلك الهيكل المتهور، وبرز أنبوبان انطلقت منهما نفخة من الدخان والنار. كانت سفينة الطوربيد، «ابنة الرعد»، تتقدم مسرعة لإنقاذ السفن التى تواجه التهديد.

حافظ أخي على موطئ قدم له على سطح السفينة عن طريق التشبث بجانبها القريب منه، وتوجه ببصره ثانية نحو المريخيين. شاهد ثلاثة منهم متجاورين ويقفون على مسافة بعيدة في البحر، لدرجة أن دعامات الحامل ثلاثي القوائم لدى كل منهم كانت مغمورة في المياه بالكامل تقريبًا. وبوضعهم المغمور بالماء هذا، ورؤيتهم من منظور بعيد، بدوا أقل حجمًا بكثير من الكتلة الحديدية الضخمة التي كانت السفينة البخارية تنطلق في أعقابها بلا حول ولا قوة. وقد يبدو الأمر أنهم كانوا يشاهدون هذا الخصم الجديد في دهشة. وربما صور لهم ذكاؤهم أن العملاق هو مجرد شخص آخر مثلهم. لم تطلق سفينة «ابنة الرعد» النار من أي من مدافعها، لكنها ببساطة اتجهت نحوهم بأقصى سرعة. وربما عدم إطلاقها النار هو ما مكنها من الاقتراب من العدو؛ إذ لم يعرف الخصم ماذا يفعل بها. فإذا أطلقت قذيفة واحدة، سوف يرسلونها إلى القاع على الفور باستخدام الشعاع الحرارى.

انطلقت بسرعة رهيبة، بحيث أصبحت بعد دقيقة في منتصف الطريق بين السفينة البخارية والمريخيين – كتلة سوداء متضائلة في مواجهة انحسار الامتداد الأفقي لساحل إسكس.

وفجأة أنزل المريخي الأول أنبوبه، وأطلق عبوة من الغاز الأسود نحو السفينة المدرعة. اصطدمت بجانبها الكبير وارتدت على هيئة نفخة بلون الحبر، تدحرجت بعيدًا نحو البحر. كان سيلًا من دخان أسود، تفادته السفينة المدرعة. أمَّا بالنسبة للمراقبين من السفينة البخارية، التي كانت منخفضة في الماء، علاوة على الشمس في أعينهم، فقد بدت السفينة المدرعة كما لو أنها تقع بالفعل بين المريخيين.

شاهدوا الأشكال الهزيلة تنفصل وتنهض من الماء أثناء تراجعهم إلى الشاطئ، ثم رفع أحدهم مولِّد الشعاع الحراري، وكان يشبه آلة التصوير. أمسكه ووجهه إلى أسفل بشكل غير مباشر، فانطلقت كومة بخار من الماء بمجرد أن لمسه. لا بد أنه اخترق الحديد الذي يغلف

جانب السفينة، مثل اختراق قضيب حديدى أبيض ساخن لورقة.

ارتفع وميض من اللهب خلال البخار الصاعد، ثم تمايل المريخي مترنحًا. تهاوى في لحظة تالية، وتصاعدت كمية كبيرة من الماء والبخار عاليًا في الهواء. انطلقت أصوات مدافع سفينة «ابنة الرعد»، واحدًا تلو الآخر، خلال البخار؛ وأدت إحدى الطلقات إلى تناثر المياه عاليًا بالقرب من السفينة البخارية، ثم ارتدت القذيفة في اتجاه السفن المسرعة الأخرى نحو الشمال، وحطمت إحدى المراكب الشراعية وحولتها إلى شظايا خشبية.

لم ينتبه أحد إلى ذلك كثيرًا. فعند رؤية انهيار المريخي، هلل القبطان على الجسر بصوت غير واضح، كما تصايح جميع الركاب المتزاحمين عند مؤخرة السفينة البخارية معًا. ثم أطلقوا صيحات ثانية. ذلك أن شيئًا خرج خلف ذلك الضجيج؛ ارتفع شيء طويل وأسود، تتدفق ألسنة اللهب من أجزائه الوسطى، وتنفث فتحاته الهوائية وأنابيبه النار.

كانت سفينة «ابنة الرعد» لا تزال سليمة؛ يبدو أن جهاز توجيهها لم يمس، ولا تزال محركاتها تعمل. توجهت السفينة مباشرة نحو المريخي الثاني، الذي كان على بعد مائة ياردة منها عندما استخدم الشعاع الحراري. ثم مع هزة عنيفة وومضة تسبب العمى، قفزت أسطحها ومداخنها إلى أعلى. ترنح المريخي مع عنف انفجارها، وفي لحظة أخرى صدمه حطامها المشتعل الذي كان لا يزال يتحرك إلى الأمام بفعل زخم وتيرته. انسحق المريخي متكومًا مثل الورق المقوى. صاح أخي لا إراديًا. وحجبت كتلة من البخار المغلي كل شيء مرة أخرى.

صاح القبطان: «اثنان!».

انطلقت صيحات من الجميع. وترددت في مجمل السفينة البخارية، من أولها إلى نهايتها، هتافات محمومة؛ ثم انضمت إليها هتافات أخرى من حشد السفن والقوارب المتجهة إلى البحر.

ظل البخار عالقًا فوق الماء لعدة دقائق، حاجبًا المريخي الثالث والساحل تمامًا. وفي تلك الأثناء، استمر التجديف على القارب للخروج من البحر والابتعاد عن المعركة. وعندما تلاشى الارتباك أخيرًا، تدخلت كتلة منجرفة من البخار الأسود، ولم يعُد ممكنًا رؤية أي جزء من سفينة «ابنة الرعد» أو المريخي الثالث. لكن السفن المدرعة التي كانت متجهة إلى البحر اقتربت جدًّا ووقفت فى اتجاه الشاطئ بجوار الزورق البخارى.

واصل القارب الصغير شق طريقه نحو البحر، وتراجعت السفن المدرعة ببطء نحو الساحل، الذي كانت كتلة البخار المبقعة لا تزال تخفيه: كتلة جزء منها بخار، وجزء آخر من غاز أسود، يدوران في دوامة متحدين بأغرب طريقة. وكان أسطول اللاجئين يتناثر في اتجاه الشمال الشرقي؛ والعديد من القوارب الشراعية تبحر بين السفن المدرعة والقارب البخاري. وبعد فترة، وقبل أن يصلوا إلى كتلة السحابة الغارقة، استدارت السفن الحربية شمالًا، ثم تحركت بشكل مفاجئ وخاضت عبر ضباب المساء الكثيف في اتجاه الجنوب. زادت ضبابية الساحل، ولم يعد من الممكن تمييزه وسط كتل الغيوم المنخفضة التي كانت تتجمع حول الشمس وهى تغرب.

انطلقت المدافع فجأة خلال الضباب الذهبي لغروب الشمس، وبدأ شكل من الظلال السوداء يتحرك. اندفع الجميع نحو درابزين السفينة البخارية، محدقين غربًا في النيران المتوهجة المسببة للعمى. ولكن كان يصعب تمييز أي شيء بوضوح. ارتفعت كتلة مائلة من الدخان، وحجبت وجه الشمس. اهتز القارب البخارى وهو يشق طريقه عبر قلق لا نهاية له.

غرقت الشمس في الغيوم الرمادية، توهجت السماء ثم أظلمت، وارتجف نجم المساء في الأفق. كان الغسق عميقًا عندما صرخ القبطان وأشار بيده. دقق أخي النظر. اندفع شيء ما نحو السماء من وسط الغيوم الرمادية– اندفع مائلًا إلى أعلى وبسرعة كبيرة وبوضوح مضيء فوق غيوم السماء الغربية؛ شيء مسطح وواسع، وكبير جدًّا، اندفع في منحنى واسع، ثم أخذ يتضاءل ويغرق ببطء، واختفى مرة أخرى في ذلك اللغز الرمادي ليلًا. ومع ابتعاده، أظلمت الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكتاب الثاني

المريخيون يحكمون كوكب الأرض
(1)
تحت الأقدام

تجولت كثيرًا، في الكتاب الأول، بعيدًا عن مغامراتي كي أحكي تجارب أخي. وطوال الفصلين الأخيرين، كنت أختبئ مع القسيس في منزل فارغ في هاليفورد، حيث هربنا من الدخان الأسود. ومن هناك سوف أستأنف حكايتي. توقفنا هناك طوال ليلة الأحد واليوم التالي كله –يوم الذعر– في جزيرة صغيرة، يقطعها الدخان الأسود عن بقية العالم. لم يكن بوسعنا القيام بأى شىء سوى الانتظار فى خمول مؤلم خلال هذين اليومين المرهقين.

انشغل عقلي بالقلق على زوجتي. تخيلتها في ليذرهيد مذعورة، معرضة للخطر، تبكيني متصورة أنني أصبحت في عداد الأموات. أخذت أسير في غرف المنزل وأبكي بصوت عالٍ وأنا أفكر كيف ابتعدنا وماذا قد حدث لها في غيابي. أعرف أن ابن عمي شجاعٌ في مواجهة أي حالة طارئة، لكنه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذي يدرك الخطر بسرعة، ويتصرف على الفور. لم تكن الشجاعة مطلوبة، بل الحذر. وكان عزائي الوحيد يكمن في اعتقادي أن المريخيين يتحركون نحو لندن وبعيدًا عن موقع زوجتي. أبقت هذه المخاوف المبهمة عقلي حساسًا ومتألمًا. تزايد إرهاقي وانفعالي نتيجة لصرخات القسيس الدائمة؛ أرهقني مشهد يأسه الأناني. ابتعدت عنه بعد احتجاجه العقيم، وبقيت في إحدى الغرف - من الواضح أنها غرفة دراسية للأطفال– إذ تحتوي على مجسمات للكرة الأرضية، وأشكال، وكراريس. وعندما تبعني إلى الغرفة، تركتها وذهبت إلى غرفة صغيرة في أعلى المنزل، وأغلقت الباب على نفسى لكى أكون وحيدًا مع بؤسى المؤلم.

كان الدخان الأسود يطوقنا بشكل يبعث على اليأس طوال ذلك اليوم وصباح اليوم التالي. ظهرت علامات على وجود أشخاص في المنزل المجاور مساء يوم الأحد: وجه عند نافذة، وأضواء متحركة، ثم لاحقًا إغلاق باب. لكنني لا أعرف من هم هؤلاء الناس، ولا ماذا حل بهم؛ ولم نرهم في اليوم التالي. انجرف الدخان الأسود ببطء نحو النهر طوال صباح يوم الإثنين، وزحف مقتربًا منّا، ليتجه أخيرًا على طول الطريق خارج المنزل الذي نختبئ فيه.

جاء أحد المريخيين عبر الحقول في حوالي منتصف النهار، ووضع المادة التي تنفث البخار المحموم الذي أصدر صوت هسهسة على الجدران، وحطم جميع النوافذ التي لمسها، وأحرق يد القسيس أثناء فراره من الغرفة الأمامية. وعندما نجحنا أخيرًا في التسلل عبر الغرف المبللة ونظرنا إلى الخارج ثانية، كانت البلدة شمالًا تبدو كما لو أن عاصفة ثلجية سوداء قد مرت فوقها. كما أصابنا ذهول عندما نظرنا إلى النهر، حيث رأينا احمرارًا لا تفسير له يختلط بسواد المروج المحروقة.

بقينا لفترة لا نعرف كيف أثر هذا التغيير على موقفنا، إلا أننا تخلصنا من خوفنا من الدخان الأسود. لكنني أدركت لاحقًا أن الدخان لم يعد يطوقنا، وأننا قد نفلت الآن. وبمجرد أن أدركت أن طريق الهروب مفتوحٌ أمامنا، عاد حلم القيام بعمل ما. لكن القسيس كان بليدًا، وغير عقلانى.

أخذ يقول مكررًا: «نحن آمنون هنا، آمنون هنا».

قررت أن أتركه، ويا ليتني تركته! قمت بما نصحني به جندي المدفعية: بحثت عن طعام وشراب. وجدت زيتًا وقطعًا من القماش ضمدت بها حروقي، وأخذت أيضًا قبعة وقميصًا خفيفًا وجدتهما في إحدى غرف النوم. وعندما تبين له أنني أنوي الذهاب بمفردي –بعد أن

أقنعت نفسي بالذهاب بمفردي– نهض فجأة ليأتي معي. كان كل شيء هادئًا طوال فترة ما بعد الظهيرة، ولذا بدأنا نتحرك في حوالي الساعة الخامسة، كما أعتقد، على طول الطريق الأسود إلى بلدة صنبرى.

صادفنا في صنبري، وعلى فترات متقطعة طوال الطريق، جثث الموتى ملقاة في أوضاع ملتوية: جثث الخيول وجثث البشر؛ كما كانت العربات والأمتعة منقلبة وكلها مغطاة بغبار أسود كثيف. أثار هذا الغطاء من مسحوق الرماد في ذهني ما قرأته عن تدمير مدينة بومبي (23). وصلنا إلى هامبتون كورت دون مشكلة، وعقولنا مليئة بالمظاهر الغريبة وغير المألوفة. استراحت أعيننا في هامبتون كورت عندما شاهدت رقعة خضراء نجت من الدخان الخانق. سرنا في حديقة بوشي بارك، حيث الغزلان تتحرك جيئة وذهابًا أسفل أشجار الكستناء، وعلى بُعدٍ يسرع بعض الرجال والنساء نحو هامبتون. وهكذا وصلنا إلى بلدة تويكنهام. كان هؤلاء أول أناس نراهم.

كانت النيران لا تزال مشتعلة في الغابات، بعيدًا عبر الطريق، خلف منطقتي هام وبيترشام. لم يلحق الأذى ببلدة تويكنهام، سواء من الشعاع الحراري أو الدخان الأسود. وعلى الرغم من وجود المزيد من الناس هنا، لم يستطع أحد إمدادنا بأي أخبار. فقد كان معظمهم مثلنا، يستفيدون من فترة الهدوء لتغيير أماكن إقامتهم. وكان انطباعي أن العديد من المنازل هنا لا يزال يشغلها سكان خائفون، خائفون حتى من الفرار. كما توجد هنا دلائل أيضًا على سير حشود مسرعة على طول الطريق. أتذكر بوضوح كومة من حطام ثلاث دراجات، سحقتها على الطريق عجلات عربات النقل المتتالية. عبرنا جسر ريتشموند في الساعة الثامنة والنصف تقريبًا. أسرعنا بطبيعة الحال عبر الجسر المكشوف، لكنني لاحظت عددًا من الكتل الحمراء تطفو في اتجاه التيار على بُعد عدة أقدام. لم أكن أعرف ما هذه الكتل، ولا يوجد وقت للتدقيق، ولذا فسرتها بطريقة أفظع كثيرًا مما تستحقه. وهنا مرة أخرى، على جانب سووري، انتشر الغبار الأسود الذي كان من قبل دخانًا، كما تناثرت جثث الموتى في كومة بالقرب من المحطة؛ لكننا لم يكن نلمح أي من المريخيين إلى أن قطعنا مسافة على الطريق المتجه نحو بارنز.

رأينا على مسافة عبر السواد، مجموعة من ثلاثة أشخاص يركضون في شارع جانبي نحو النهر؛ وغير ذلك بدا المكان مهجورًا. كانت النيران تشتعل بقوة أعلى التل في بلدة ريتشموند، بينما لم يكن هناك أى أثر للدخان الأسود خارجها.

وفجأة، مع اقترابنا من ضاحية كيو، شاهدنا عددًا من الناس يركضون، وتلوح في الأفق الأجزاء العليا من آلة القتال المريخية أعلى من أسطح المنازل، على مسافة أقل من مائة ياردة منا. وقفنا مذعورين من الخطر الذي نواجهه؛ فلو نظر المريخي إلى أسفل لكنا هلكنا على الفور. كنا مذعورين لدرجة أننا لم نجرؤ على مواصلة سيرنا، بل اتخذنا جانبًا واختبأنا في سقيفة إحدى الحدائق. وهناك، جثم القسيس وهو يبكي بصمت، ويرفض التحرك مرة أخرى.

على أن فكرتي الثابتة للوصول إلى ليذرهيد لم تترك لي مجالًا للراحة، ولذا غامرت ثانية عند الشفق. تحركت خلال الشجيرات، ثم على طول ممر يقع بجوار منزل كبير، وهكذا وصلت إلى الطريق المؤدي إلى كيو. أما القسيس الذي تركته في السقيفة، فقد جاء مسرعًا خلفى.

كان ذلك التحرك الثاني أكثر الأشياء تهورًا التي قمت بها في حياتي؛ حيث كان واضحًا أن المريخيين موجودون حولنا. فما إن لحق بي القسيس، حتَّى رأينا إما آلة القتال التي رأيناها من قبل أو واحدة أخرى، على مسافة بعيدة عبر المروج في اتجاه كيو لودج. سارعت أربعة أو خمسة أشكال سوداء صغيرة أمام المريخي عبر الحقل الأخضر- الرمادي، واتضح بعد لحظة أنه يلاحقهم. أصبح المريخي بينهم بعد ثلاث خطوات واسعة، فركضوا في جميع الاتجاهات هربًا من أقدامه. لم يستخدم المريخي الشعاع الحراري لتدميرهم، لكنه التقطهم واحدًا تلو الآخر. ويبدو أنه ألقى بهم في الحامل المعدني الضخم الذي يظهر

خلفه كسلة تماثل السلة التى يعلقها العامل على كتفه.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أدرك فيها أن المريخيين قد يكون لديهم غرض آخر غير تدمير البشرية المهزومة. وقفنا للحظة متحجرين، ثم استدرنا وهربنا من بوابة خلفنا إلى حديقة مسورة، وسقطنا في قناة، وتمددنا داخلها، لا نجرؤ حتى على الهمس إلى أن ظهرت النجوم.

أعتقد أننا استجمعنا شجاعتنا للبدء من جديد في حوالي الساعة الحادية عشرة. لم نجرؤ على الخروج إلى الطريق، وإنما تسللنا على طول الأسيجة وخلال المزارع، ونحن نراقب المريخيين بحذر خلال الظلام– يراقب القسيس اتجاه اليمين، وأراقب أنا اتجاه اليسار– حيث بدوا حولنا في المكان. تخبطنا في موقع محروق وأسود، أصبح الآن باردًا ومليئًا بالرماد، ويتناثر فيه عدد من جثث الرجال القتلى احترقت رؤوسهم وجذوعهم بفظاعة، بينما ظلت أرجلهم وأحذيتهم سليمة في أغلبها؛ كما تناثرت جثث الخيول، ربما على مسافة خمسين قدمًا وراء خط من أربعة مدافع مُدمَّرة وعربات مدافع محطمة.

يبدو أن شين (24) قد نجت من الدمار، لكن المكان كان صامتًا ومهجورًا. لم نشهد هنا أي موتى، على الرغم من شدة ظلام الليل الذي لم يتح لنا النظر في شوارع المكان الجانبية. فى شين، اشتكى رفيقى فجأة من الضعف والعطش، فقررنا دخول أحد المنازل.

كان أول منزل دخلناه، بعد صعوبة بسيطة مع النافذة، عبارة عن فيلا صغيرة شبه منفصلة. لم أجد شيئًا نأكله إلا بعض الجبن المتعفن؛ على أنني وجدت ماء للشرب. كما وجدت بلطة صغيرة فأخذتها، إذ ربما تفيدنا عند محاولة دخول المنزل التالى.

عبرنا بعد ذلك إلى مكان يتحول فيه الطريق نحو مورتليك. وهناك رأينا منزلًا أبيض داخل حديقة مسورة. وجدنا في حجرة المؤن بهذا المنزل مخزنًا من الطعام- أرغفة خبز في مقلاة، وشرائح لحم غير مطبوخة، وقطعة من لحم الخنزير. وأنا أصف بدقة ما وجدناه من طعام لأن المُقدر لنا، كما سأحكي، أن نعيش على طعام هذا المخزن طوال الأسبوعين القادمين. وجدنا أيضًا زجاجات بيرة تحت أحد الرفوف، فضلًا عن كيسين من الفاصوليا وبعض الخس. تنفتح غرفة المؤن هذه على غرفة لغسيل الأواني، تضم أيضًا حطب الوقود. هناك أيضًا خزانة، وجدنا بداخلها ما يقرب من اثنتي عشرة زجاجة نبيذ «بورجوندي»، ومعلبات الحساء والسلمون، وعلبتين من البسكويت.

جلسنا في المطبخ المجاور في الظلام– لأننا لم نجرؤ على إشعال الضوء – وأكلنا الخبز ولحم الخنزير، وشربنا زجاجة بيرة. أما القسيس، الذي لا يزال خائفًا ومضطربًا، فقد أخذ يحثني بشكل غريب على مواصلة السير، بينما كنت أحثه على تناول الطعام حفاظًا على قوته؛ وعندئذ حدث الشىء الذى أدى إلى حبسنا فى هذا المنزل.

قلت: «لا يمكن أن نكون في منتصف الليل بعد»، ثم ظهر وهج ساطع من ضوء أخضر زاهٍ. اصطبغ كل شيء في المطبخ باللونين الأخضر والأسود بوضوح، ثم تلاشى اللونان مرة أخرى. سمعت بعد ذلك صوت اصطدام لم أسمع مثله من قبل أو منذ ذلك الحين. وسريعًا، كأن لحظة مرت في أعقاب هذا الصوت، جلجلت خلفي أصوات اصطدام زجاج، وتحطُّم وقعقعة حجارة البناء المتساقطة حولنا، فضلًا عن تساقط جبس السقف وتحطمه إلى العديد من الشظايا فوق رؤوسنا. وقعت على الأرض أمام مقبض الفرن وأصابتني حالة من الذهول. أخبرني القسيس أنني فقدت الوعي لفترة طويلة، وعندما أفقت، كان الظلام قد حل ثانية. أدركت بعد ذلك أن وجه القسيس كان يقطر دمًا من جبهته المجروحة، وهو يرش الماء فوقى.

بقيت لفترة غير قادر على تذكُّر ما حدث، ثم بدأت ذاكرتي تعود ببطء. تأكدت من وجود كدمة على صدغى.

سألنى القسيس هامسًا: «هل أنت أفضل؟».

أجبته أخيرًا بأن جلست.

قال: «لا تتحرك؛ فالأرضية مغطاة بأوانٍ فخارية كانت في الخزانة وتهشمت. لا يمكنك

التحرك دون إحداث ضجيج، وأنا أعتقد أنهم فى الخارج».
جلسنا صامتين تمامًا، بحيث كنا بالكاد نسمع صوت تنفسنا. بدا كل شيء ساكنًا سكون الموت، ولكن حدث أن انزلق بجوارنا بعض الجبس أو الطوب المكسور، وتسبب في صوت هادر. سمعنا قعقعة معدنية متقطعة فى الخارج، على مقربة منا.
قال القسيس، عندما سمعنا هذا الصوت ثانية: «ها هو ذا!».
قلت: «نعم، ولكن ما هو؟».
قال القسيس: «إنه المريخى!».
أرهفتُ السمع مرة أخرى.
قلت: «ليس مثل الشعاع الحراري». بقيت لفترة أميل إلى الاعتقاد بأن إحدى آلات القتال الكبيرة قد تعثرت في المنزل، كما حدث من قبل وشهدتُ تعثر إحداها في برج كنيسة شيبرتون.
كان وضعنا غريبًا وغير مفهوم، إلى حد أننا لم نستطع التحرك قبل بزوغ الفجر، أي بعد ثلاث أو أربع ساعات. تسرب الضوء إلى الداخل، ليس من خلال النافذة- التي بقيت سوداء – وإنما عبر فتحة مثلثة الشكل تقع بين عارضة وكومة من الطوب المكسور في الجدار خلفنا. وللمرة الأولى نرى الآن الجزء الداخلى من المطبخ بلون رمادى.
كانت النافذة قد تفجرت من جراء اندفاع كتلة من تربة الحديقة إلى الطاولة التي نجلس عليها ثم وقعت عند أقدامنا. كانت التربة في الخارج تتخذ شكل كومة مرتفعة أمام المنزل. وكان بمقدورنا أن نرى من الجزء العلوي لإطار النافذة أنبوب الصرف مقتلعًا من مكانه. تناثرت الأدوات المنزلية مهشمة فوق الأرضية، كما تعرضت نهاية المطبخ في اتجاه المنزل إلى اقتحام. ومن خلال إشراق ضوء النهار، اتضح لنا انهيار الجزء الأكبر من المنزل. وعلى النقيض الواضح من هذا الخراب، كانت خزانة المطبخ تقف بأناقة، مطلية باللون الأخضر الفاتح على أحدث طراز، ويوجد أسفلها عدد من الأواني المصنوعة من النحاس والقصدير، فضلًا عن ورق الحائط الشبيه بالبلاط الأزرق والأبيض، إلى جانب اثنين من المكملات الملونة التى ترفرف من الجدران فوق المطبخ.
مع زيادة ضوء الفجر، رأينا من خلال الفجوة الموجودة في الجدار جسد المريخي. وأعتقد أنه كان يقف لحراسة الأسطوانة التي لا تزال متوهجة. وعندئذ زحفنا بأقصى حذر ممكن من المطبخ الذى ينيره ضوء الشفق إلى حجرة غسل الأطباق التى يلفها الظلام.
وفجأة أضاء التفسير الصحيح ذهنى.
قلت هامسًا: «إنها الأسطوانة الخامسة؛ القذيفة الخامسة القادمة من المريخ أصابت هذا المنزل ودفنتنا تحت الأنقاض!».
ظل القسيس صامتًا لفترة، ثم همس قائلًا: «ليرحمنا الرب!».
أسمعه الآن يئن متذمرًا.
وباستثناء هذا الصوت، كان الصمت يخيم تمامًا على غرفة الغسيل؛ وأنا عن نفسي بالكاد ما تجرأت على التنفس، وجلستُ وعيناي مثبتتان على الضوء الخافت الصادر من باب المطبخ. لا يمكنني أن أرى سوى وجه القسيس، بيضاويًا شاحبًا، وياقته وأطراف أكمامه. بدأت تصدر من الخارج أصوات طرق معدني، ثم صراخ عنيف، ثم مرة أخرى -بعد فاصل زمني ساكن- هسهسة تشبه هسهسة المُحركات. استمرت هذه الضوضاء، الغريبة في معظمها، بشكل متقطع؛ وبدا كان شيء يزداد عددًا مع مرور الوقت. بدأ الآن، واستمر، ضجيج واهتزاز جعل كل شيء حولنا يرتعش، فضلًا عن رنين اصطدام الأوعية في الغرفة نتيجة اهتزازها. وما إن خبا الضوء، حتَّى أظلم مدخل المطبخ تمامًا. لا بد أننا بقينا جاثمين هناك لساعات طويلة، صامتين ومرتجفين، إلى أن فقدنا انتباهنا من شدة التعب....
استيقظت أخيرًا، وشعرت بجوع شديد. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأننا أمضينا الجزء الأكبر من اليوم نائمين قبل تلك الصحوة. اضطرني الجوع القارس إلى التحرك. أخبرت القسيس أنني سأخرج من الغرفة بحثًا عن الطعام، وتلمست طريقي نحو حجرة المؤن. لم يجب،

ولكني بمجرد أن بدأت في الأكل، أثارته الضوضاء الخافتة التي أحدثتها وسمعته يزحف خلفي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)
ما رأيناه من حطام المنزل

تسللنا مرة أخرى إلى غرفة الغسيل بعد تناول الطعام. ولا بد أنني غفوت ثانية هناك، إذ وجدتني بمفردي عندما نظرت حولي. استمر الاهتزاز الهادر بإصرار مرهق. همست مناديًا على القسيس عدة مرات، وفي النهاية تلمست طريقي إلى باب المطبخ. كان ضوء النهار لا يزال موجودًا، ورأيت القسيس على الجانب الآخر من الغرفة مستلقيًا في مواجهة الفتحة المثلثة التى تطل على المريخيين. كان كتفاه منحنيتان، بحيث لم أرَ رأسه.

سمعت عددًا من الأصوات يماثل تقريبًا تلك التي يمكن سماعها في سقيفة محرك؛ والمكان يهتز من جراء ذلك الهدير المستمر. وتمكنت من خلال الفتحة في الجدار أن أرى قمة شجرة ذات مسحة ذهبية اللون، فضلًا عن الأزرق الدافئ لسماء المساء الهادئة. ظللت أنظر إلى القسيس لمدة دقيقة أو نحو ذلك، ثم تقدمت جاثمًا وأنا وأخطو بعناية فائقة وسط الأواني الفخارية المكسورة التى تناثرت على الأرض.

لمست ساق القسيس، فنهض بعنف لدرجة أن كتلة من الجبس انزلقت وسقطت، مما أسفر عن صوت عالٍ. أمسكت بذراعه خشية أن يصرخ، وبقينا لفترة طويلة جاثمين بلا حراك. ثم استدرت لأرى ماذا تبقى من استحكامات المكان الذي يضمنا. ترك انفصال الجبس شقًّا عموديًّا مفتوحًا في الحطام. فرفعت نفسي بحذر باستخدام عارضة، مما مكنني أن أرى من هذه الفجوة ما كان بين عشية وضحاها طريق الضواحي الهادئ. يا لهذا التغيير الكبير الذى حدث.

لا بد أن الأسطوانة الخامسة سقطت في وسط أول منزل دخلناه. لقد اختفى المبنى، تحطم تمامًا، وسُحِق، وتناثر بفعل الاصطدام. تكمن الأسطوانة الآن أسفل الأساسات الأصلية، عميقًا داخل حفرة أكبر بكثير من الحفرة التي رأيتها في ووكينج. تناثرت التربة حولها نتيجة الاصطدام الهائل- «تناثرت» هي الكلمة الوحيدة التي تعبر عما حدث— وتكدست في أكوام تخفي كتل المنازل المجاورة. ما حدث لها يماثل تمامًا ما يحدث للطين تحت ضربات عنيفة لمطرقة. انهار الجزء الخلفي من المنزل الذي كنا فيه؛ بينما دُمِّر الجزء الأمامي كله، بما في ذلك الطابق الأرضي. ومن قبيل المصادفة أن نجا المطبخ وغرفة الغسيل، ودُفنا تحت الأرض والأنقاض، وأحاطت بهما أطنان من التراب من كل جانب ما عدا الجانب المواجه للأسطوانة. وعلى هذا النحو، أصبحنا عالقين الآن على حافة الحفرة الدائرية الكبيرة الذي يعمل المريخيون على صنعها. كان صوت الطرق الشديد واضحًا خلفنا مباشرة، وكان البخار الأخضر اللامع يتصاعد بين الفينة والأخرى كستار أمام الثقب الذي ننظر خلاله.

فُتِحت الأسطوانة بالفعل في وسط الحفرة. وعلى الحافة البعيدة من الحفرة، وسط الشجيرات المُحطَّمة والمكدسة بأكوام الحصى، وقفت إحدى آلات القتال الضخمة، وقد هجرها شاغلها، وقفت جامدة وطويلة القامة في مواجهة سماء المساء. لم ألحظ الحفرة والأسطوانة في البداية، على الرغم من أنه كان من الملائم وصفهما أولًا؛ نظرًا لتلك التقنية الآلية المتألقة غير العادية التي رأيتها مشغولة في الحفر، ونظرًا للمخلوقات الغريبة التي كانت تزحف ببطء ومشقة على الكومة المكدسة بالقرب منها.

أثارت تلك التقنية الآلية بالتأكيد انتباهي أولًا؛ إذ كانت واحدة من تلك الآلات المعقدة التي سميت منذ ذلك الحين آلات المناولة، وأعطت دراستها بالفعل زخمًا هائلًا للاختراعات على كوكب الأرض. وأول ما تبادر إلى ذهني أنها نوع من عنكبوت معدني بخمس أرجل مفصلية ورشيقة، وعدد غير عادي من الروافع والقضبان المفصلية، فضلًا عن مجسات ممتدة وقابضة حول جسمه. سحب معظم أذرعه، بينما استخدم ثلاثة مجسات طويلة

لاصطياد عدد من القضبان واللوحات والحواجز التي كانت تبطن غطاء الأسطوانة، كما تعزز على ما يبدو جدرانها. وبعد استخراج هذه الأشياء، ترفعها وتضعها فوق سطح مستوى من الأرض خلفها.

تميزت حركتها بالسرعة والتعقيد والإتقان لدرجة أنني لم أرها في البداية كآلة، على الرغم من بريقها المعدني. كانت آلات القتال منسقة وتتحرك بتناغم غير عادي، ولا يوجد ما يمكنني مقارنتها به. إن كل من لم يشهد هذه الهياكل، ولم يشهد سوى جهود سيئة الخيال لفنانين، أو أوصاف منقوصة لشهود عيان مثلى، بالكاد يدركون مدى جودة هذه الحيوية.

وأذكر بصفة خاصة الرسم التوضيحي الذي ورد في أحد الكتيبات الأولى التي تقدم سردًا متتابعًا للحرب. من الواضح أن الفنان اكتفى بدراسة متسرعة لإحدى آلات القتال، وعرضها كحوامل ثلاثية القوائم مائلة وصلبة، دون مرونة أو دقة، مما جعل تأثيرها الكلي يتسم برتابة مضلِّلة. وقد حقق الكتيب الذي يضم هذه التصورات رواجًا كبيرًا؛ وأذكر ذلك هنا لمجرد تحذير القارئ من الانطباع الذي ربما خلقته. فهذه الآلات لم تكن تشبه المريخيين الذين رأيتهم بأكثر من شبه الدمية الخشبية الهولندية بالإنسان. وفي رأيي، كان من الأفضل للكتيب أن يصدر من دون هذه الرسوم.

أقول إن آلة المناولة لم تعجبني في البداية كآلة، وإنما ككائن شبيه بالسرطان، ذي غطاء لامع، بينما بدا المريخي المسيطر الذي تتولى مجساته تحريك الآلة -يُعد ببساطة- جزءًا من مخ السرطان. على أنني أدركت بعد ذلك التشابه بين غطائها الجلدي اللامع بلونه البني-الرمادي وأغطية الأجسام الأخرى مترامية الأطراف خلفها، وبرز أمامي الطابع الحقيقي لهذا الصانع البارع. وبهذا الإدراك، تحول اهتمامي إلى تلك المخلوقات الأخرى؛ وأعني المريخيين الحقيقيين. كان لديَّ بالفعل انطباع عابر عنهم، ولم يعُد اشمئزازي الأول يشوش ملاحظاتي. علاوة على ذلك، كنت مختبئًا بلا حِراك، ولا توجد حاجة ملحة لاتخاذ أى إجراء.

لقد كانوا، كما أرى الآن، أغرب مخلوقات يمكن تصورها: أجسامهم ضخمة مستديرة- أو بالأحرى، رؤوس – يبلغ قطرها حوالي أربعة أقدام، ويوجد وجه في مقدمة الجسم. لم يضم هذا الوجه فتحات للأنف – يبدو، في واقع الأمر، أن المريخيين لا يتمتعون بحاسة الشم، بينما لدى كل منهم زوج من الأعين الكبيرة داكنة اللون، ويوجد تحتها مباشرة منقار لحمي من نوع ما. وخلف هذا الرأس أو الجسم - وبالكاد يمكنني أن أعرف كيف أتحدث عن ذلك - يوجد سطح مشدود يماثل طبلة الأذن، المعروف تشريحيًّا منذ ذلك الحين بأنه الأذن، مع أنه لا بد أن يكون عديم الفائدة تقريبًا في الهواء الكثيف على كوكب الأرض. وحول الفم، توجد مجموعة من ستة عشر مجسًّا نحيلًا، تشبه السياط، مرتبة في حزمتين تضم كل منها ثمانية مجسات. ومنذ ذلك الحين، أسماها البروفيسور هاوز -عالِم التشريح المتميز- تسمية مناسبة: الأيدي. بدا المريخيون، عندما رأيتهم للمرة الأولى، أنهم يسعون إلى رفع أنفسهم على هذه الأيادي؛ على أن هذا كان مستحيلًا بالطبع، نظرًا لزيادة الوزن في ظل ظروف كوكب الأرض. ويمكننا، بطبيعة الحال، الافتراض بأنهم يستطيعون استخدام تلك الأيادى فى السير على المريخ بسهولة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن التشريح الداخلي للمريخيين قد ظهر حينذاك بسيطًا أيضًا. كان الجزء الأكبر من البنية يتمثل في المخ، الذي تخرج منه أعصاب هائلة إلى العينين، والأذن، ومجسات اللمس. كما توجد رئتان ضخمتان، ينفتح عليهما الفم، والقلب وأوعيته. وقد تجلت بوضوح الضائقة الرئوية، الناجمة عن الغلاف الجوي الأكثر كثافة والجاذبية الأكبر، فى حركات الجلد الخارجى التشنجية.

كان ذلك هو مجمل الأجهزة التي يتكون منها جسم المريخي. وقد يبدو غريبًا بالنسبة لنا نحن البشر أن جهاز الهضم المعقد، الذي يشكل الجزء الأكبر من أجسامنا، ليس موجودًا عند المريخيين. كانوا رؤوسًا – مجرد رؤوس، وليس لديهم أحشاء. لا يأكلون، ناهيك عن الهضم. وإنما يأخذون دم المخلوقات الأخرى الحي الطازج، ويحقنونه في عروقهم. لقد رأيت ذلك بنفسي، وسوف أذكره في مكانه. بيد أنني سريع الغثيان، ولا أستطيع أن أجبر

نفسي على وصف ما لم أستطع تحمل حتى مواصلة مشاهدته. ويكفي القول إن الدم الذي يحصلون عليه من حيوانات حية، وفي معظم الحالات من البشر، كان يتجه مباشرة عن طريق ماصة صغيرة إلى قناة المُتلقى.

ما من شك في أن مجرد هذه الفكرة تثير اشمئزازنا، لكنني أعتقد في الوقت نفسه أننا يجب أن نتذكر كيف تبدو عاداتنا فى أكل اللحوم مثيرة لاشمئزاز أرنب ذكى.

لا يمكننا إنكار المزايا الفسيولوجية المرتبطة بممارسة عملية الحقن؛ إذا فكرنا في الهدر الهائل للوقت البشري والطاقة الناجمة عن تناول الطعام وعملية الهضم. تتكون نصف أجسامنا من غدد وأنابيب وأعضاء، تنشغل بتحويل مختلف أنواع الطعام إلى دم. إن عمليات الهضم، وردود فعلها على الجهاز العصبي، تستنزف قوانا وتشوه عقولنا. يشعر البشر بالسعادة أو التعاسة لأن لديهم أكبادًا صحية أو غير صحية، أو غددًا معوية سليمة. لكن المريخيين يرتقون فوق كل هذه التقلبات العضوية المرتبطة بالمِزاج والشعور.

إن تفضيلهم الذي لا يمكن إنكاره للبشر كمصدر لغذائهم يمكن تفسيره جزئيًا بطبيعة رفات الضحايا الذين أحضروهم معهم كمواد غذائية من المريخ. فبالحُكم على البقايا الذابلة التي سقطت في أيدي البشر، يمكن القول إنها بقايا لمخلوقات ذات قدمين، وهياكل عظمية واهية من السيليكون (تشبه تقريبًا تلك الموجودة في الإسفنج السيليكوني)، وعضلات ضعيفة، ويصل ارتفاعها إلى حوالي ستة أقدام، ولديها رؤوس مستديرة ومنتصبة، وأعين واسعة في محاجر صلبة. يبدو أن كل أسطوانة كانت تضم اثنين أو ثلاثة من هذه المخلوقات، وقتلوا جميعًا قبل وصولهم إلى كوكب الأرض. وهذا من حسن حظهم؛ لأن مجرد محاولة وقوفهم منتصبين على كوكبنا كان من شأنه أن يكسر كل عظمة في أجسامهم.

ونظرًا لأنني أتحدث عن هذه الأوصاف، أود أن أضيف هنا بعض التفاصيل الأخرى التي لم تكن واضحة لنا في ذلك الوقت، لكنها سوف تتيح للقارئ الذي لا يعرفهم تكوين صورة أوضح لتلك المخلوقات الهجومية.

تختلف طبيعتهم الفسيولوجية عنا في ثلاث نقاط أخرى. لا تعرف أجهزتهم العضوية النوم، مثلها مثل قلب الإنسان. ونظرًا لعدم وجود آلية عضلية واسعة للتعافي، لم يكن الانقراض الدوري معروفًا لهم. كما يبدو أن شعورهم بالتعب ضئيل أو معدوم. لم يكن بوسعهم التحرك على كوكب الأرض دون جهد، ومع ذلك واصلوا العمل حتى النهاية. ففي الأربع والعشرين ساعة اشتغلوا لمدة أربع وعشرين ساعة؛ ربما مثل حال النمل على كوكب الأرض.

وفي المقام التالي، الذي يبدو عجيبًا في عالم يقوم على الجنس، كان المريخيون بلا جنس على الإطلاق؛ وبالتالي لا يتمتعون بأي من الانفعالات والمشاعر التي تنشأ عن اختلاف الجنسين بين البشر. ما من خلاف الآن أن مريخيًا صغيرًا وُلِد بالفعل على كوكب الأرض خلال الحرب؛ فقد وُجِد ملتصقًا بأمه، متبرعمًا جزئيًا، تمامًا مثل براعم الزنبق الصغيرة، أو صغار الحيوانات فى المياه العذبة.

لقد اختفت هذه الطريقة في التكاثر عند البشر، بل وفي جميع الحيوانات العليا في كوكب الأرض؛ لكنها كانت بالتأكيد الطريقة البدائية حتى على كوكبنا. أما بين الحيوانات الدنيا- وصولًا حتى إلى أول أبناء عمومة الحيوانات الفقارية، بخاخات البحر (25) - فتحدث العمليتان جنبًا إلى جنب، لكن الطريقة الجنسية قد حلت في النهاية محل منافسيها تمامًا. على أن الوضع على المريخ كان معكوسًا، على ما يبدو.

وتجدر الإشارة إلى أن كاتبًا معينًا يشتهر بكتاباته التأملية شبه العلمية قبل الغزو المريخي بفترة طويلة، قد توقع أن تصل بنية البشر في النهاية إلى حالة لا تختلف عن حالة المريخيين الفعلية. ظهرت نبوءته، كما أذكر، في نوفمبر أو ديسمبر من عام 1893 في مجلة «بال مول بدجيت»، وهي مجلة أسبوعية قديمة توقف صدورها منذ زمن طويل، وأتذكر صورة كاريكاتورية لها في دورية كانت تصدر قبل الغزو المريخي بعنوان «بنش».

وقد أشار، بنبرة هزلية سخيفة، إلى أن كمال الأجهزة الميكانيكية يجب أن يحل في نهاية المطاف محل الأطراف؛ وكمال الأجهزة الكيميائية سيحل محل الهضم؛ وأن أعضاء مثل الشعر، والأنف الخارجي، والأسنان، والأذنين، والذقن، لن تصبح أجزاء أساسية لدى الإنسان؛ وأن ميل الانتقاء الطبيعي سوف يكمن في اتجاه ضمور هذه الأعضاء المطرد خلال العصور القادمة. وسوف يظل المخ وحده بمثابة ضرورة أساسية. وهناك جزء واحد آخر فقط من الجسم يمتلك سببًا قويًّا للبقاء وهو اليد، «معلم المخ وأداته». ففي حين يتضاءل باقي الجسم، سوف يزداد نمو الأيدى.

هناك العديد من الكلمات الحقيقية المكتوبة على سبيل الدعابة؛ ففي حالة المريخيين، ما من خلاف حول الإنجاز الفعلي الذي حققه الذكاء للقضاء على الجانب الحيواني من الكائن الحي. ومن جانبي، فإنني أرى أنه من المعقول إلى حد كبير أن المريخيين قد ينحدرون من كائنات لا تختلف عنا، وذلك من خلال التطور التدريجي للمخ واليدين (حيث تؤدي اليدين إلى ظهور مجموعتين من مجسات حساسة في النهاية) على حساب بقية الجسم. من دون الجسم، سوف يصبح المخ، بطبيعة الحال، مجرد ذكاء أناني، دون أي أساس شعوري للإنسان.

تكمن آخر نقطة اختلاف بارزة بين أنظمة هذه المخلوقات وأنظمتنا في ما يمكن أن يعتقد المرء أنه شيء تافه للغاية. فالكائنات الحية الدقيقة، التي تسبب الكثير من الأمراض والألم على كوكب الأرض، إما لم تظهر أبدًا على المريخ، وإمَّا أن العلوم الصحية المريخية قضت عليها منذ فترة طويلة. هناك المئات من الأمراض التي لم تدخل أبدًا في مخطط حياتهم- جميع أنواع الحمى والأمراض المعدية في الحياة البشرية، ومرض السل، والسرطان، والأورام، وما إلى ذلك من أمراض. وبالحديث عن الاختلافات بين الحياة على المريخ والحياة على كوكب الأرض، قد أشير هنا إلى تلك الأطروحات الغريبة عن العشب الأحمر.

على ما يبدو أن لون المملكة النباتية السائد في المريخ هو الأحمر الدموي الزاهي، وليس الأخضر. على أي حال، فإن البذور التي جلبها المريخيون معهم (عن قصد أو مصادفة) قد أدت في جميع الحالات إلى نماء أحمر اللون. بيد أن النبات المعروف شعبيًّا باسم العشب الأحمر هو فقط الذي اكتسب موضع قدم في المنافسة مع أشكال النباتات على كوكب الأرض. كان نمو الزاحف الأحمر عابرًا تمامًا، ولم يره سوى قلة من الناس. ومع ذلك، نما العشب الأحمر بحيوية ووفرة مذهلة لفترة من الوقت. فقد انتشر على جانبي الحفرة بحلول اليوم الثالث أو الرابع من حبسنا، وشكلت فروعه الشبيهة بالصبار حافة قرمزية على حواف نافذتنا المثلثة. وانتشر بعد ذلك في جميع أنحاء البلدة، لا سيما عند وجود مجرى مائى.

كان لدى المريخيين ما يبدو أنه جهاز سمعي، عبارة عن طبلة واحدة مستديرة في الجزء الخلفي من الجسم- الرأس؛ وأعين ذات نطاق بصري لا يختلف كثيرًا عن نطاقنا إلا أن اللونين الأزرق والبنفسجي، وفقًا لفيليبس، كانا بالنسبة لهم بمثابة اللون الأسود. ومن المفترض عمومًا أن المريخيين يتواصلون عن طريق الأصوات والإيماء بالمجسات. ويتأكد ذلك، على سبيل المثال، في الكتيب الجيد الذي جُمِع على عجل (من الواضح أن من كتبه لم يكن شاهد عيان على أفعال المريخيين)، وأشرت إليه بالفعل، وهو لا يزال حتى الآن المصدر الرئيس للمعلومات المتعلقة بهم. ولا يوجد الآن إنسان على قيد الحياة شاهد الكثير عن المريخيين وهم يعملون أكثر مما شاهدته. وأنا لا أنسب لنفسي ذلك بسبب حادث وقع لي، وإنما هذه هي الحقيقة. كما أؤكد أنني شاهدتهم عن كثب أكثر من مرة، ورأيت منهم أربعة، وخمسة، وستة (في إحدى المرات) يؤدون ببطء العمليات الأكثر تعقيدًا معًا دون صوت أو إيماءة. كانت صيحاتهم الغريبة تسبق دائمًا تناولهم غذاءهم؛ لم تتغير نبرة الصوت، وأعتقد أنها لم تكن إشارة بأي معنى، وإنما مجرد زفير للهواء استعدادًا لعملية مص الدماء. وأنا أزعم أن لديَّ معرفة أولية على الأقل بعلم النفس، وبهذا الصدد فإنني مقتنع -

بقدر اقتناعي القوي بأي شيء آخر- أن المريخيين كانوا يتبادلون الأفكار دون وسيط مادي. ولقد اقتنعت بهذا، على الرغم من الأفكار المسبقة القوية. فقبل الغزو المريخي، كما قد يتذكر قارئ هنا أو هناك، كنت قد كتبت ببعض الحماس ضد نظرية التخاطر.

لا يرتدي المريخيون أي ملابس. كانت مفاهيمهم عن الزينة واللياقة تختلف بالضرورة عن مفاهيمنا. لم يقتصر الأمر على عدم إدراكهم للتغيرات في درجة الحرارة بوضوح، وإنما يبدو أن التغييرات في الضغط لا تؤثر على صحتهم إطلاقًا. مع ذلك، وعلى الرغم من أنهم لا يرتدون أي ملابس، فقد كانت الإضافات الاصطناعية الأخرى لمواردهم الجسدية هي مكمن تفوقهم الكبير على الإنسان. إننا نحن البشر في بداية التطور الذي حققه المريخيون – رغم كل ما لدينا من دراجات وألواح تزلج على الطرق، وماكينات ليلينتال(26) للتحليق، وبنادقنا وعصينا، وما إلى ذلك. لقد أصبح المريخيون عمليًا مجرد عقول، يرتدون أجسامًا مختلفة وفقًا لاحتياجاتهم؛ تمامًا مثلما نرتدي نحن البشر ملابس مختلفة ونركب دراجة إذا كنا في عجلة من أمرنا، أو نستعين بمظلة في حالة سقوط الأمطار. أما عن أدواتهم، فربما أكثر ما يثير دهشتنا نحن البشر هو تلك الحقيقة الغريبة: أنهم لا يستخدمون العجلات، التي تُعد سمة سائدة في جميع الأجهزة البشرية تقريبًا. فمن بين كل الأشياء التي جلبوها إلى كوكبنا، لا يوجد أي أثر أو دلالة على استخدامهم للعجلات. كان المرء يتوقع استخدامهم للعجلات، على الأقل في الحركة. وفي هذا الصدد، من الغريب ملاحظة أنه حتى على كوكب الأرض، لم تقدم الطبيعة العجلة، أو تُفضل وسائل أخرى عليها. على أن الأمر لم يقتصر على معرفة المريخيين أو عدم معرفتهم (وهو أمر لا يصدق) بالعجلة، أو الإحجام عنها، بل قلّ على نحو فريد استخدامهم المحور الثابت أو المحور الثابت نسبيًا في أدواتهم وأجهزتهم، وقصر الحركات الدائرية على مستوى واحد. فجميع مفاصل الآلات تقريبًا تطرح نظامًا معقدًا من الأجزاء المنزلقة التي تتحرك على مواضع احتكاك صغيرة لكنها منحنية بشكل جميل. وعلى الرغم من هذه التفاصيل، من اللافت للنظر أن الروافع الطويلة في آلاتهم يجري تشغيلها في معظم الحالات عن طريق نوع من العضلات الوهمية لأقراص في غلاف مرن؛ حيث تصبح هذه الأقراص مستقطَبة ومتماسكة بشكل وثيق وقوي عندما يمر بها تيار من الكهرباء. ويتحقق بهذه الطريقة توازٍ غريب مع حركة الحيوان، وهو ما كان مدهشًا ومُربِكًا للمشاهد البشري. كانت مثل هذه العضلات الوهمية موجودة بوفرة في آلة المناولة التي تشبه سرطان البحر، وهو ما شاهدته عند أول اختلاس للنظر من الشق، عندما كانوا يفرغون الأسطوانة من محتوياتها. بدت الآلة أكثر حيوية بلا حدود من المريخيين الفعليين القابعين خلفها، في ضوء غروب الشمس، يلهثون ويهزون مجسات عقيمة، ويتحركون بضعف بعد رحلتهم الطويلة عبر الفضاء.

وبينما كنت لا أزال أشاهد حركاتهم البطيئة في ضوء الشمس، وألاحظ كل تفصيلة غريبة في أشكالهم، ذكرني القسيس بوجوده بأن جذب ذراعي بعنف. استدرت، ورأيت وجهه عابسًا وشفتيه تتحدثان بلغة الصمت. أراد أن ينظر خلال الشق، الذي لا يتيح إلا لواحد فقط بالتحديق. ولذا تخليت عن مشاهدتهم لبعض الوقت، بينما يستمتع هو بهذا الامتياز.

عندما نظرت خلال الشق مرة أخرى، كانت آلة المناولة التي تعمل بنشاط قد انتهت بالفعل من تجميع العديد من قطع الجهاز التي أخرجتها من الأسطوانة وأحالتها إلى شكل شبيه بها بوضوح. وعلى اليسار، ظهرت آلة حفر صغيرة تعمل بنشاط، تنبعث منها نفثات من البخار الأخضر، وتشق طريقها حول الحفرة، وتقوم بالحفر وتطويق المكان على نحو منهجي ومتميز. وكان هذا هو سبب ضوضاء الطرق المنتظمة، والاهتزازات الإيقاعية التي أدت إلى استمرار اهتزاز ملاذنا المُدَمَّر. كانت تطلق أصوات الزمر والصفير خلال عملها. وبقدر ما أمكننى أن أرى، كانت الآلة تعمل دون توجيه على الإطلاق من أى مريخى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)
أيام الحبس

اضطررنا بعد وصول آلة القتال الثانية إلى الانتقال من موقعنا أمام الشق إلى حجرة الغسيل؛ فقد خشينا أن يتمكن المريخي، نظرًا لارتفاعه، من أن يرانا خلف الحاجز إذا نظر لأسفل. وفي وقت لاحق، بدأ يقل شعورنا بالخطر من أعينهم؛ ذلك أن ملجأنا يبدو سوادًا حالكًا لأي عين في ضوء الشمس الساطع في الخارج، لكن أقل تصور لاقترابهم قادنا في البداية إلى التراجع بخوف نحو غرفة الغسيل. مع ذلك، ورغم الخطر الذي نتعرض له، لم يستطع كلانا مقاومة جاذبية اختلاس النظر إليهم. وأذكر الآن، بنوع من الاستغراب، أنه على الرغم من الخطر اللا نهائي الذي كنا نواجهه بين المجاعة والموت الأفظع، كنا قادرين على النزاع بمرارة من أجل الحصول على ميزة مشاهدتهم الرهيبة. كنا نتسابق عبر المطبخ بطريقة بشعة بين الشغف من ناحية والخوف من إثارة ضوضاء من ناحية أخرى، وكان كلانا يضرب الآخر، ويدفعه ويركله، على بعد بضع بوصات من الفتحة.

وفي الحقيقة، كانت تصرفاتنا وعاداتنا الفكرية والعملية مختلفة تمامًا، كما أن الخطر والعزلة فاقما من حدة الاختلاف. كرهت في هاليفورد دأب القسيس على التعجُّب العاجز، علاوة على جمود عقله. أبطلت تمتماته اللا نهائية كل جهد بذلته للتفكير في خطة عمل، وقادتني أحيانًا -عند شدتها وشعوري بالكبت- إلى حافة الجنون تقريبًا. كان يفتقر إلى ضبط النفس، مثل امرأة سخيفة. كان يبكي لساعات، وأعتقد أن هذا الطفل المدلل كان يعتقد حتى النهاية أن دموعه الضعيفة ستؤتي ثمارها بطريقة ما. كنت أجلس في الظلام غير قادر على إبعاد عقلي عنه بسبب إلحاحه. كان يأكل أكثر مني، وكثيرًا ما أشرت دون جدوى إلى أن فرصتنا الوحيدة للحياة تكمن في أن نظل داخل المنزل حتى ينتهي المريخيون من حفرتهم، وبالتالي قد يأتي وقت، خلال فترة الصبر الطويلة، نحتاج فيه إلى الطعام. كان يأكل ويشرب بتهور وجبات ثقيلة لفترات طويلة، وينام قليلًا.

وبمرور الأيام، أدى إهماله المطلق لأي اعتبار إلى تكثيف ضيقنا والخطر الذي أواجهه، لدرجة أنني كنت ألجأ أحيانًا –رغم كراهيتي لذلك- إلى تهديده، وفي النهاية ضربه. هذا جعله يتعقل أحيانًا، لكنه كان أحد تلك المخلوقات الضعيفة المجردة من الكبرياء، والجبانة، وذات أرواح بغيضة، مليئة بالمكر والمراوغة، غير القادرة على مواجهة الرب ولا الإنسان، ولا حتى أنفسهم.

لا يسعدني أن أتذكر هذه الأشياء وأكتبها، لكنني أفعل ذلك حتى أسرد قصتي كاملة دون نقصان. إن كل مَن نجا من الجوانب المظلمة والرهيبة لتلك الحياة، لن يجد غضاضة في إلقاء اللوم على وحشيتي واشتعال غضبي في مأساتنا الأخيرة؛ ذلك أنهم يعرفون ما الخطأ مثلهم مثل غيرهم، لكنهم لا يعرفون ما يمكن أن يحدث لمَن يتعرضون للتعذيب. أما مَن كانوا تحت الظل، وتعرضوا لتلك الأهوال، فسيكون تفهمهم أكبر.

بينما كنا في الداخل نتقاتل همسًا في الظلام القاتم، ونتخاطف الطعام والشراب، ونتبادل الضربات واللكمات، كانت تحدث في الخارج، تحت ضوء الشمس الحارقة في شهر يونيو الرهيب، أعاجيب غريبة؛ ويا له من روتين غريب يمارسه المريخيون في الحفرة. واسمحوا لي أن أعود إلى أول تجاربي الجديدة. غامرت بعد فترة طويلة بالعودة إلى فتحة الجدار، لأجد أن القادمين الجدد قد حصلوا على تعزيز بانضمام رُكّاب ما لا يقل عن ثلاثة من آلات القتال إليهم. وقد جلبوا معهم بعض المعدات الجديدة التي وقفت بطريقة منظمة حول الأسطوانة. اكتملت الآن آلة المناولة الثانية، وانشغلت في خدمة إحدى الابتكارات الآلية الجديدة التي أحضرتها الآلة الكبيرة. كانت عبارة عن جسم يشبه علبة الحليب في شكله العام، يتأرجح فوقه وعاء على شكل كمثرى ويتدفق منه تيار من مسحوق أبيض إلى

حوض دائرى أدناه.
انتقلت حركة التذبذب إلى الآلة عن طريق أحد مجسات آلة المناولة. كانت آلة المناولة تحفر بيدين منبسطتين، وتقذف كتل الطين في الوعاء كمثري الشكل في أعلى، بينما تستخدم ذراعًا أُخرى لفتح باب بشكل دوري وإزالة البقايا الصدئة والسوداء من الجزء الأوسط من الآلة. وقام مجس فولاذي بتوجيه المسحوق من الحوض إلى قناة مضلعة ومنها إلى جهاز استقبال أخفته عن نظري تلة من الغبار المزرق. تصاعد من جهاز الاستقبال غير المرئي خيط صغير من الدخان الأخضر عموديًا في الهواء الساكن. وعندما نظرت، مدت آلة المناولة –بصوت قعقعة موسيقية خافتة، وبطريقة على نمط التليسكوب- مجسًا كان قبل لحظة مجرد نتوء فظ، وظل يمتد إلى أن اختفت نهايته وراء كومة من الطين. ورفعت، في لحظة تالية، قضيبًا من الألومنيوم الأبيض، لم يفقد بريقه بعد ويلمع بشكل مبهر، ووضعته في كومة متزايدة من القضبان بجانب الحفرة. ولا بد أن هذه الآلة البارعة قد تمكنت، خلال الفترة الواقعة بين غروب الشمس وظهور ضوء النجوم، من صنع أكثر من مائة من هذه القضبان من الطين الخام. وارتفعت تلة من الغبار المزرق باطراد حتى علت جانب الحفرة.
كان التناقض حادًا بين الحركات السريعة والمعقدة لهذه الأجهزة المبتكرة والحركات الخرقاء الخاملة لأسيادهم، وبقيت لأيام أقول لنفسي مرارًا وتكرارًا إن تلك الكائنات البليدة هى فى الواقع مَن ينعم بالحياة.
كان القسيس هو مَن ينظر خلال الشق عندما أحضر المريخيون أول رجل إلى الحفرة. كنت أجلس في أسفل، جاثمًا، وكلي آذان مصغية. قام القسيس بحركة مفاجئة إلى الوراء، وأنا جاثم في حالة من الرعب، خشية أن يرانا المريخيون. جاء منزلقًا على الأنقاض وتسلل بجانبي في الظلام، عاجزًا عن الحديث اللفظي وإنما يتحدث بالإيماءات. تقاسمت ذعره للحظة. أشارت إيماءته إلى تخليه عن الشق. وبعد فترة قصيرة، منحني فضولي شجاعة؛ فنهضت، وتجاوزته، وتسلقت إلى الشق. لم أرَ بداية أي سبب لسلوكه المذعور. حل ضوء الشفق الآن، وكانت النجوم صغيرة وخافتة، لكن الحفرة كانت مضاءة بنار خضراء وامضة نتجت عن صُنع الألومنيوم. كانت الصورة بأكملها عبارة عن مخطط متوهج من ومضات خضراء وظلال سوداء واهنة متغيرة، تسبب إرهاقًا غريبًا للأعين. تكرر مرور الخفافيش، التي لم تنتبه إلى الومضات على الإطلاق. لم يعد ممكنًا رؤية المريخيين المنتشرين، فقد ارتفعت كومة المسحوق الأخضر المزرق وحجبت رؤيتهم. وقفت إحدى آلات القتال عند زاوية الحفرة، وسيقانها منكمشة ومنقبضة وقصيرة. وبعد ذلك، وسط صخب الآلات، انتابني شك أننى أسمع أصواتًا بشرية، أصخت السمع فى البداية فقط ثم رفضت الفكرة.
جثمت وأنا أراقب هذه الآلة القتالية عن كثب، وأقنع نفسي الآن للمرة الأولى أن القلنسوة تضم مريخيًا بالفعل. ومع تصاعد ألسنة اللهب الخضراء، تمكنت من رؤية اللمعان الزيتي لجلده وبريق عينيه. وفجأة سمعت صراخًا، ورأيت مجسًا طويلًا يمتد من فوق كتف الآلة إلى القفص الصغير الذي يوجد منحنيًا على ظهرها. ثم رأيت شيئًا يُرفع إلى أعلى– شيئًا يكافح بعنف– إنه شيء أسود، لغز غامض، يُرفع في ضوء النجوم. وعندما نزل هذا الشيء الأسود مرة أخرى، رأيت من خلال البريق الأخضر أنه رجل. رأيته بوضوح للحظة. كان رجلًا بدينًا متورد الوجه، في منتصف العمر، وحسن الملبس. لا بد أنه كان يسير في العالم، قبل ثلاثة أيام، كرجل يتمتع بمكانة كبيرة. رأيت عينيه المحدقتين، وومضات الضوء على أزرار ملابسه وسلسلة ساعته. اختفى خلف الكومة، وساد الصمت للحظة. ثم بدأ المريخيون فى صراخ وهتاف مستمر من البهجة.
انزلقت إلى أسفل كومة الأنقاض ووقفت، ثم سددت أذني بيدي وانسحبت إلى غرفة الغسيل. كان القسيس يجثم صامتًا وذراعاه فوق رأسه. نظر نحوي وأنا أسرع إلى غرفة الغسيل، وصرخ بصوت عال لتركى له، وجاء يركض خلفى.
في تلك الليلة، ونحن نختبئ في غرفة الغسيل، حاولت إجراء موازنة بين الرعب الذي

نشعر به وافتناننا الرهيب باختلاس النظر، على الرغم من أنني شعرت بحاجة ملحة للقيام بشيء وحاولت عبثًا وضع خطة للهروب. واستطعت بعد ذلك، خلال اليوم الثاني، تحديد موقعنا بوضوح شديد. وجدت القسيس غير قادر على المناقشة؛ فقد سلبته هذه الأهوال الجديدة التي بلغت ذروتها كل بقايا العقل أو التفكير. لقد انحدر عمليًا إلى مستوى الحيوان. لكنني، كما يقول المثل، امتلكت زمام نفسي. لقد تبادر إلى ذهني، عندما تمكنت من مواجهة الحقائق، أن موقفنا رغم فظاعته، لا يحمل حتى الآن أي مبرر لليأس المطلق. تكمن فرصتنا الرئيسة في احتمالية استخدام المريخيين للحفرة كمجرد معسكر مؤقت. أو حتى لو احتفظوا بها بشكل دائم، فربما يعتبرون أن حراستها ليست ضرورية، وبالتالي قد تتاح لنا فرصة للهروب. فكرت بعناية أيضًا في إمكانية أن نحفر مخرجًا لنا في اتجاه بعيد عن الحفرة، لكن فرصة رؤية أحد حراس آلة القتال لنا بدت كبيرة جدًّا في البداية. هذا بالإضافة إلى أننى يجب أن أتولى الحفر بمفردى؛ فالقسيس سيخذلنى بالتأكيد.

كان في اليوم الثالث، إن لم تخني الذاكرة، أن رأيت الفتى يُقتل. كانت المرة الوحيدة التي أرى فيها المريخيين يأكلون. وبعد تلك التجربة، تجنبت النظر خلال ثقب الجدار لفترة طويلة بعد ذلك اليوم. ذهبت إلى غرفة الغسيل، وأزلت الباب، وقضيت بضع ساعات في الحفر باستخدام بلطتي بهدوء شديد قدر الإمكان؛ وبعد أن حفرت حفرة بعمق بضعة أقدام، انهارت التربة المتداعية صاخبة، ولم أجرؤ على الاستمرار. خارت قواي، واستلقيت على أرضية الغرفة لفترة طويلة، فاقدًا لأي عزيمة حتى للتحرك. وبعد ذلك تخليت تمامًا عن فكرة الهروب عن طريق الحفر.

يوضح هذا الموقف الكثير عن الانطباع الذي تركه المريخيون عندي؛ حيث كان أملي ضعيفًا أو معدومًا بداية حول إمكانية هروبنا عن طريق الإطاحة بهم من خلال أي جهد بشرى. لكنى سمعت، فى الليلة الرابعة أو الخامسة، صوتًا يشبه دوى المدافع الثقيلة.

كان الوقت متأخرًا جدًّا في الليل، والقمر يضيء متألقًا. أبعد المريخيون آلة الحفر، وتركوا المكان باستثناء آلة قتال تقف في طرف الحفرة البعيد، وآلة المناولة التي ابتعدت عن بصري في زاوية من الحفرة تحت ثقب الجدار مباشرة. كانت الحفرة مظلمة تمامًا، باستثناء توهج شاحب من آلة المناولة والقضبان وبقع بيضاء من ضوء القمر. كما كان السكون يلف المكان، باستثناء قعقعة آلة المناولة. كان صفاء تلك الليلة جميلًا؛ وباستثناء كوكب واحد، بدا أن القمر يستأثر لنفسه بالسماء. سمعت عواء كلب، وجعلني هذا الصوت المألوف أنصت إليه. ثم سمعت دويًا واضحًا تمامًا، مثل صوت المدافع الكبيرة. أحصيت ستة انفجارات متميزة، ثم ستة انفجارات أخرى بعد فاصل زمني طويل. وكان هذا كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(4)
موت القسيس

اختلست النظر للمرة الأخيرة في اليوم السادس من محبسنا، ووجدت نفسي وحيدًا. لم يبقَ الكاهن بالقرب مني، ولم يحاول إبعادي عن الشق، بل عاد إلى غرفة الغسيل. تبادرت إلى ذهني فكرة مفاجئة. أسرعت بهدوء إلى غرفة الغسيل. وفي الظلام، سمعت القسيس يشرب. انتزعت ما كان يشربه فى الظلام، وأمسكت أصابعى بزجاجة من نبيذ البورجوندى.

تشاجرنا لبضع دقائق. وقعت الزجاجة على الأرض وتحطمت، فتوقفت وقمت. وقف كلانا لاهثًا ويهدد الآخر. وقفت في النهاية بينه وبين الطعام، وأخبرته عن تصميمي على بدء الانضباط. قسمت الطعام في المخزن إلى حصص تكفينا لعشرة أيام. لن أدعه يأكل أكثر من حصته كل يوم. بذل القسيس جهدًا ضعيفًا، في فترة ما بعد الظهيرة، ليصل إلى الطعام. كنت أغفو، لكني استيقظت في لحظة. جلسنا طوال النهار والليل وجهًا لوجه. كنت مرهقًا ولكن حازمًا، وهو يبكي ويشكو من الجوع. أعرف أنها كانت ليلة ويومًا، لكنها بدت بالنسبة لى –كما يبدو لى الآن- زمنًا لا نهاية له.

وهكذا انتهى أخيرًا عدم توافقنا المتزايد بصدام صريح. نشبت بيننا لمدة يومين كاملين نزاعات وصراعات بصوت منخفض. مرت علينا أوقات ضربته فيها وركلته بجنون، وأوقات أخرى أتملقه وأقنعه. حاولت مرة رشوته بآخر زجاجة بورجوندي؛ وذلك لوجود مضخة لمياه الأمطار يمكنني الحصول منها على الماء. ومع ذلك، لم تفلح معه القوة ولا اللين؛ إذ فقد الرجل عقله بالفعل. لم يكف عن هجماته على الطعام، ولا عن ثرثرته الصاخبة لنفسه. ولم يلتزم بالاحتياطات الأولية لإبقاء محبسنا مكانًا قابلًا للتحمُّل. بدأت أعي تدريجيًّا أنه فقد عقله تمامًا، وأدركت أن رفيقى الوحيد فى هذا الظلام البغيض كان رجلًا مجنونًا.

أميل إلى التفكير، نتيجة بعض الذكريات المبهمة، أنني كنت مشتت الذهن في بعض الأحيان. كانت تنتابني أحلام غريبة وبشعة عندما أنام. قد يبدو الأمر متناقضًا، لكنني أميل إلى الاعتقاد بأن ضعف القسيس وجنونه حذرني، وجعلني على أهبة الاستعداد، ومحافظًا على عقلى.

كف القسيس عن الهمس وبدأ يتحدث بصوت عالٍ في اليوم الثامن، وما من شيء يمكننى القيام به لخفض صوته.

كان يكرر دائمًا: «إنه العدل، يا إلهي! إنه العدل. العقاب ينزل عليَّ. لقد أخطأنا، وقصّرنا. كان هناك فقر وحزن؛ وكان الفقراء يُسحقون في التراب، وبقيت صامتًا. لقد بشرت بحماقة مقبولة – يا إلهي، أي حماقة! – عندما كان يجب أن أقاوم، رغم أنني مت من أجل ذلك، وأن أدعو إلى التوبة - التوبة! ... مضطهدو الفقراء والمحتاجين ...! معصرة غضب الرب!».

ثم عاد فجأة إلى مسألة الطعام الذي حجبته عنه؛ يصلي، ويتوسل، ويبكي، وفي النهاية يهدد. بدأ يرفع صوته، وتوسلت إليه ألا يفعل. تصور أنه وضع يده على مكمن ضعفي؛ فهددني أنه سيصرخ كي يأتي المريخيون إلينا. أشعرني ذلك بالخوف لفترة. لكن أي تنازل قد يقلل من فرصتنا في الهرب إلى حد يصعب تقديره. تحديته، على الرغم من أنني لم أكن أضمن أنه لن ينفذ تهديده. لكنه لم ينفذه في ذلك اليوم. تحدث بصوت يرتفع تدريجيًّا، خلال الجزء الأكبر من اليومين الثامن والتاسع – اختلطت التهديدات والتوسلات بسيل من توبة نصف عاقلة، وحديث دائم عن ندم سطحي على زيفه في خدمة الرب، مما جعلني أشفق عليه. بعدها نام لفترة، ثم بدأ مرة أخرى بقوة متجددة، وبصوت عالٍ إلى حد أنني كان لا بد أن أجعله يكف عن ذلك.

ناشدته: «ابق صامتًا!».

نهض على ركبتيه؛ إذ كان يجلس فى الظلام بالقرب من المرجل.

وقال بنبرة لا بد أنها وصلت إلى الحفرة: «بقيت صامتًا لفترة طويلة، ولا بد أن أدلي بشهادتي الآن. الويل لهذه المدينة الظالمة! الويل! الويل! الويل! الويل! إلى سكان الأرض، بسبب أصوات البوق الأخرى.....».

وقفت وقلت: «اخرس!». ثم أضفت مرتعبًا، خشية أن يسمعنا المريخيون: «باسم الرب...».

صاح القسيس بأعلى صوته: «كلا»، ووقف هو الآخر ومد ذراعيه. ثم أضاف: «تكلم! تحق عليَّ كلمة الرب!».

وصل إلى الباب المؤدى إلى المطبخ فى ثلاث خطوات.

- يجب أن أدلى بشهادتى! أنا ذاهب! لقد تأخرت كثيرًا.

رفعت يدي، وشعرت بساطور اللحم معلقًا على الحائط. تبعته على الفور، والخوف يثير أعصابي. تجاوزته قبل أن يصل إلى منتصف الطريق نحو المطبخ. وبلمسة إنسانية أخيرة، أدرت النصل وضربته بمؤخرة الساطور. مال نحو الأمام ثم سقط ممددًا على وجهه على الأرض. تعثرت فوقه ووقفت لاهثًا. رقد بلا حراك.

سمعت فجأة ضجيجًا في الخارج. تفتت وتحطم الجبس المنزلق، وأظلمت الفتحة الثلاثية الموجودة في الجدار. نظرت إلى أعلى، ورأيت السطح السفلي لآلة المناولة يقترب ببطء عبر الفتحة. التف طرفاها القابض وسط الحطام؛ ثم ظهر طرف آخر، وأخذ يتلمس طريقه فوق العوارض المتداعية. وقفت متحجرًا، أحدق. ثم رأيت من خلال لوح زجاجي ما بالقرب من حافة الجسم ما يمكن أن نسميه الوجه، وكذا أعين المريخي الداكنة الكبيرة محدقة، ثم مجس عبارة عن ثعبان معدنى طويل يتلمس طريقه ببطء خلال الفتحة.

استدرت بصعوبة، وتعثرت على القسيس، ثم توقفت عند باب غرفة الغسيل. كان المجس الآن في الغرفة بطريقة ما، على بعد ياردتين أو أكثر، يلتف ويتلوى بحركات مفاجئة غريبة، في هذا الاتجاه أو ذاك. وقفت لفترة مفتونًا بذلك التقدم البطيء المتقطع. ثم دفعت نفسي، بصرخة خافتة غليظة، عبر غرفة الغسيل. ارتجفت بشدة؛ وبالكاد تمكنت من الوقوف منتصبًا. فتحت باب قبو الفحم، ووقفت هناك في الظلام أحدق في المدخل المضاء إلى المطبخ، وأصخت السمع. هل شاهدنى المريخى؟ ماذا يفعل الآن؟

كان هناك شيء يتحرك جيئة وذهابًا بهدوء شديد؛ ينقر الجدار بين الحين والآخر، أو يبدأ حركاته برنين معدني خافت، مثل حركة حلقة المفاتيح. ثم رأيت جسمًا ثقيلًا -كنت أعرفه جيدًا- يُجَر على طول أرضية المطبخ نحو الفتحة. لم أستطع مقاومة فضولي. تسللت إلى الباب واختلست النظر داخل المطبخ. في مثلث من ضوء الشمس الخارجي الساطع، رأيت المريخي داخل قمة آلة التناول، يتفحص رأس القسيس. فكرت على الفور أنه سوف يستنتج وجودى من أثر الضربة التى وجهتها له.

تسللت مرة أخرى إلى قبو الفحم وأغلقت الباب، وبدأت في تغطية نفسي بقدر ما أستطيع، وبلا ضجيج بقدر الإمكان في الظلام، بين الحطب والفحم. كنت أتوقف جامدًا في مكاني، بين الحين والآخر، لأسمع وأعرف ما إذا كان المريخي قد دفع بمجساته خلال الفتحة مرة أخرى.

عاد الرنين المعدني الخافت؛ فتتبعته متحسسًا طريقي ببطء في المطبخ. أسمع الصوت أقرب الآن– في غرفة الغسيل، كما أظن. تصورت أن طوله قد لا يكفي ليصل إليَّ. صليت كثيرًا. مر ذلك الشيء، وأصدر احتكاكه بباب القبو صوتًا خافتًا. مرت فترة قلق لا يطاق؛ ثم سمعته يتحسس المزلاج! لقد وجد الباب! يفهم المريخيون الأبواب!

كان قلقًا، ربما لدقيقة، عندما أمسك بالمزلاج، ثم فتح الباب.

رأيته في الظلام – أشبه بجذع فيل، أكثر من أي شيء آخر - يلوح نحوي، ويلمس ويفحص الجدار، والفحم، والخشب، والسقف. كان مثل دودة سوداء تميل برأسها الأعمى جيئة وذهابًا.

لمس كعب حذائي مرة. كنت على وشك الصراخ، لكني عضضت يدي. ظل المجس صامتًا لفترة. تخيلت أنه انسحب. لكنه الآن، وبنقرة مفاجئة، أمسك بشيء ما– تصورت أنه أمسك بي! - وبدا أنه خرج ثانية من القبو. بقيت لدقيقة غير متأكد. يبدو أنه أمسك قطعة من الفحم ليفحصها.

انتهزت الفرصة لتغيير موقعي قليلًا، بعدما أصبح ضيقًا، ثم أخذت أنصت إليه. همست بدعاءٍ قلبى، طلبًا للسلامة.

ثم سمعت صوت الزحف البطيء المتأني في اتجاهي مرة أخرى. اقترب ببطء، يخدش الجدران وينقر على الأثاث.

وفي حين كانت شكوكي لا تزال قائمة، طرق على باب القبو بذكاء وأغلقه. سمعت حركته في اتجاه مخزن المؤن، وسمعت اهتزاز علب البسكويت وتحطُّم زجاجة، ثم ارتطامًا قويًا عند باب القبو، تلاه صمت استمر لفترة قلق بدت بلا نهاية.

هل خرج؟

قررت أخيرًا أنه خرج.

لم يعد يدخل إلى غرفة الغسيل؛ لكنني استلقيت طوال اليوم العاشر في ظلام دامس، مدفونًا بين الفحم والحطب، لا أجرؤ حتى على الزحف للحصول على الشراب الذي اشتهيته. لم يكن قبل اليوم الحادى عشر أن غامرت بالخروج من غرفة الغسيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(5)
السكون

كان أول عمل قمت به قبل أن أذهب إلى مخزن المؤن هو غلق الباب بين المطبخ وغرفة المؤن. على أن مخزن المؤن كان فارغًا، اختفت جميع بقايا الطعام. يبدو أن المريخي أخذ كل شيء في اليوم السابق. أشعرني هذا الاكتشاف باليأس لأول مرة. لم أتناول أي طعام أو شراب، سواء فى اليوم الحادى عشر أو الثانى عشر.

شعرت في البداية بجفاف فمي وحلقي، وضعفت قوتي بدرجة كبيرة. جلست في ظلام غرفة الغسيل، في حالة من البؤس اليائس. تركز تفكيري على الطعام. تصورت أنني أُصبت بالصمم؛ ذلك أن ضوضاء الحركة التي اعتدت على سماعها من الحفرة قد توقفت تمامًا. لم أشعر بقوة كافية للزحف إلى الفتحة بلا ضوضاء، وإلا لكنت ذهبت إلى هناك.

شعرت في اليوم الثاني عشر بألم شديد في حلقي لدرجة أنني –رغم احتمال إثارة قلق المريخيين- هاجمت مضخة مياه الأمطار، التي تصدر صريرًا وتقع بجانب الحوض، وتمكنت من الحصول على بعض أكواب من مياه الأمطار السوداء الملوثة. انتعشت إلى حد كبير، وتشجعت عندما أدركت أن المجسات لم تتبع الضجيج الناتج عن الضخ.

خلال تلك الأيام، فكرت كثيرًا -بطريقة مشوشة ومتقلبة- فى القسيس وطريقة موته.

في اليوم الثالث عشر، شربت المزيد من الماء، وغفوت، وراودتني أفكار مفككة عن الأكل وخطط مبهمة مستحيلة للهروب. وكنت كلما غفوت، أحلم بكوابيس رهيبة عن موت القسيس، أو عن عشاء فاخر. على أنني كنت أشعر، نائمًا أو مستيقظًا، بألم شديد دفعني إلى الشرب مرارًا وتكرارًا. لم يعد الضوء الذي جاء إلى غرفة الغسيل رماديًا، وإنما أحمر. وبدا لمخيلتى المضطربة أنه لون الدم.

ذهبت إلى المطبخ في اليوم الرابع عشر، وفوجئت عندما وجدت أوراق العشب الأحمر قد نمت ودخلت مباشرة عبر الفتحة الموجودة في الجدار، وحولت جزءًا من ضوء المكان إلى عتمة قرمزية اللون.

سمعت في وقت مبكر من اليوم الخامس عشر تسلسلًا غريبًا مألوفًا من الأصوات في المطبخ؛ فأصخت السمع، وتعرفت عليها كأصوات كلب يتشمم ويخدش. ذهبت إلى المطبخ، ورأيت أنف الكلب تطل من خلال شق يقع بين الأوراق الضاربة إلى الحمرة. فاجأني ذلك كثيرًا. وعندما شم الكلب رائحتى، نبح نباحًا قصيرًا.

تصورت أن بإمكاني تحفيزه على دخول المكان بهدوء، ربما لقتله وأكله؛ وعلى أي حال، من المستحسن قتله، خشية أن تجذب أفعاله انتباه المريخيين.

تسللت إلى الأمام قائلًا بهدوء شديد: «يا لك من كلب لطيف!»؛ لكنه سحب رأسه فجأة واختفى.

أرهفت السمع –لم أكن أصم– لكن الحفرة كانت بالتأكيد ساكنة. سمعت صوتًا يشبه رفرفة أجنحة الطيور، وصوت نعيق أجش. ولم أسمع أى شىء آخر.

بقيت لفترة طويلة راقدًا بالقرب من فتحة الجدار، دون أن أجرؤ على إبعاد النباتات الحمراء التي حجبت الفتحة. سمعت طقطقة خافتة، مرة أو مرتين، تشبه أقدام كلب يتجول فوق الرمال على مسافة بعيدة وعند مستوى أدنى من موقعي. كما سمعت المزيد من الأصوات الشبيهة بالطيور. وهذا كل شىء. وبعد فترة، شجعنى الصمت أن ألقى نظرة.

لم أرَ أي شيء حي في الحفرة، باستثناء ما رأيته في أحد أركانها من مجموعة من الغربان تتقافز وتتقاتل على الهياكل العظمية المتبقية من الموتى الذين أكلهم المريخيون.

نظرت محدقًا، ولم أصدق ما رأته عيناي. الآلات اختفت جميعها. كان المكان مجرد حفرة دائرية في الرمال، ولا تضم سوى كومة كبيرة من مسحوق أزرق- رمادي في إحدى أركانها،

وبعض قضبان من الألومنيوم في ركن آخر، فضلًا عن الطيور السوداء والهياكل العظمية للقتلى.

دفعت نفسي ببطء خلال العشب الأحمر، ووقفت فوق كومة من الأنقاض. كان بإمكاني الرؤية في جميع الاتجاهات، ما عدا اتجاه الشمال خلفي، ولم أرَ أي مريخي ولا حتى علامة على وجود المريخيين. انهارت الحفرة تمامًا من أقدامي، لكن طريقًا صغيرًا عبر الأنقاض منحنى منحدرًا يصل بى إلى قمة الأنقاض. لقد حانت فرصة هروبى؛ وبدأت أرتجف.

ترددت لبعض الوقت، ثم في فورة قرار يائس وقلب يخفق بعنف، تسلقت إلى أعلى الكومة التى بقيت مدفونًا فيها لفترة طويلة.

نظرت حولى ثانية، وفى اتجاه الشمال أيضًا. لم أشهد أى مريخى.

آخر مرة رأيت فيها هذا الجزء من بلدة شين في وضح النهار، كان شارعًا تتناثر فيه المنازل البيضاء والحمراء المريحة، التي تتخللها أشجار ظليلة وفيرة. بيد أنني أقف الآن فوق كومة من الطوب المحطم والطين والحصى، وتنتشر عليها العديد من النباتات الحمراء الشبيهة بالصبار، التي يصل ارتفاعها إلى ركبتي، دون أن ينازعها أي نبات آخر من نباتات كوكبنا. كانت الأشجار القريبة مني ميتة وبنية اللون، بينما توجد على مسافة أبعد شبكة من خيوط حمراء تكسو السيقان التى لا تزال حية.

تهدمت جميع المنازل المجاورة، لكنها لم تكن محروقة؛ بل وقفت جدرانها، وأحيانًا إلى الطابق الثاني، بنوافذ وأبواب مُحطَّمة. نما العشب الأحمر بغزارة في الغرف التي تهدم سقفها. كانت الحفرة الكبيرة تقع أسفلي، مملوءة بالغربان التي تتقاتل من أجل الفضلات. وتقافز عدد من الطيور الأخرى وسط الأنقاض. رأيت عن بعد قطة هزيلة تتسلل جاثمة على طول الجدار. ولم أرَ أى أثر لبشر.

وعلى عكس أيام محبسي، بدا اليوم مشرقًا بشكل مذهل، والسماء زرقاء متوهجة. وكان العشب الأحمر، الذي يغطي كل قطعة أرض غير مأهولة، يتمايل بلطف من جراء النسيم الرقيق. أوه! يا لحلاوة الهواء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(6)
نتائج عمل خمسة عشر يومًا

وقفت لفترة مترنحًا على الكومة، دون اهتمام بسلامتي. عندما كنت داخل ذلك الوكر المزعج، الذي خرجت منه، لم أكن أفكر سوى في أمننا المباشر. لم أكن أعرف ماذا يحدث للعالم، ولم أتوقع هذا المشهد المروع لتلك الأشياء غير المألوفة. كنت أتوقع رؤية شين في حالة خراب- وجدت حولى مشهدًا طبيعيًّا غريبًا ورهيبًا لكوكب آخر.

انتابتني في تلك اللحظة مشاعر تتجاوز النطاق المشترك بين البشر، لكنها مشاعر تعرفها جيدًا الحيوانات البائسة التي نهيمن عليها. شعرت بما يشعر به أرنب وهو عائد إلى جحره، وفجأة يواجه ما قامت به دزينة من عمال البناء الذين يحفرون أساس أحد المنازل. شعرت بشيء أصبح واضحًا في ذهني الآن، شيء أرهقني لعدة أيام، شعور بخلعي من عرشي، وبأنني لم أعد سيدًا، بل حيوانًا بين الحيوانات تحت أقدام المريخيين. سيكون حالنا مثل حال الحيوانات: أن نتخفى ونراقب، أن نجري ونختبئ؛ فقد انتهى الخوف من البشر وانتهت إمبراطوريتهم.

بيد أن هذه الغرابة انتهت بمجرد أن أدركتها، وأصبح دافعي المهيمن هو الجوع الناتج عن صيام طويل وكئيب. رأيت في الاتجاه البعيد عن الحفرة، وراء جدار مغطى باللون الأحمر، رقعة غير مدفونة من أرض حديقة. أعطاني هذا المشهد فكرة؛ تحركت خلال العشب الأحمر، الذي يصل ارتفاعه أحيانًا إلى ركبتي، وأحيانًا أخرى إلى رقبتي. منحتني كثافة العشب إحساسًا بالاطمئنان؛ لأنه حجبني عن الأنظار. كان ارتفاع السور يبلغ حوالي ستة أقدام. وعندما حاولت تسلقه، وجدت أنني غير قادر على رفع قدمي إلى قمته. ولذلك مشيت بجانبه حتى وصلت إلى ركن بجواره كومة من الصخور مكنتني من الوصول إلى أعلى السور، ثم الهبوط في الحديقة التي كنت أسعى إليها. وجدت هنا بعض حبات من البصل الصغير، وبصلتين لنبات الجلاديولاس، وكمية من الجزر غير الناضج. أخذتها جميعًا وتسلقت سورًا منهارًا، ثم واصلت طريقي خلال الأشجار الحمراء والقرمزية في اتجاه بلدة كيو- كان الأمر أشبه بالمشي على طول طريق من قطرات الدم العملاقة – ووردت في ذهني فكرتان: الحصول على المزيد من الطعام، والابتعاد -بأسرع ما يمكن، وبقدر ما تسمح قوتي- من هذه المنطقة الغريبة اللعينة المحيطة بالحفرة.

وفي مكان عشبي أبعد، وجدت مجموعة من فطر عيش الغراب والتهمته أيضًا، ثم عثرت على جدول بني اللون من المياه الضحلة المتدفقة، كان سابقًا موقعًا للمروج. أثارت قطع الطعام الصغيرة تلك شهيتي. فوجئت بداية بهذا الفيضان في صيف حار وجاف، على أنني اكتشفت بعد ذلك أنه راجع إلى الوفرة الاستوائية للعشب الأحمر. فبمجرد أن يلتقي هذا النمو العشبي الاستثنائي بالماء، يصبح عملاقًا ويتمتع بخصوبة لا مثيل لها. تنسكب بذوره ببساطة إلى مياه نهري واي والتيمز، وسرعان ما تسد أوراقها المائية العملاقة سريعة النمو هذين النهرين.

في بوتني، كما رأيت بعد ذلك، يكاد الجسر أن يضيع بين تلك الكتلة المتشابكة من الأعشاب. وفي ريتشموند أيضًا، تدفقت مياه نهر التيمز في مجرى واسع وضحل عبر مروج هامبتون وتويكنهام. كانت الأعشاب تتبع انتشار المياه، إلى أن ضاعت لفترة فيلات وادي التيمز المُدَمَّرة في هذا المستنقع الأحمر، الذي استكشفت حدوده، وأخفى الكثير من الخراب الذى سببه المريخيون.

بيد أن العشب الأحمر مات في النهاية، بنفس سرعة انتشاره. فقد أُصيب بداء تقرح النبات، الذي من المعتقد أنه يرجع إلى نوع من البكتيريا. لقد اكتسبت الآن جميع نباتات كوكب الأرض، من خلال الانتقاء الطبيعي، قوة مقاومة ضد الأمراض البكتيرية– فنباتات

كوكبنا لا تستسلم أبدًا دون مقاومة شديدة، لكن الأعشاب الحمراء تعفنت مثل شيء ميت بالفعل. ابيضت أوراقها، ثم ذبلت وجفت، وكانت تنكسر عند أقل لمسة. والمياه التي حفزت نموها في وقت مبكر، حملت بقاياها الأخيرة إلى البحر.

وبطبيعة الحال، كان أول ما قمت به عندما وصلت إلى الماء هو أن أروي عطشي. شربت كمية كبيرة من الماء، وحثني دافع أن أقضم بعض أوراق الأعشاب الحمراء؛ لكنها كانت رطبة، ومذاقها رديئًا ومقززًا. وجدت المياه ضحلة بما يكفي لأخوض فيها بأمان، على الرغم من أن الأعشاب الحمراء أعاقت قدمي قليلًا؛ لكن الواضح أن الجدول كان يزداد عمقًا في اتجاه النهر، ولذا عدت إلى مورتليك. تمكنت من شق طريقي خلال الأنقاض المتناثرة للفيلات والأسوار والمصابيح، وخرجت الآن من طوفان الأحداث ووجدت طريقي إلى التل في اتجاه روهامبتون، ووصلت إلى الأرض المشاع عند بوتني.

هنا تغير المشهد من غريب وغير مألوف إلى حطام مألوف: كشفت قطع من الأرض عن الدمار الذي أحدثه الإعصار. ووجدت بعد بضع ياردات قليلة مساحات ظلت كما هي تمامًا دون تغيير، ومنازل بستائرها الأنيقة وأبوابها المغلقة، كأن أصحابها تركوها قبل يوم واحد، أو كأن سكانها ينامون في الداخل. كانت الأعشاب الحمراء أقل غزارة، كما خلت الأشجار العالية على طول الممر من الزاحف الأحمر. بحثت عن الطعام بين الأشجار، ولم أجد شيئًا. كما داهمت منزلين صامتين، لكنهما كانا قد تعرضا للاقتحام والنهب بالفعل من قبل. استرحت لبقية النهار وسط الشجيرات، حيث كنت في حالة من الضعف والإرهاق لا تساعدني على الاستمرار.

لم أرَ أي إنسان طوال هذا الوقت، كما لم أرَ أي علامة على المريخيين. صادفت كلبين يدل مظهرهما على أنهما جائعان، لكنهما أسرعا في طريق ملتوٍ بعيدًا عن طريقي. بالقرب من رويهامبتون، رأيت هيكلين عظميين بشريين – ليسا جسدين، بل هيكلين عظميين نُزع عنهما اللحم – كما وجدت في الغابة القريبة مني عظامًا مسحوقة ومتناثرة لعدة قطط وأرانب، فضلًا عن جمجمة خروف. وعلى الرغم من أنني قضمت بعض أجزائها، لم أحصل على أي شيء.

وبعد غروب الشمس، كافحت على طول الطريق المؤدي إلى بوتني، حيث اعتقدت أن المريخيين لا بد أنهم استخدموا الشعاع الحراري هناك لسبب ما. تمكنت من الحصول على قدر من البطاطس في الحديقة التي تقع وراء روهامبتون، لم تكن ناضجة، لكنها كافية لسد جوعي. ومن هذه الحديقة، نظرت في اتجاه بوتني والنهر. بدا المكان في الغسق مقفرًا على نحو فريد: أشجار مسودة، وأطلال مقفرة سوداء، ومساحات عشبية مشوبة بالحُمرة من النهر الذي غمرته المياه عند سفح التل. وفوق كل شيء– يرين الصمت. ملأني رعبًا لا يوصف وأنا أفكر في مدى سرعة حصول هذا التغيير المدمِّر.

تصورت لفترة أن البشرية لم يعد لها وجود، وأنني أقف هناك بمفردي كآخر رجل باقٍ في قيد الحياة. وجدت هيكلًا عظميًا آخر عند قمة بوتني هيل؛ ذراعاه مخلوعتان، وملقتان على بعد عدة ياردات من بقية الجسم. ومع مواصلة طريقي، أصبحت أكثر اقتناعًا بأن هذا الجزء من العالم قد شهد إبادة الجنس البشري، باستثناء عدد من الأفراد المعزولين مثلي. وتصورت أن المريخيين قد غادروا، بعد أن تركوا البلد خرابًا، بحثًا عن الطعام في مكان آخر. ربما يدمرون الآن برلين أو باريس، أو ربما ذهبوا شمالًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(7)

الرجل الذى قابلته على تل بوتنى

قضيت تلك الليلة في نُزُل يقع على قمة تل بوتني، أنام في سرير مرتب لأول مرة منذ رحلتي إلى ليذرهيد. ما من داعٍ أن أحكي عن المتاعب التي تعرضت لها لاقتحام ذلك المنزل –ثم وجدت الباب الأمامي غير موصد- ولا كيف فتشت كل غرفة بحثًا عن الطعام؛ وعندما كنت على وشك اليأس، وجدت في ما بدا غرفة نوم الخادم، كسرة خبز سبق أن قضمها فأر وعلبتين من الأناناس. لقد سبق تفتيش المكان بالفعل وإفراغه من الطعام. وجدت بعد ذلك في البار بعض البسكويت والسندويتشات التي تغافل عنها مَن سبقني في تفتيش المكان. لم أستطع تناول السندويتشات لعفونتها، بينما البسكويت سد جوعي وكذا ملأت به جيوبي. لم أشعل أي مصباح، خشية أن يأتي بعض المريخيين إلى ذلك الجزء من لندن بحثًا عن الطعام في الليل. ذهبت إلى الفراش، لكني بقيت لفترة قلِقًا. أخذت أتجول من نافذة إلى أخرى، في محاولة لرؤية بعض علامات على هذه الوحوش. نمت قليلًا. استلقيت على السرير، ووجدتني أفكر بشكل متتابع دونما انقطاع – وهو شيء لا أتذكر أنني فعلته منذ آخر جدال لي مع القسيس. كانت حالتي العقلية طوال الوقت عبارة عن تعاقب سريع من حالات انفعالية مبهمة أو نوع من التقبل الغبي. لكني استعدت وضوح عقلي ثانية مع حلول الليل، ربما بعد أن أكلت ونمت، وبدأت أفكر.

استحوذت على ذهني ثلاث أفكار متصارعة: قتل القسيس، ومكان وجود المريخيين، ومصير زوجتي المُحتَمَل. لم يُشعرني تَذَكُّر قتل القسيس بأي إحساس بالرعب أو الندم؛ فقد اعتبرته ببساطة شيئًا حدث وانتهى، وذكرى بغيضة بلا حدود وإن كانت دون ندم. رأيت نفسي حينها، كما أراها الآن، مدفوعة خطوة خطوة نحو تلك الضربة الطائشة، التي نتجت عن سلسلة من الحوادث التي تؤدي حتمًا إلى ذلك. لم أشعر بأي إدانة، إلا أن تذكرها الدائم يطاردني. في صمت الليل، ومع الشعور بقرب الرب، الذي ينتابني أحيانًا في السكون والظلام، حاكمت نفسي، المحاكمة الوحيدة، عن لحظة الغضب والخوف تلك. استرجعت كل لحظة في محادثاتنا منذ اللحظة التي وجدته فيها جاثمًا بجانبي، دون اكتراث بعطشي، ويشير إلى النار والدخان المتدفقين من أنقاض ويبريدج. عجزنا عن التعاون- مصادفة مشؤومة لم تأخذ ذلك في الاعتبار. لو توقعت، لكنت تركته في هاليفورد. لكني لم أتوقع؛ والجريمة هي أن تتوقع وتتصرف. وأنا أكتب ذلك، بمثل ما أكتب تلك القصة برمتها كما حدثت. لم يكن هناك شهود – وكان بإمكاني أن أخفي ذلك كله. لكنني أكتبه، وعلى القارئ أن يحدد حُكمه كما يريد.

بذلت جهدًا لأتمكن من إبعاد صورة ذلك الجسم المنبطح أرضًا، ثم بدأت أواجه مشكلة المريخيين ومصير زوجتي. لم تكن لديَّ أي أخبار عن المريخيين؛ وكان يمكنني أن أتخيل مائة شيء. ويصدق الشيء نفسه، للأسف، على مصير زوجتي. وفجأة أصبحت تلك الليلة فظيعة. وجدتني جالسًا على السرير، أحدق في الظلام، وأصلي أن يكون الشعاع الحراري قد أصابها وأودى بحياتها فجأة ومن دون ألم. لم أكن قد صليت منذ ليلة عودتي من ليذرهيد. كنت سابقًا أتفوه بالصلوات، صلوات التقديس الأعمى، كنت أصلي مثلما يتمتم الهمجيون بتعويذات، عندما أشعر أنني في خطر عظيم. أما الآن، فقد صليت متضرعًا بثبات وتعقل، وجهًا لوجه مع الرب وسط هذا الظلام. يا لها من ليلة غريبة! وأغرب ما فيها أنني بمجرد بزوغ الفجر- أنا، الذي كنت أتحدث مع الرب- تسللت من المنزل مثل جرذ يغادر مخبأه: مثل مخلوق بالكاد أكبر من الجرذ، حيوان أدنى، شيء قد يجري اصطياده وقتله بسبب نزوة عابرة لأسياده. ربما كانوا يصلون هم أيضًا للرب في ثقة. إذا تعلمنا من هذه الحرب شيئًا، فهو بالتأكيد الشفقة– الشفقة على تلك الأرواح المسكينة التي تعاني من

هيمنتنا.
كان الصباح مشرقًا وجميلًا، وتوهجت السماء الشرقية باللون الوردي، كما تألقت بغيوم ذهبية صغيرة. وفي الطريق الممتد من قمة تل بوتني إلى ويمبلدون، رأيت عددًا من الآثار البائسة الباقية التي تدل على تدفق سيل من المذعورين الذين لا بد أنهم كانوا يتوجهون إلى لندن في ليلة الأحد بعد بدء القتال. رأيت أيضًا عربة صغيرة ذات عجلتين، محفور عليها ما يلي: توماس لوب، بائع الخضر، نيو مالدن. كانت إحدى عجلتيها محطمة، وبها صندوق مُهمل من الصفيح، فضلًا عن قبعة من القش مغروسة في الطين الذي أصبح متيبسًا. أما على قمة وست هيل، فقد تناثر العديد من الزجاج المخضب بالدماء حول حوض المياه المقلوب. تحركت وأنا فاتر الهمة وخططي ملتبسة. كانت فكرتي أن أذهب إلى ليذرهيد، على الرغم من معرفتي أن فرص العثور على زوجتي ضئيلة. فمن المؤكد أنها فرت مع أبناء عمومتي، إلا إذا كان الموت فاجأهم. لكني أعتقد أنني قد أجد أو أعرف، عند ذهابي هناك، المكان الذي هرب إليه سكان سووري. كنت أعرف أنني أود العثور على زوجتي، وأنني أتوق لها ولعالم البشر، لكني لا أمتلك فكرة واضحة عن كيفية تحقيق ذلك. أصبحت على دراية كاملة بوحدتي الشديدة. اتخذت طريقي من الزاوية، تحت غطاء غابة الأشجار والشجيرات، إلى حافة مرجة ويمبلدون التي تمتد باتساع إلى مسافات بعيدة.
كانت مساحات من نبات الجولق(27) الأصفر تضيء ذلك الامتداد المظلم، ولم أرَ أي عشب أحمر. وبينما كنت أتجول مترددًا على حدود الأرض العراء، أشرقت الشمس وغمرت كل شيء بالضوء والحيوية. وصلت إلى مستنقع بين الأشجار، يتجمع عنده سرب من الضفادع الصغيرة. توقفت لأنظر إليهم، مستخلصًا درسًا من عزمهم الوطيد على العيش. راودني شعور غريب بأنني مراقَب، فاستدرت فجأة ولمحت شيئًا رابضًا وسط مجموعة من الشجيرات. وقفت أتطلع إليه، ثم تقدمت خطوة نحوه. نهض، فوجدته رجلًا مسلحًا بسيف قصير. اقتربت منه ببطء. وقف صامتًا بلا حراك، ينظر نحوي.
عندما اقتربت منه، أدركت أنه يرتدي ملابس متربة وقذرة مثل ملابسي. كان مظهره يبدو كأن هناك مَن قام بجره عبر قناة صرف. ومع زيادة اقترابي، تعرفت على وحل المصارف الأخضر المختلط بالطين الرمادي الجاف والبقع الفحمية اللامعة. كان شعره الأسود يسقط على عينيه، وكان وجهه داكنًا ومتسخًا وغائرًا حتى أنني لم أتعرف عليه في البداية. كما رأيت جرحًا أحمر عبر الجزء السفلي من وجهه.
وعندما أصبحت على مسافة عشر ياردات منه صاح: «توقف!»، فتوقفت. ثم قال بصوت أجش: «من أين أتيت؟».
فكرت، وأنا أتفحصه.
وقلت: «لقد جئت من مورتليك. كنت مدفونًا بالقرب من الحفرة التي صنعها المريخيون حول أسطوانتهم. وقد نجحت في شق طريقي، وخرجت، ثم هربت».
قال: «لا يوجد طعام هنا. هذه بلدتي. يهبط هذا التل إلى النهر، ويتجه خلفًا إلى كلافام، وإلى أعلى نحو حافة الأرض المشاع. لا يوجد طعام إلا لشخص واحد. إلى أي طريق ستذهب؟».
أجبت ببطء.
قلت: «لا أعرف. بقيت مدفونًا تحت أنقاض منزل لمدة ثلاثة عشر أو أربعة عشر يومًا. ولا أعرف ماذا حدث».
نظر نحوي متشككًا، ثم بدأت تعبيرات وجهه تتغير.
قلت: «ليست لديَّ أي رغبة في التوقف هنا. يجب أن أذهب إلى ليذرهيد، حيث توجد زوجتي».
أشار نحوي بإصبعه.
وقال: «إنه أنت. أنت الرجل من ووكينج، ولم تُقتَل في ويبريدج؟».
تعرفت عليه في اللحظة نفسها.

- وأنت جندى المدفعية الذى جاء إلى حديقتى.

قال: «يا لحسن الحظ! كلانا محظوظ! يا للغرابة!»، مد يده، فصافحته. قال: «لقد زحفت داخل أحد المصارف إلى أن تمكنت من الخروج»، ثم أضاف: «لكنهم لم يقتلوا كل شخص. وبعد ابتعادهم، توجهت إلى والتون خلال الحقول. ولكن ... لم يمر ستة عشر يومًا... وأصبح شعرك رماديًا». نظر فوق كتفه فجأة، وقال: «مجرد غراب. يعرف المرء أن للطيور ظلالًا في هذه الأيام. المكان مكشوف هنا، دعنا نتسلل إلى تلك الشجيرات ونجلس تحتها لنتحدث».

قلت: «هل رأيت أيًا من المريخيين؟ منذ أن زحفت إلى الخارج من ...».

قال: «لقد ابتعدوا، ذهبوا إلى جميع أنحاء لندن. أعتقد أن لديهم معسكرًا أكبر هناك. في إحدى الليالي، توهجت السماء في كل مكان بأضوائهم، على طريق هامستيد. بدت كمدينة عظيمة، وكان يمكنك أن تراهم في ظل الوهج وهم يتحركون؛ بينما لا يمكنك رؤيتهم في ضوء النهار. وإنما عن قرب ... لم أرهم ... لخمسة أيام» (كان يحسب على أصابعه). «ثم رأيت اثنين على طريق هامرسميث، يحملان شيئًا كبيرًا. وفي الليلة قبل الماضية» – توقف، ثم تحدث بشكل مؤثر - «لم يكن هناك سوى أضواء، وإنما كان هناك شيء في الهواء. أعتقد أنهم بنوا آلة تطير، ويتعلمون الطيران».

توقفت، مستندًا إلى يدى وركبتى؛ لأننا قد وصلنا إلى الشجيرات.

- الطيران!

قال: «نعم، الطيران».

ذهبت إلى تعريشة صغيرة، وجلست.

قلت: «لقد انتهت البشرية. إذا تمكنوا من ذلك، فسوف يطوفون ببساطة حول العالم».

أومأ برأسه.

- سيفعلون. ولكن... سوف تخف وطأة الأمور هنا قليلًا. وإلى جانب ذلك ...». نظر نحوى قائلًا: «ألست راضيًا أنها نهاية البشرية؟ أنا راضٍ. لقد سقطنا؛ لقد هزمونا.

نظرت محدقًا. قد يبدو غريبًا، إلا أنني لم أصل إلى هذه الحقيقة– حقيقة ظهرت واضحة تمامًا بمجرد أن قالها. كان لا يزال لديَّ أمل غامض؛ فهذه بالأحرى هي عادتي في التفكير دائمًا. كرر كلماته «لقد هزمونا»، وكانت تحمل اقتناعًا مطلقًا.

قال: «لقد انتهى الأمر. لم يفقدوا سوى آلة واحدة – آلة واحدة فقط. وثبتوا أقدامهم جيدًا، وأصابوا أعظم قوة في العالم بالشلل. لقد ساروا فوقنا. كانت نهاية تلك الآلة في ويبريدج مجرد حادثة. هذه الآلات جاءت كرواد فقط، ثم استمر غيرهم في المجيء. هذه النجوم الخضراء- لم أر أيًا منها طوال الأيام الخمسة أو الستة الماضية، لكني على يقين أنها تسقط فى مكان ما كل ليلة. ليس هناك ما يمكننا القيام به. لقد سقطنا! لقد هزمونا!».

لم أجب، بل جلست محدقًا فى محاولة لابتكار بعض الأفكار البديلة، ولكن دون جدوى.

قال جندي المدفعية: «هذه ليست حربًا. لم تكن حربًا أبدًا، ليست أكثر من الحرب بين الإنسان والنمل».

تذكرت فجأة تلك الليلة فى المرصد.

- لقد كفوا عن إطلاق النار بعد الطلقة العاشرة- على الأقل، حتى جاءت الأسطوانة الأولى.

سألني جندي المدفعية: «كيف عرفت؟». شرحت له، فأخذ يفكر في الأمر ثم قال: «عطب ما أصاب مدفعهم. وماذا في ذلك؟ سيتولون إصلاحه. وحتى إن حدث تأخير، كيف يمكن أن يغير ذلك من النهاية؟ فالأمر لا يشبه سوى المواجهة بين البشر والنمل. يبني النمل مدنه، ويعيش حياته، ويحارب، ويثور، إلى أن يرغب البشر في إبعادهم خارج الطريق، فيخرجون من الطريق. هذا ما نحن عليه الآن... مجرد نمل. فقط...».

قلت: «نعم».

- نحن نمل صالح للأكل.

جلسنا ينظر كل منا إلى الآخر.
قلت: «وماذا سيفعلون بنا؟».
قال: «هذا ما أفكر فيه، هذا ما أفكر فيه. لقد توجهت جنوبًا بعد وبريدج، وفكرت كثيرًا. رأيت ما حدث، وكان معظم الناس قساة؛ ينتحبون ويثيرون الهياج فيما بينهم. لكنني لست مولعًا بالنحيب. فقد رأيت الموت مرة أو مرتين. أنا جندي بحق، وأواجه الموت في أفضل الحوال وأسوأها- مجرد الموت. ومَن يواصل التفكير يمكنه أن ينجو. رأيت الجميع يتجهون نحو الجنوب. فقلت: 'لن يدوم الطعام بهذه الطريقة'، ثم استدرت للخلف. ذهبت إلى المريخيين كما يذهب عصفور إلى رجل». لوح بيده نحو الأفق وقال: «إنهم يتضورون جوعًا فى جماعات، ويتدافعون، ويدوسون بأقدامهم على بعضهم...».
توقف مرتبكًا عندما شاهد تعبيرات وجهى.
وأضاف: «لا شك أن الكثيرين ممن يملكون أموالًا قد رحلوا إلى فرنسا». بدا مترددًا في الاعتذار. التقت عينانا، ثم واصل حديثه: «الطعام متوفر هنا. المعلبات في المتاجر؛ وهناك النبيذ، والمشروبات الروحية، والمياه المعدنية؛ لكن شبكات المياه والمصارف فارغة. حسنًا، كنتُ أخبرك بما أفكر فيه. قلت لنفسي: 'إنهم كائنات ذكية، ويبدو أنهم يريدوننا كطعام لهم. أولًا، سيسحقوننا- السفن، والآلات، والمدافع، والمدن، وكل ما لدينا من ترتيب وتنظيم. سينتهي ذلك كله. لو كنا بحجم النمل، ربما ننجو. لكننا لسنا بحجم النمل. كما أن أحجامهم شديدة الضخامة بحيث يتعذر إيقافهم. هذه هى الحقيقة الأولى'. أليس كذلك؟».
وافقته.
- هذا هو الوضع؛ كما تصورته. حسنًا، ثم ماذا- بعد ذلك؛ ينالون منا عندما يريدون، كما يحدث الآن. لا يحتاج المريخى إلا للتحرك بضعة أميال ليصل إلى حشد من الهاربين. لقد رأيت أحدهم ذات يوم، بالقرب من واندسورث، يحطم المنازل إلى أشلاء ويتنقل بين الحطام. لكنهم لن يواصلوا ذلك. بل بمجرد الانتهاء من تدمير جميع مدافعنا وسفننا، وتحطيم السكك الحديدية، فضلًا عن الانتهاء من كل ما يفعلونه هناك، سيبدأون في تنظيم عملية الإمساك بنا، واختيار أفضلنا، وتخزيننا في أقفاص أو ما شابه. هذا ما سيبدأون القيام به قريبًا. يا إلهى! إنهم لم يبدأوا بعد. ألا ترى ذلك؟
صحت: «لم يبدأوا!».
- لم يبدأوا. كل ما حدث حتى الآن قد حدث نتيجة عدم إحساسنا بضرورة الحفاظ على الهدوء —أزعجناهم بمدافعنا وغيرها من حماقات مماثلة. لقد فقدنا عقولنا، وأسرعنا متوجهين في حشود إلى أماكن ليست أكثر أمانًا من الأماكن التي كنا فيها. إنهم لا يريدون إزعاجنا بعد؛ بل يقومون بصنع أشيائهم- صنع جميع الأشياء التي لم يمكنهم إحضارها معهم، ويجهزون المكان ليلائم بقية شعبهم. ومن المحتمل أن هذا هو السبب في توقف وصول الأسطوانات لفترة، خشية إصابة الموجودين منهم هنا. وبدلًا من اندفاعنا الأعمى مولِّين، أو إعداد الديناميت حتى تتسنى لنا فرصة لضربهم، علينا أن نعد أنفسنا للتكيف مع هذا الوضع الجديد. هكذا استوعبت الوضع. لا يتعلق الأمر بما يريده الإنسان لجنسه، وإنما بما تشير إليه الحقائق. وهذا هو المبدأ الذي تصرفت بناء عليه. المدن، الأمم، الحضارة، التقدم - لقد انتهى كل شىء. انتهت تلك اللعبة. لقد هزمونا.
- ولكن، اذا كان الأمر كذلك، ماذا تبقى لنعيش من أجله؟
تطلع نحوى جندى المدفعية للحظة.
- لن توجد حفلات موسيقية لمليون سنة أو نحو ذلك؛ ولن توجد أي أكاديمية ملكية للفنون، ولا مأكولات لطيفة في المطاعم. إذا كنت تبحث عن التسلية، فأعتقد أن اللعبة قد انتهت. وإذا كنت تتبع آداب حفلات الاستقبال، أو تكره تناول البازلاء بالسكين، أو إسقاط حرف الهاء من الكلمات، فمن الأفضل أن تتخلص من تلك السلوكيات؛ فلن يعود لها استخدام.
- أنت تعنى...

- أعني أن البشر أمثالي سوف يعيشون ... من أجل التناسل. أقول لك إنني سوف أحيا. وإن لم أكن مخطئًا، فإنك سوف تُظهِر قريبًا ما بداخلك أيضًا. لن يبيدونا. ولا أقصد أنهم سيلقون القبض علينا، ويقومون بترويضنا وتسميننا وتربيتنا مثل ثور هادر. أف! ما أعجب تلك الزواحف البُنية!

- أنت لا تقصد أن تقول...

- بل أقصد. سوف أعيش تحت أقدامهم. لقد فكرت وخططت بالفعل. لقد هزمونا نحن البشر، وهناك الكثير الذي لا نعرفه. يجب أن نتعلم قبل أن تتاح لنا فرصة. وعلينا أن نعيش ونحافظ على استقلالنا ونحن نتعلم. أترى! هذا ما يجب علينا القيام به.

حدقت فى ذهول، وتأثرت بكلامه وقراره.

صحت: «يا إلهى! لكنك على حق بالفعل!»، وأمسكت بيده فجأة.

قال وعيناه مشرقتان: «هه! لقد تدبرت الأمر بعد تفكير، ما رأيك؟».

أجبته: «واصل كلامك».

قال، بنوع من الرضى المشوب بالكآبة: «حسنًا. على مَن يريدون الإفلات من قبضتهم أن يستعدوا. وأنا أستعد الآن. ضع في اعتبارك أننا لا نصلح جميعًا طعامًا للمتوحشين، وهذا ما سيحدث. ولهذا كنت أتفحصك. كنت متشككًا؛ أنت نحيل. لم أكن أعرف أنه أنت، كما ترى، أو كيف تم دفنك. هناك الكثيرون الذين لن يصلحوا لهم -مثل نوع الناس الذين عاشوا في هذه المنازل، وكل الموظفين الصغار الذين يعيشون بهذه الطريقة- لن يكونوا صالحين. فهم بلا شخصية – ليس لديهم أحلام أو شهوات يفتخرون بها. والإنسان الذي يفتقر لأي منهما... يا إلهي! أليس سوى جبان وحذِر؟ اعتاد هؤلاء مجرد الإسراع إلى العمل... رأيت المئات منهم يحملون إفطارهم في أيديهم ويركضون مندفعين للحاق بقطارات التذاكر الموسمية، خشية التأخير وبالتالي الطرد من العمل. وهم يعملون في مشاريع يخشون تحمل عناء فهمها. ثم يركضون باندفاع مرة أخرى خشية عدم الوصول إلى منازلهم في الوقت المناسب لتناول العشاء، لكنهم يبقون داخل بيوتهم بعد العشاء خوفًا من الشوارع الخلفية. ويناممون مع الزوجات اللاتي تزوجوا بهن؛ ليس رغبة في الزواج منهن، وإنما لأن لديهم القليل من المال الذي يمكن أن يحقق لهم الأمان في سعيهم البائس في العالم. يقومون بالتأمين على الحياة ويستثمرون قليلًا، خوفًا من الحوادث. وفي أيام الأحد... يخشون الآخرة؛ كأن الجحيم مُشيد للأرانب! حسنًا، سيكون المريخيون هبة من السماء لهؤلاء الناس. سيمنحهم المريخيون أقفاصًا فسيحة لطيفة، وطعامًا لتسمينهم، وتناسلًا حريصًا، ولا قلق. وبعد أسبوع أو أكثر من مطاردتهم في الحقول والأراضي وهم جوعى، سوف يأتون ويرحبون بالقبض عليهم. سيشعرون بالسعادة لفترة ما. وسيتساءلون بتعجب عما كان يفعله الناس قبل أن يهتم بهم المريخيون. ويمكنني أن أتخيل أيضًا... متسكعي الحانات، والمتأنقين، والمغنين. سيسود بينهم قدر فضفاض من المشاعر والدين. هناك مئات الأشياء التي رأيتها بعيني، ولم تبدأ تتضح بجلاء أمامي إلا في الأيام القليلة الماضية. سيتقبل الكثيرون الأمور كما هي... بدناء وأغبياء؛ وسيقلق الكثيرون من الشعور بأن كل شيء خاطئ، وأن عليهم القيام بشيء. والآن، كلما أدت الأمور إلى شعور الكثيرين بأن عليهم القيام بشيء، فإن الضعفاء ومن يضعفهم كثرة التفكير المعقد، سيلجأون دومًا إلى نوع من التدين لا يحقق أي شيء، متدينون ومتفوقون للغاية، ويخضعون للاضطهاد وإرادة الرب. من المرجح أنك رأيت شيئًا مماثلًا. إنها الطاقة في نوبة من الجُبن، وتحولت إلى طاقة نظيفة بعد أن انطلقت من الداخل إلى الخارج. كما ستمتلئ هذه الأقفاص بالمزامير، والتراتيل، والتقوى. أما من يتسمون بشخصيات أبسط، فسوف يعملون في... ما هي... الإثارة الجنسية».

توقف قليلًا، ثم واصل حديثه.

- من المرجح أن يعتبر المريخيون بعض هؤلاء البشر حيوانات أليفة، ويدربونهم على القيام بالحيل... مَن يدري؟ ربما يشعرون بعاطفة تجاه الصبي الذي يعتبرونه حيوانًا أليفًا،

وقد كبر ولا بد من قتله. وربما يُدربون بعضهم على اصطيادنا.

صحت: «كلا، هذا مستحيل! لا يوجد إنسان...».

قال جندي المدفعية: «ما فائدة الاستمرار في هذه الأكاذيب؟ هناك بشر يفعلون ذلك بسرور. ما هذا الهراء والتظاهر أنه لا يحدث!».

استسلمت لوجهة نظره.

قال: «إذا طاردونى. يا إلهى، ماذا لو طاردونى!»، وصمت فى تأمل متجهم.

جلست أفكر في هذه الأشياء. لم أجد شيئًا أعارض به منطقه. في الأيام التي سبقت الغزو، لم يكن أحد ليشكك في تفوقي الفكري عليه... فأنا كاتب معروف ومتخصص في المواضيع الفلسفية، وهو جندى عادى؛ ومع ذلك فقد صاغ بالفعل موقفًا ما كنت لأدركه.

قلت: «ماذا تفعل؟ ما الخطط التى أعددتها؟».

تردد.

ثم قال: «حسنًا، هذه هي المسألة، ماذا علينا أن نفعل؟ علينا أن نخترع نوعًا من الحياة، يمكن للبشر العيش والتكاثر فيها، وأن يشعروا بأمان كافٍ لتربية الأطفال. نعم... انتظر قليلًا، وسوف أوضح الأمر أكثر حول ما أعتقد أن علينا القيام به. مَن سيروضونه من البشر سوف يواصل حياته مثل جميع الحيوانات المرَوضة؛ وبعد أجيال قليلة، سوف يصبح كل منهم كبيرًا، وجميلًا، وغنيًا بالدماء، وغبيًا... نفايات! ويكمن الخطر في أننا الذين نبقى جامحين دون ترويض... سوف نتوحش... ننحدر إلى نوع من الفئران الكبيرة المتوحشة... أرأيت كيف أعني أن أعيش تحت الأرض. كنت أفكر في مصارف المياه. ومن لا يعرفون المصارف سيفكرون، بطبيعة الحال، في أشياء رهيبة. يوجد أسفل لندن أميال وأميال- مئات الأميال- من المصارف، وسقوط الأمطار لبضعة أيام مع خلو لندن سوف يترك المصارف نقية ونظيفة. والمصارف الرئيسية كبيرة بما يكفي ومليئة بهواء كاف لأي شخص. هناك أيضًا أقبية، وسراديب، ومخازن، يمكن من خلالها إنشاء ممرات تتفرع إلى المصارف. هذا غير أنفاق السكك الحديدية. ما رأيك؟ هل بدأت ترى الصورة؟ وسوف نشكل فرقة– رجال أصحاء، أنقياء العقل. لن نضم معنا أي نفايات من الضعفاء، الذين قد يظهرون ثانية».

- هل تعنى أننى معكم؟

- حسنًا، أنا أناقش، أليس كذلك؟

- لن نتشاجر حول ذلك. هيا، واصل حديثك.

- من يتوقفون عن إطاعة الأوامر. نريد أيضًا نساء قويات بدنيًا ومتفتحات ذهنيًا– أمهات ومعلمات. ولا نريد سيدات واهنات، أو ذوات أعين ذابلة. لا نريد أي ضعيف أو أحمق. سوف تعود الحياة الحقيقية؛ ولا بد أن يموت كل مَن هو عديم الفائدة، وبطيء، ومؤذٍ. لا بد أن يموتوا، ولا بد أن يكونوا على استعداد للموت؛ ذلك أن العيش وتدنيس العِرق هو نوع من عدم الولاء. ولا يمكن أن يكونوا سعداء. علاوة على ذلك، فإن الموت ليس شيئًا مروعًا؛ بل الجُبن هو ما يجعله يبدو مروعًا. وسوف نجتمع في كل تلك الأماكن. ستكون لندن بمثابة منطقتنا، وقد نتمكن حتى من المراقبة، بل والركض في العراء عندما يبتعد المريخيون. ربما نلعب الكريكيت. وهكذا يمكننا إنقاذ جنسنا البشري. أليس كذلك؟ أهو شيء محتمل؟ لكن إنقاذ الجنس البشري ليس شيئًا في حد ذاته. فكما قلت، هذا يجعلنا مجرد فئران. المطلوب هو إنقاذ معرفتنا والإضافة إليها. وهنا يأتي رجال مثلك. هناك كتب، ونماذج. يجب أن نقوم بإعداد أماكن آمنة كبيرة على مسافات عميقة، ونحصل على كل ما يمكننا من كتب – لا أعني الروايات والشعر، وإنما الأفكار والكتب العلمية. وهنا يأتي دور رجال مثلك. يجب أن نذهب إلى المتحف البريطاني ونختار كل تلك الكتب. لا بد أن نحافظ على علومنا– وأن نتعلم المزيد. ويجب أن نراقب هؤلاء المريخيين، لا بد أن يعمل بعضنا كجواسيس. وعندما ينجح كل شيء، ربما أقوم بذلك؛ أعني أن يقبضوا عليَّ. وأهم شيء أن نترك المريخيين وشأنهم. علينا حتى ألا نسرق. إذا وجدناهم في طريقنا،

علينا أن نبتعد. لا بد أن نُظهِر لهم أننا لا نقصد أي ضرر. نعم، أعرف. لكنهم كائنات ذكية، ولن يطاردونا إذا كان لديهم كل ما يريدون، ويعتقدون أننا مجرد حشرات غير مؤذية.

توقف جندى المدفعية، ووضع يده المتسخة على ذراعى.

- وقبل كل شيء، قد لا نضطر إلى تعلُّم الكثير قبل... تخيل فقط ما يلي: أن تبدأ فجأة أربع أو خمس من آلات القتال التابعة لهم في إطلاق الشعاع الحراري يمينًا ويسارًا، دون وجود مريخي داخلها، وإنما رجال- رجال تعلموا قيادتها. قد يحدث هذا حتى وأنا ما زلت حيًّا. تخيل وجود الرجال داخل هذه الآلات الرائعة، يتحكمون في الشعاع الحراري على نطاق واسع وبحرية! تخيل السيطرة على تلك الآلات! ماذا يهم إذا تحطمت في النهاية إلى قطع صغيرة، بعد هجمة مثل هذه؟ أعتقد أن المريخيين سيفتحون أعينهم الجميلة! ألا يمكنك رؤيتهم يا رجل؟ ألا يمكنك رؤيتهم يتحركون في عجالة وسرعة– يلهثون ويبحثون عن آلاتهم الميكانيكية الأخرى؟ ويجدون عطلًا في كل منها، ثم تسمع أصوات هسهسة، وفرقعة، وحشرجة، وهسهسة! كأنما يتعثرون، ويصدر حفيف الشعاع الحراري... انظر! ها قد استعاد الإنسان هيمنته.

سيطرت على ذهني لفترة جرأة جندي المدفعية وخياله الواسع، ونبرة الثقة والشجاعة التي كان يتحدث بها. صدقت دون تردد توقعاته لمصير البشر وإمكانية تطبيق مخططه المدهش. وعلى القارئ الذي يعتقد أنني سريع التأثر وأحمق أن يقارن موقفه وأفكاره حول الموضوع وهو يقرأ بهدوء، وأفكاري وأنا رابض بخوف أستمع وسط الشجيرات، والقلق يشتت تفكيري. تحدثنا في الصباح الباكر، وتسللنا في وقت لاحق من وسط الشجيرات. وبعد أن تفحصنا السماء بحثًا عن المريخيين، أسرعنا إلى المنزل القائم على تل بوتني حيث اتخذ فيه الجندي عرينه، وكان قبو الفحم في المنزل. وعندما رأيت العمل الذي أمضى أسبوعًا يقوم به– وكان جحرًا يبلغ طوله بالكاد عشر ياردات، وصممه للوصول إلى المصرف الرئيس في تل بوتني – كما كان أول معرفة لي بالفجوة بين أحلامه وقواه. بإمكاني حفر هذه الحفرة في يوم واحد؛ لكن اقتناعي به كان يكفي لأعمل معه في الحفر طوال ذلك الصباح وحتى منتصف النهار. كانت لدينا عربة يد، مثل تلك التي تُستخدم في الحدائق، وكنا نلقي مخلفات الحفر أمام المطبخ. أنعشنا أنفسنا بإحدى معلبات الحساء وزجاجة نبيذ من المخزن المجاور. أشعرني هذا العمل المتواصل بالراحة في مواجهة غرابة العالم المؤلمة. وخلال العمل، كنت أفكر في مشروعه؛ وبدأت تبرز أمامي جوانب الاعتراض والشك. لكنني واصلت العمل طوال الصباح، وأسعدني للغاية أن أجد لنفسي هدفًا مرة أخرى. وبعد ساعة من العمل، بدأت أتكهن المسافة التي يجب قطعها قبل الوصول إلى البالوعة، فضلًا عن احتمالات عدم الوصول إليها على الإطلاق. كانت مشكلتي المباشرة هي لماذا علينا أن نحفر هذا النفق الطويل، بينما يمكن الدخول إلى المصرف مباشرة من إحدى غرف التفتيش السفلية، والعودة ثانية إلى المنزل. بدا لي أيضًا أن اختيار المنزل ليس موفقًا، ويتطلب نفقًا طويلًا بلا داعٍ. وما إن بدأت التفكير في هذه الأشياء، حتى توقف جندى المدفعية عن الحفر، ونظر نحوى.

وقال: «إننا نعمل بشكل جيد». وضع مجرفته على الأرض، وأضاف: «دعنا نتوقف قليلًا. أعتقد حان الوقت لنستكشف سطح المنزل».

كنت مع مواصلة العمل، وبعد قليل من التردد أمسك مجرفته ليستأنف العمل. وفجأة راودتنى فكرة، فتوقفت، وتوقف هو أيضًا فى الحال.

سألته: «لماذا كنت تتجول فى الأرض المشاع بدلًا من أن تكون هنا؟».

قال: «أستنشق بعض الهواء. كنت عائدًا؛ فالمكان أكثر أمانًا فى الليل».

- وماذا عن العمل؟

قال: «أوه، لا يمكن للمرء أن يعمل دائمًا»، وعلى الفور أدركت حقيقة الرجل. تردد، وأمسك بمجرفته، ثم قال: «علينا أن نبدأ الاستكشاف الآن؛ لأنه إذا اقترب أحد، فقد يسمع صوت المجارف وينقض علينا دون أن ننتبه».

لم أكن ميالًا للاعتراض. ذهبنا إلى السطح، ووقفنا على سلم نختلس النظر من باب السطح. لم نرَ أى مريخى؛ فغامرنا بالخروج إلى السطح، واحتمينا بالسور.
من هذا الموضع، أخفت مجموعة من الشجيرات الجزء الأكبر من بوتني. لكننا استطعنا رؤية النهر أدناه، الذي بدا ككتلة فقاعية من الأعشاب الحمراء، كما رأينا الأجزاء المنخفضة من لامبث مغمورة بالمياه والعشب الأحمر. احتشد الزاحف الأحمر فوق الأشجار حول القصر القديم، وامتدت أغصانه هزيلة وميتة، وأوراقه ذابلة وسط العناقيد. من الغريب اعتماد انتشار هذه الأشياء كليًا على تدفق المياه. لم يكتسب أي منها موطئ قدم حولنا؛ حيث تنمو الحياة النباتية -أشجار القصّاص (28)، والذرة الوردي، والعشب أبيض الزهر، وشجرة الحياة– وتبرز في أكاليل الغار بعظمة، خضراء ورائعة في ضوء الشمس. أما وراء كنسينجتون، فقد تصاعد دخان كثيف، حجب هو والضباب الأزرق التلال شمالًا.
بدأ جندى المدفعية يخبرنى عن نوع الناس الذين لا يزالون فى لندن.
قال: «حدث ذات ليلة في الأسبوع الماضي أن قام بعض الحمقى بتشغيل الضوء الكهربائي بحيث أصبح شارع ريجنت كله والسيرك مضاءين؛ وازدحما بالسكارى الذين يرتدون ملابس رثة ويلونون وجوههم، رجالًا ونساء، يرقصون ويصرخون حتى الفجر. أخبرني بذلك رجل كان هناك. ومع حلول النهار، أدركوا أن إحدى آلات القتال تقف بالقرب من لانجام، وتنظر إلى أسفل نحوهم. لا يعرف أحد منذ متى تقف هذه الآلة هناك. الرب وحده يعرف منذ متى تقف هذه الآلة. لا بد أن وجودها أثار شعورًا سيئًا لدى بعضهم. اقتربت الآلة منهم، والتقطت حوالى مائة شخص فى حالة سكر أو خوف من الهرب».
يا لها من لحظة بشعة، لن يقدر أى تاريخ على وصفها بالكامل!
من هنا، وردًا على أسئلتي، انتقل جندي المدفعية ثانية إلى خططه العظيمة. امتلأ حماسًا، وتحدث بطلاقة عن إمكانية الاستيلاء على إحدى آلات القتال، لدرجة أنني صدقته ثانية. لكنني الآن كنت بدأت أفهم بعض صفاته، وتخيلت الضغط الذي يمارسه من أجل عدم القيام بأي شيء على عجل. ولم أعد متشككًا في أنه شخصيًا سوف يستولي على إحدى الآلات ويقاتل الآلة الكبيرة.
ذهبنا بعد فترة إلى القبو. لم يكن أيٌّ منا مستعدًا لاستئناف الحفر؛ ولم أعترض عندما اقترح أن نتناول وجبة. أصبح فجأة شديد الكرم؛ فبعد أن انتهينا من طعامنا، تركني للحظات ثم عاد ومعه بعض السيجار الفاخر. أشعلنا السيجار، وزاد شعوره بالتفاؤل. كان يعتبر مجيئى مناسبة عظيمة.
قال: «توجد شمبانيا فى القبو».
قلت: «يمكننا أن نحفر أفضل بعد شرب نبيذ البورجوندى بجانب نهر التيمز».
قال: «لا، أنا المضيف اليوم. شمبانيا! يا لعظمة الرب! أمامنا مهمة ثقيلة! دعنا نسترح قليلًا، ثم نستجمع قوانا. انظر إلى هذه الأيدى التى تقرحت!».
وعملًا بفكرة الاستراحة، أصر على لعب الورق بعد أن أكلنا. علّمني لعبة «اليوكر». وبعد تقسيم لندن بيننا، أخذت شمالها وأخذ هو جنوبها، ولعبنا. ربما يبدو الأمر بشعًا وحماقة للقارئ الرزين، وهذا صحيح تماما، على أن الأغرب أنني وجدت لعبة الورق والألعاب العديدة الأخرى التى لعبناها شيقة للغاية.
يا لغرابة عقل الإنسان! ففي ظل وجود جنسنا البشري على حافة الإبادة أو التدهور المروع، ومع عدم وجود احتمال واضح أمامنا إلا احتمال الموت الرهيب، كان يمكننا الجلوس أمام هذا اللوح الملون لنلعب «الجوكر» ببهجة حقيقية. علمني بعد ذلك لعبة «البوكر»، كما فزت عليه في ثلاث مباريات شطرنج صعبة. وعندما حل الظلام، قررنا المجازفة، وأضأنا مصباحًا.
بعد سلسلة طويلة من الألعاب، تناولنا العشاء، وأنهى جندي المدفعية زجاجة الشمبانيا. دخنا السيجار. لم يعُد الرجل النشط الذي قابلته في الصباح وقال إنه سينقذ الجنس البشري. كان لا يزال متفائلًا، لكن تفاؤله كان أقل حركة وأكثر تفكيرًا. أذكُر أن حديثه انتهى

بالكلام عن صحتي، وضم مقترحات صغيرة ومتنوعة بين فترات من التوقف. أخذت سيجارًا، وصعدت إلى الطابق العلوي لأرى الأضواء التي قال إنها لمعت باللون الأخضر على طول تلال هايجيت.

نظرت في البداية بسطحية عبر وادي لندن. كان الظلام يكتنف التلال الشمالية، والحرائق القريبة من كنسينجتون تتوهج باحمرار. ويومض بين الفينة والأخرى لسان برتقالي-أحمر من اللهب، ثم يتلاشى في أعماق زرقة الليل. اتشح باقي لندن بالسواد. رأيت على مقربة ضوءًا غريبًا، وهجًا من الفلوروسنت اللبنفسجي-الأرجواني الشاحب، يرتجف بفعل نسيم الليل. لم أتمكن لفترة من الفهم، ثم عرفت أنه لا بد أن يكون العشب الأحمر الذي انطلق منه هذا الإشعاع الخافت. ومع هذا الإدراك، استيقظ شعوري الخامد بالتعجب، كما استيقظ إحساسي بنسبة الأشياء. نظرت إلى المريخ، أحمر وواضح، يتوهج عاليًا في الغرب؛ ثم حدقت طويلًا وبجدية فى ظلام هامستيد وهايجيت.

بقيت على السطح فترة طويلة، أتساءل عن التغيرات البشعة التي حدثت اليوم. تذكرت حالاتي العقلية، من صلاة منتصف الليل إلى حماقة لعب الورق. شعرت باشمئزاز عنيف. أتذكر أنني ألقيت السيجار بإسراف رمزي. أدت بي حماقتي إلى مبالغة صارخة. بدوت خائنًا لزوجتي وجنسي البشري، واعتراني الندم. قررت ترك هذا الحالِم الغريب غير المنضبط، الذي يحلم بأشياء عظيمة ويهتم بشرابه وشراهته، وأن أتوجه إلى لندن. تصورت أنني قد أجد فرصة أفضل لمعرفة ما يفعله المريخيون وما يفعله زملائي البشر. كنت لا أزال على السطح عندما ارتفع القمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(8)
لندن بلا حياة

افترقت عن جندي المدفعية، ونزلت من التل، واتخذت هاي ستريت عبر الجسر في اتجاه فولهام. وكان العشب الأحمر كثيفًا في ذلك الوقت، وخنق تقريبًا طريق الجسر. على أن أوراقه كانت تحوى بقعًا بيضاء بالفعل بسبب انتشار مرض كان يقضى عليه بسرعة.

وجدت رجلًا ممددًا على الأرض عند ناصية الزقاق الذي يمتد إلى محطة جسر بوتني. اكتسب وجهه اللون الأسود، مثل عامل تنظيف المداخن، نتيجة للغبار الأسود. كان حيًّا، لكنه بلا حول ولا قوة، وفي حالة سكر تحول دون قدرته على الكلام. لم أحصل منه على شيء، سوى اللعنات واللكمات الغاضبة في رأسي. أعتقد أنني كان يجب أن أبقى بجانبه، لولا التعبير الوحشى على وجهه.

امتلأ الطريق، بدءًا من الجسر، بغبار أسود؛ ثم ازدادت كثافته في فولهام. كانت الشوارع هادئة على نحو مرعب. حصلت على طعام -رديء وناشف ومتعفن، لكنه صالح للأكل- في أحد المخابز هنا. وعلى الطريق في اتجاه والهام جرين، خلت الشوارع من الغبار. مررت بصف أبيض من منازل تحترق، وأشعرني ضجيج الحريق براحة شديدة. عاد هدوء الشوارع ثانية خلال الطريق فى اتجاه برومبتون.

وهنا وجدت الغبار الأسود يملأ الشوارع وفوق جثث الموتى. رأيت ما يصل مجموعه إلى حوالي اثنتي عشرة جثة على طول طريق فولهام، مات أصحابها منذ عدة أيام؛ فأسرعت خطواتي لأتجاوزهم. غطى الغبار الأسود تلك الجثث، وأخفى ملامحهم. كما نهشت الكلاب جثة أو جثتين.

وفي الأماكن التي خلت من الغبار الأسود، كان الوضع أشبه بيوم الأحد في المدينة؛ حيث المحلات التجارية مغلقة، والمنازل موصدة، والستائر مسدلة، فضلًا عن هجر المكان وسكونه. نشط اللصوص في بعض الأماكن، وخاصة في محال المؤن والنبيذ. كانت نافذة أحد محال بيع المجوهرات مكسورة، ولكن يبدو أن شيئًا ما أزعج اللص؛ إذ تناثر عدد من السلاسل الذهبية وساعة على الرصيف. لم أهتم بلمسها. رأيت على مسافة أبعد امرأة رثة الثياب في كومة عند عتبة باب. وكانت يدها الموضوعة على ركبتها مجروحة جرحًا شديدًا وتنزف على ثوبها البني الصدئ، بينما شكلت زجاجة شمبانيا كبيرة محطمة بركة عبر الرصيف. بدت المرأة نائمة، لكنها كانت ميتة.

كلما توغلت في لندن، زاد السكون عمقًا. لكنه لم يكن سكون الموت، بل سكون القلق والترقب. كان متوقعًا أن الدمار الذي لحق فعلًا بالحدود الشمالية الغربية للمدينة، وأباد إيلينج وكيلبورن، قد يلحق أيضًا في أي لحظة بهذه المنازل ويتركها أطلالًا تنفث الدخان. لقد أصبحت المدينة مهجورة تمامًا...

أما في جنوب كنسينجتون، فقد خلت الشوارع من القتلى ومن الغبار الأسود. وسمعت بالقرب من جنوب كنسينجتون صوت عواء لأول مرة. تسلل الصوت تدريجيًّا إلى حواسي. كان نحيبًا متعاقبًا: «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا»، ومستمرًّا. زاد ارتفاع الصوت عند مروري بالشوارع التي تتجه شمالًا، ثم بدا أن المنازل والمباني تخفف منه وتقطعه. لكنه ارتفع بقوة في طريق اجزيبيشن. توقفت، محدقًا نحو حدائق كنسينجتون، متعجبًا بشأن هذا النحيب البعيد. كان الأمر كأنما تلك الصحراء الجبارة من المنازل قد وجدت صوتًا لخوفها وعزلتها.

«أوولا، أوولا، أوولا، أوولا»، ارتفع ذلك النحيب بنبرة رهيبة- موجات هائلة من الصوت تجتاح الطريق الواسع المضاء بأشعة الشمس، بين المباني العالية على كل جانب. استدرت شمالًا، متعجبًا، نحو البوابات الحديدية لحديقة هايد بارك. فكرت في اقتحام متحف التاريخ الطبيعي، ثم أجد طريقي إلى قمم الأبراج، للنظر عبر الحديقة. لكنني قررت عدم

الصعود والبقاء على الأرض، حيث الاختباء السريع ممكنًا، وهكذا توجهت إلى طريق اجزبيشن رود. كانت جميع القصور الكبيرة على جانبي الطريق خالية وساكنة، وتردد صدى خطواتي على جانبي المنازل. رأيت مشهدًا غريبًا في أعلى الشارع، بالقرب من بوابة الحديقة– انقلبت حافلة، ونُزع لحم حصان ولم يبق منه سوى الهيكل العظمي. أثار هذا المشهد حيرتي للحظات، ثم توجهت إلى الجسر فوق بحيرة سربنتين. ارتفع الصوت أقوى، على الرغم من أنني لم أرَ أي شيء فوق أسطح المنازل على الجانب الشمالي من الحديقة، إلا ضبابًا من الدخان في اتجاه الشمال الغربي.

«أوولا، أوولا، أوولا، أوولا»، صاح الصوت، وبدا لي قادمًا من المنطقة المحيطة بريجنت بارك. أثرت الصرخة الكئيبة على ذهني؛ مما أجهز على حالتي المزاجية التي كانت تشد أزري. سيطر عليَّ ذلك النحيب. كنت مرهقًا للغاية، ومتقرح القدمين، والآن جائع وعطشان.

كان الوقت بعد الظهيرة. لماذا كنت أتجول وحدي في مدينة الموتى هذه؟ لماذا كنت وحدي عندما كانت لندن كلها ترقد في كفنها الأسود؟ شعرت بوحدة لا تُطاق. تذكرت أصدقائي القدامى، الذين كنت قد نسيتهم لسنوات. فكرت في السموم الموجودة في متاجر الكيميائيين، والمشروبات الكحولية التي يخزنها تجار النبيذ؛ تذكرت الرجلين المخمورين اليائسين اللذين، بقدر ما أعرف، يشاركانني المدينة...

وصلت إلى شارع أكسفورد عن طريق ماربل آرش؛ وهنا وجدت المسحوق الأسود، والعديد من الجثث، فضلًا عن رائحة شريرة تنذر بالسوء، تنبعث من شبكات أقبية بعض المنازل. زاد عطشي بعد أن لفحتني حرارة المشي لمسافة طويلة. وبعد مشاكل لا حصر لها، تمكنت من اقتحام حانة وحصلت على الطعام والشراب. شعرت بالإرهاق بعد تناول الطعام، فذهبت إلى ردهة خلف البار، ونمت على أريكة مصنوعة من شعر حصان أسود وجدتها هناك.

استيقظت لأجد ذلك العويل الكئيب لا يزال في أذني «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا». كانت فترة الغسق الآن. أخرجت بعض البسكويت والجبن من البار، ثم وجدت خزانة لحفظ اللحوم، لكنها لم تضم سوى الدود ويرقات الذباب. تجولت خلال الساحات السكنية الصامتة حتى وصلت إلى شارع بيكر –ميدان بورتمان هو الوحيد الذي أتذكر اسمه– ثم وصلت أخيرًا إلى حديقة ريجنت بارك. وعندما خرجت من أول شارع بيكر، رأيت عن بعد أعلى من الأشجار، في ظل صفاء غروب الشمس، قلنسوة مريخي عملاق كان هو مَن يطلق ذلك العواء. لم أرتعب، بل توجهت نحوه كما لو كان الأمر طبيعيًا. راقبته لبعض الوقت، لكنه لم يتحرك. بدا أنه يقف ويصرخ، ولم أستطع معرفة السبب.

حاولت وضع خطة عمل، لكن ذلك الصوت الدائم «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا» أربك عقلي. ربما كنت متعبًا إلى حد حال دون خوفي. وبالتأكيد كان فضولي الشديد لمعرفة سبب هذا العويل الرتيب أكبر من خوفي. ابتعدت عن الحديقة وسرت في شارع بارك رود، عازمًا على الالتفاف حول الحديقة، واتخذت من شرفات المنازل غطاء لإلقاء نظرة على هذا المريخي الذي يقف في جمود وهو يعوي، من اتجاه سان جونس وود. وعلى بُعد بضع مئات من الياردات من شارع بيكر، انطلق صراخ جماعي، ورأيت بداية كلبًا وبين فكيه قطعة من لحم أحمر متعفن ويركض في اتجاهي، تطارده مجموعة من الكلاب الهجين الجائعة. تحرك الكلب في منحنًى واسع ليتجنبني، كأنما يخشى أن أكون منافسًا جديدًا. ومع اختفاء أصوات النباح على الطريق الصامت، عاد صوت النحيب، «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا»، ليؤكد نفسه.

رأيت إحدى آلات المناولة محطمة في منتصف الطريق إلى محطة سانت جونس وود. تصورت في البداية أن منزلًا سقط عبر الطريق. تسلقت الأنقاض، ورأيت في البداية هذا العملاق الميكانيكي راقدًا ومجساته منحنية ومحطمة وملتوية بين الأنقاض التي تسبب فيها. لقد تحطم الجزء الأمامي منه. بدا الأمر كأنما الآلة تحركت بشكل أعمى نحو المنزل مباشرة، وانهار المنزل عليها. تصورت بعد ذلك أن تحطيم الآلة ربما حدث نتيجة إفلاتها من

توجيهات المريخي لها. لم أتمكن من تسلق الأنقاض كاملةً لرؤيتها، وكان قد مر وقت على ظهور الشفق بحيث لم أتمكن من مشاهدة الدم الذي تلطخ به مقعدها، ولا الغضروف المتآكل الذى تركته الكلاب بعد نهش المريخى.

دفعني تعجبي من كل ما رأيته إلى التوجه نحو بريمروز هيل. رأيت المريخي الثاني على بُعد، من خلال فجوة في الأشجار. كان يقف صامتًا بلا حراك، مثل المريخي السابق، في حديقة باتجاه حدائق الحيوان. وعلى مسافة قصيرة خلف الأنقاض المتناثرة حول آلة المناولة المحطمة، وجدت الأعشاب الحمراء مرة أخرى، كما وجدت قناة ريجنت عبارة عن كتلة إسفنجية من غطاء نباتى باللون الأحمر الداكن.

توقف صوت النحيب، «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا»، عندما عبرت الجسر. لقد تلاشى، وأصبح الصمت مثل قصف الرعد.

كانت المنازل المكفهرة حولي باهتة، وطويلة، ومعتمة؛ وكانت الأشجار باتجاه الحديقة تزداد سوادًا. تنامت الأعشاب الحمراء في كل مكان حولي متسلقة بين الأنقاض، تتلوى في العتمة لتصل إلى ارتفاع أعلى مني. كان الليل، وهو أساس الخوف والغموض، يقترب. تمكنت من تحمل الخراب عندما كان ذلك النحيب بمثابة صوت العزلة؛ فبفضله بدت لندن لا تزال حية، وقد ساعدني هذا الشعور بالحياة. ثم طرأ تغير مفاجئ، حدوث شيء - لم أكن أعرف ماذا - ثم سكون يمكن الشعور به. لا شيء سوى هذا الهدوء الهزيل.

حدقت لندن الشبحية نحوي؛ إذ كانت النوافذ في البيوت البيضاء مثل محاجر الأعين في الجماجم. وجدت مخيلتي ألف عدو يتحركون حولي بلا ضوضاء. تملكني الرعب؛ رعب من تهوري. أصبح الطريق أمامي حالك السواد، كأنما غطاه القطران. ورأيت شكلًا ملتويًا مستلقيًا على الطريق. لم أستطع أن أجبر نفسي على الاستمرار. استدرت في اتجاه طريق سانت جونس وود، ثم فررت بغير تردد من هذا السكون الذي لا يُطاق إلى كيلبورن. اختبأت من الليل والصمت، إلى ما بعد منتصف الليل بفترة طويلة، في سقيفة لسائقي مركبات الأجرة في طريق هارو. لكني استعدت شجاعتي قبل الفجر، واستدرت ثانية في اتجاه ريجينت بارك والنجوم لا تزال في السماء. فقدت طريقي بين الشوارع؛ وفي الضوء الخافت لبداية الفجر، رأيت شارعًا طويلًا، منعطف بريمروز هيل. ورأيت في قمته المريخي الثالث، يكاد ارتفاعه أن يصل إلى النجوم التى تخبو، وكان يقف بلا حراك مثل الآخرين.

تملكتني عزيمة مجنونة. قد أموت وينتهي الأمر، دون حتى أن أكلف نفسي عناء الانتحار. سرت بتهور نحو هذا العملاق. وعندما اقتربت منه وزاد الضوء، رأيت العديد من الطيور السوداء تدور وتتجمع حول قلنسوته. خفق قلبي بقوة، وبدأت أركض على طول الطريق.

أسرعت خلال الأعشاب الحمراء التي سدت طريق سانت إدموند تيراس (خضت في مياه متدفقة يصل ارتفاعها إلى صدري، سيل يندفع من محطات المياه في اتجاه ألبرت رود)، إلى أن وصلت إلى أرض عشبية قبل شروق الشمس. تكدست أكوام كبيرة حول قمة التل، ما جعلها تشكل متراسًا كبيرًا– كان آخر وأكبر موقع صنعه المريخيون – وتصاعد خلف تلك الاكوام دخان رقيق إلى السماء. شاهدت كلبًا يركض مضطربًا، ثم اختفى. أخذت الفكرة التي تومض في ذهني تنمو كحقيقة، وذات مصداقية. لم أشعر بأي خوف، إنما فقط بابتهاج جامح ومرتجف، وأنا أركض إلى أعلى التل نحو الوحش الواقف بلا حراك. تدلت من قلنسوته بقايا ضامرة بنية اللون، كانت الطيور الجائعة تنقرها وتمزقها.

اندفعت في لحظة تالية متسلقًا كومة التراب ووقفت على قمتها، وكان الجزء الداخلي منها يقع أسفلي. يا لها من مساحة هائلة، تضم داخلها آلات عملاقة هنا وهناك، فضلًا عن أكوام ضخمة من المواد وأماكن غريبة للإيواء. وتناثر حولها المريخيون موتى! - بعضهم داخل آلات الحرب المقلوبة، وبعضهم داخل آلات المناولة، ودزينة منهم ترقد متصلبة وصامتة في صف واحد– قضت عليهم البكتيريا المسببة للتعفن والمرض، التي كانت أجسامهم غير مستعدة لها. قضت عليهم مثلما قضت على الأعشاب الحمراء؛ قضت عليهم

بعد أن فشلت كل أجهزة الإنسان في القضاء عليهم؛ قضت عليهم أدنى الأشياء التي خلقها الرب، بحكمته، على هذه الأرض.

وهكذا انتهى الأمر. كان بإمكاننا، في واقع الأمر، أن نتوقع ذلك أنا والعديد من الرجال، لو لم يُعْمِ الرعب والكارثة عقولنا. لقد حصدت هذه الجراثيم أرواح البشر منذ بداية الأشياء– أرواح أسلافنا منذ بدء الحياة هنا قبل ظهور البشر. ولكن بفضل هذا الانتقاء الطبيعي لنوعنا، استطعنا تطوير قوة مقاومة؛ فنحن لا نموت بسبب الجراثيم دون مقاومة، كما أن أُطُر حياتنا مُحصنة تمامًا ضد العديد من الجراثيم– مثل تلك التي تسبب تعفن المادة الميتة. أما في المريخ، فلا توجد بكتيريا. وما إن وصل هؤلاء الغزاة، وشربوا وتغذوا، حتَّى بدأ حلفاؤنا المجهريون العمل للإطاحة بهم. وعندما شاهدتهم، كانوا بالفعل موتى بلا رجعة، كانوا يحتضرون ويتعفنون وهم يتحركون جيئةً وذهابًا. لم يكن هناك مفر. لقد اشترى البشر حقهم الأصيل في الحياة على كوكب الأرض بمليار من الوفيات، ضد جميع الغزاة؛ وسوف يظل كوكب الأرض مكانًا للبشر، حتى إن كانت قوة المريخيين عشرة أضعاف قوتهم الآن. فالبشر لا يعيشون أو يموتون عبثًا.

تناثر المريخيون هنا وهناك، حوالي خمسين مريخيًا، في تلك الهوة الواسعة التي صنعوها ولحق بهم هناك الموت؛ الموت الذي لا بد أنه لم يكن مفهومًا لهم، مثله مثل أي موت. لم يكن هذا الموت مفهومًا لي أيضًا في ذلك الوقت. كل ما عرفته هو أن هذه الأشياء التي كانت في قيد الحياة وأرعبت البشر، أصبحت ميتة. اعتقدت للحظة أن التدمير الذى تسبب فيه الملك سينحريب (29) قد تكرر، وأن ملاك الموت قتلهم ليلًا.

وقفت أحدق في الحفرة وقلبي يخفق فرحًا، حتى عندما أشرقت الشمس وغمرت العالم حولي بأشعتها. كانت الحفرة لا تزال مظلمة. على أن الآلات الجبارة –التي كانت كبيرة جدًّا ورائعة في قوتها وتعقيدها، وغير مألوفة في أشكالها الملتوية– كانت ترتفع بشكل غريب وغامض وسط الظلال نحو الضوء. سمعت أصوات العديد من الكلاب وهي تتقاتل على الجثث التي ترقد في عمق الحفرة المظلمة، أسفل مني بمسافة كبيرة. على الحافة البعيدة عند طرف الحفرة الآخر، توجد أكبر آلة مسطحة وواسعة وغريبة للطيران، كانوا يقومون بتجربتها في غلافنا الجوي الأكثر كثافة عندما أوقفهم التعفن والموت. أتاهم الموت في موعده. سمعت صوت نعيق فوقي. نظرت إلى أعلى، إلى آلة القتال الضخمة التي كفت عن القتال إلى الأبد، وإلى أشلاء اللحم الحمراء الممزقة التي تتساقط على المقاعد المقلوبة فوق قمة بريمروز هيل.

استدرت ونظرت إلى أسفل منحدر التل، حيث وقف المريخيان الآخران اللذان كنت قد رأيتهما في الليلة الماضية، والآن تحيط بهما الطيور بعد أن هاجمهما الموت. لقد مات أحدهما حتى وهو ينادي على مرافقيه. ربما كان آخر من مات، واستمر صوته إلى أن استُنفِدت قوته الآلية. تلمع الآلتان الآن، كأبراج ثلاثية القوائم وغير مؤذية من المعدن الساطع، فى ضوء الشمس المشرقة.

امتدت الأم العظمى للمدن، في كل مكان حول الحفرة، بعد أن حفظتها معجزة من الدمار الأبدي. إن كل مَن لم يرَ لندن إلا محتجبة في ردائها الدخاني الكئيب، يصعب عليه أن يتصور صفاء وجمال تلك المنازل الصامتة.

وفي الشرق، فوق الأنقاض السوداء لألبرت تيراس وبرج الكنيسة المتشقق، توهجت الشمس في سماء صافية، كما اكتسبت بعض جوانب أسطح المنازل هنا وهناك الضوء وتوهجت بيضاء بكثافة.

وفي الشمال، كانت كل من كيلبورن وهامبست زرقاء ومكتظة بالمنازل. وفي الغرب، كانت المدينة العظيمة معتمة. أما في الجنوب، وراء المريخيين، كانت الامتدادات الخضراء لحديقة ريجنت بارك، وفندق لانجام، وقبة قاعة ألبرت هول، والمعهد الإمبراطوري، والقصور العملاقة في طريق برومبتون، تبرز صافية وضئيلة مع شروق الشمس، بينما ترتفع أطلال وستمنستر ضبابية في الخلف. ولمعت عن بُعد، كقضيبين فضيين، التلال الزرقاء في

سووري وأبراج القصر البللوري. على أن قبة سانت بول كانت معتمة في مواجهة شروق الشمس، ورأيت للمرة الأولى الفجوة الكبيرة فى جانبها الغربى.

نظرت إلى هذه المساحة الشاسعة من المنازل والمصانع والكنائس، صامتة ومهجورة؛ وفكرت في تلك الآمال والجهود المتعددة، وذلك العدد الذي لا يُحصى من الأرواح التي وهبت نفسها لبناء هذه السلسلة البشرية، والدمار السريع والقاسي الذي خيم على ذلك كله. وعندما أدركت أن الظل قد تراجع، وأن البشر لا يزالون يعيشون في الشوارع، وأن مدينتي العزيزة الشاسعة الميتة قد استعادت حياتها وقوتها، شعرت بموجة من المشاعر أقرب إلى البكاء.

لقد انتهى العذاب، وسيبدأ الشفاء في اليوم نفسه. أما البشر الناجون المنتشرون في أنحاء البلد –بلا قادة، ولا سيادة، ولا غذاء، مثل قطيع من الأغنام بلا راع– تلك الآلاف التي فرت عن طريق البحر، فسوف يبدأون في العودة؛ وسوف ينمو نبض الحياة أقوى وأقوى ويملأ الشوارع الخالية، ويتدفق إلى الميادين الشاغرة. ومهما كان الدمار الذي حدث، فقد كفت يد المُدمِّر. وسوف يتردد صدى مطارق البنائين والمرممين ورنين مجارفهم بين حطام المنازل وهياكلها السوداء التي تحدق بشكل مفزع في أعشاب التل المضاءة بأشعة الشمس. ومع هذا التفكير، مددت يدي نحو السماء شاكرًا الرب. في غضون عام، أظن... في غضون عام...

اعتراني تفكير ساحق في نفسي، وفي زوجتي، وفي الحياة القديمة المليئة بالأمل والعطاء التى توقفت إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(9)
الأطلال

ويأتي الآن أغرب شيء في قصتي. إلا أنه، ربما، ليس غريبًا تمامًا. أتذكر، بوضوح وفتور وحيوية، كل ما فعلته في ذلك اليوم إلى أن وقفت أبكي وأشكر الرب على قمة بريمروز هيل. وبعد ذلك نسيت.

لا أعرف شيئًا عن الأيام الثلاثة التالية. عرفت لاحقًا –بعيدًا عن كوني أول مَن اكتشف نهاية المريخيين– أن العديد من الهائمين مثلي قد اكتشفوا هذا بالفعل في الليلة السابقة. فقد ذهب رجل -أول رجل- إلى سانت مارتن لو جراند، وتمكن من إرسال برقية إلى باريس، بينما كنت أحتمي داخل سقيفة سائقي عربات الأجرة. وبالتالي انتشرت الأخبار السارة في أنحاء العالم أجمع. وفجأة أنارت ألف مدينة أضواءَها الباهرة، بعد أن كانت مرتعدة من مخاوف مروعة. وعندما كنت أقف على حافة الحفرة، كان الناس يعرفون بالفعل في دبلن، وإدنبره، ومانشستر، وبرمنجهام. سمعت الناس يبكون فرحًا، ويتصايحون ويتركون عملهم ليتصافحوا ويصرخوا، ويقوموا بإصلاح القطارات، حتى بالقرب من كرو، لينزلوا إلى لندن. وما إن وصلت الأخبار إلى الكنائس، حتى بدأت أجراسها -التي توقفت أسبوعين– تقرع في جميع أنحاء إنجلترا. وهناك رجال، وجوههم هزيلة ومظهرهم رث، يركبون دراجات وينطلقون مسرعين في كل زقاق وشارع على طول البلد وعرضها يصيحون فرحًا للخلاص غير المتوقع، في مواجهة الأشخاص الواهنة التي تحدق في يأس. أما عن الطعام! كان الذرة والخبز واللحوم يتدفق لإغاثتنا عبر بحر المانش، والبحر الأيرلندي، والمحيط الأطلنطي. بدا كل الشحن في العالم متجهًا إلى لندن في تلك الأيام. لكن ذلك كله غاب عن ذاكرتي. لقد اختل عقلي، أصبحت معتوهًا. وجدت نفسي في منزل أناس لطفاء، وجدوني في اليوم الثالث أتجول وأهذي باكيًا في شوارع سانت جونس وود. أخبروني أنني كنت أتفوه ببعض الهراء والخبل: «آخر رجل بقي حيًّا، مرحى! آخر رجل بقي حيًّا!». وعلى الرغم من انشغالهم بشؤونهم الخاصة، فإن هؤلاء الناس -الذين بقدر ما أود أن أعرب عن امتناني لهم، لن أذكر أسماءهم هنا– تكبدوا عناء رعايتي وإيوائي وحمايتي من نفسي. ويبدو أنهم عرفوا منى شيئًا عن قصتى خلال أيام اضطرابى.

وعندما استعدت عقلي ثانية، أخبروني بلطف شديد ما عرفوه عن مصير ليذرهيد. لقد دمرها أحد المريخيين بعد يومين من حبسي، دمر كل كائن حي فيها. يبدو أنه محا وجودها دون أن يستفزه أحد، مثل صبى يسحق تلة نمل لمجرد سيطرة سلطته.

كنت وحيدًا، وكانوا في منتهى الطيبة معي. كنت وحيدًا وحزينًا، وتحملوا معي. بقيت معهم أربعة أيام بعد شفائي. كنت أشعر طوال ذلك الوقت بشغف غامض ورغبة متزايدة للبحث مرة أخرى عن كل ما تبقى من حياتي الصغيرة التي بدت سعيدة ومشرقة للغاية في الماضي. كانت مجرد رغبة يائسة تُغذي بؤسي. نصحوني بالعدول عن ذلك، وفعلوا كل ما في وسعهم لإبعادي عن هذه الفكرة المريضة. لكنني في النهاية لم أستطع مقاومة رغبتي، ووعدتهم بإخلاص أن أعود إليهم. أعترف أنني فارقت هؤلاء الأصدقاء باكيًا، بعد أن أمضيت معهم أربعة أيام، وخرجت ثانية إلى الشوارع التي كانت في الآونة الأخيرة مظلمة وغريبة وخالية.

كانت الشوارع مزدحمة فعلًا بالعائدين؛ ووجدت حتى متاجر مفتوحة، كما رأيت نافورة مياه جارية.

أتذكر مدى سخرية إشراق اليوم الذي اتخذت فيه طريقي الكئيب إلى المنزل الصغير في ووكينج، ومدى ازدحام الشوارع والحياة النشطة من حولي. كان الناس في الخارج في كل مكان، منشغلين بألف نشاط، بحيث بدا من غير المعقول أن نسبة كبيرة من السكان قد

قُتِلت. بيد أنني لاحظت بعد ذلك كيف أصبحت بشرة الناس شاحبة، وكيف أصبح شعرهم أشعث، وكيف أصبحت أعينهم كبيرة ولامعة، وأنهم لا يزالون يرتدون ملابس رثة. اتخذت وجوههم جميعًا أحد تعبيرين: ابتهاجًا مفاجئًا وطاقة، أو قرارًا كئيبًا. وباستثناء تعبيرات الوجوه، بدت لندن مدينة الصعاليك. كانت مجالس الكنائس توزع دون تمييز الخبز الذي ترسله لنا الحكومة الفرنسية. برزت ضلوع بعض الخيول بشكل مفزع. ووقف رجال الشرطة المنهكين، بشاراتهم البيضاء، عند نواصي الشوارع. رأيت القليل من الأذى الذي أحدثه المريخيون، إلى أن وصلت شارع ولينجتون، وهناك رأيت الأعشاب الحمراء متسلقة فوق دعامات جسر واترلو.

رأيت أيضًا عند زاوية الجسر أحد التناقضات الشائعة في ذلك الوقت البشع -ورقة تتمايل أمام أيكة من الأعشاب الحمراء، ومثبتة في مكانها بعصا. كانت إعلانًا لأول صحيفة تستأنف الصدور- الديلي ميل. اشتريت نسخة بشلن أسود وجدته في جيبي. كانت الصحيفة في معظمها خالية، لكن مسؤول الطباعة الوحيد الذي قام بذلك كان يسلي نفسه بعمل تخطيط غريب للإعلان على الصفحة الأخيرة. كانت المواد التي تولى كتابتها وطبعها تتسم بنبرة عاطفية؛ أما ترتيب الأخبار، فلم يعُد كما كان بعد. لم أعرف شيئًا جديدًا سوى أن فحص الآلات المريخية قد أسفر بالفعل، خلال أسبوع واحد، عن نتائج مذهلة. كما أكد لي المقال، من بين أمور أخرى، ما لم أكن أتصورها في ذلك الوقت: أن «سر الطيران» قد تم اكتشافه. وجدت في واترلو القطارات المجانية التي تنقل الناس إلى منازلهم. انتهت بالفعل أول موجة ازدحام، وضم القطار عددًا قليلًا من الناس. لم أكن في مزاج لأي حديث عابر. حصلت على مقصورة لنفسي. جلست وربعت ذراعيّ، وتطلعت من النافذة بحزن نحو الدمار الذي تضيئه أشعة الشمس. خارج المحطة مباشرة، اهتز القطار فوق القضبان المؤقتة؛ وكانت المنازل على جانبي السكك الحديدية عبارة عن أنقاض سوداء. وفي اتجاه تقاطع كلافام، كان وجه لندن مكسوًّا بمسحوق الدخان الأسود، على الرغم من العواصف الرعدية والأمطار لمدة يومين. وفي المحطة نفسها، كان الخط مُدمَّرًا؛ وهناك المئات من الموظفين وأصحاب المتاجر العاطلين عن العمل يشاركون عمال الحفر في عملهم، ونحن نتطلع إلى سرعة التحرك مرة أخرى.

كانت مشهد البلد كئيبًا وغريبًا على طول الخط؛ وقد عانت ويمبلدون بشكل خاص. أما والتون، وبفضل عدم احتراق غابات الصنوبر، فقد بدت أقل ضررًا من أي مكان آخر على طول الخط. كان النهران واندل ومول، وكل جدول مائي صغير، عبارة عن كتلة مكدسة من الأعشاب الحمراء، وتبدو في مظهرها كشيء ما بين لحم الجزار والملفوف المخلل. لكن غابات الصنوبر في سووري كانت شديدة الجفاف، بسبب سلاسل العشب الأحمر المُتسلِّق. وفي أحد المشاتل، على مرمى البصر بعد ويمبلدون، تكدست كتل ترابية حول الأسطوانة السادسة. وقف عدد من الناس حولها، بينما انشغل بها المهندسون العسكريون. وكان العلم البريطاني يرفرف فوقها بمرح في نسيم الصباح. أما عن أراضي المشتل، فقد أصبحت كلها قرمزية بسبب العشب؛ مساحة واسعة من لون زاهٍ، تقطعه ظلال أرجوانية مؤلمة جدًّا للعين. ارتاحت عيناي تمامًا عندما حولت بصري من اللون الرمادي المحترق والأحمر الكئيب أمامى إلى نعومة الأزرق والأخضر فى التلال باتجاه الشرق.

كان الخط على جانب لندن من محطة ووكينج لا يزال قيد الإصلاح، لذلك نزلت في محطة بايفليت وسلكت الطريق نحو مايبوري، بعد المكان الذي تحدثت فيه أنا وجندي المدفعية مع الجنود في سلاح الفرسان، وفي المكان الذي ظهر فيه المريخي أمامي أثناء العاصفة الرعدية. وهنا التفتُّ جانبًا، بدافع الفضول، لأجد بين مجموعة متشابكة من السعف الأحمر العربة المشوهة المكسورة وعظام الحصان المبيضة التي تناثرت بعد قضمها. توقفت لفترة أنظر إلى تلك البقايا...

رجعت بعد ذلك خلال غابة الصنوبر، حيث الأعشاب الحمراء تتناثر هنا وهناك ويصل ارتفاعها إلى رقبتي. وجدت أن مالك حانة «الكلب المرقط» قد مات بالفعل؛ وبالتالي ذهبت

إلى المنزل مارًّا بكلية كوليدج أرمز. وجَّه إليَّ رجل، يقف على باب كوخ مفتوح، التحية بالاسم عند مروري.

نظرت إلى بيتي بومضة أمل سريعة، لكنها تلاشت على الفور. كان الباب مكسورًا، وأخذ ينفتح ببطء عند اقترابي.

أُغلِق الباب بعنف ثانية. كانت ستائر غرفة مكتبي ترفرف من النافذة المفتوحة التي شاهدت منها الفجر أنا وجندي المدفعية. لم يغلق أحد النافذة منذ ذلك الحين. لا تزال الشجيرات المحطمة كما هي منذ أن تركتها منذ أربعة أسابيع تقريبًا. سرت متعثرًا ودخلت الردهة، وشعرت بالمنزل خاليًا. كانت سجادة السلم مجعدة وباهتة اللون، حيث كنت جثمت فوقها مبللًا تمامًا من العاصفة الرعدية في ليلة الكارثة. لا تزال آثار أقدامنا الموحلة واضحة فوق درجات السلم.

تتبعت هذه الآثار وصولًا إلى غرفة مكتبي. وجدت أوراق العمل -التي تركتها بعد ظهر يوم فتح الأسطوانة- لا تزال ملقاة على طاولة الكتابة وفوقها ثقالة الورق. وقفت لفترة أقرأ أطروحاتي المهجورة. كانت ورقة عن التطور المحتمل للأفكار الأخلاقية مع تطور العملية الحضارية؛ وكانت الجملة الأخيرة بمثابة افتتاحية نبوءة، كتبت: «بعد حوالي مائتي عام، قد نتوقع...»، انتهت الجملة فجأة. تذكرت عدم قدرتي على تركيز أفكاري في ذلك الصباح، فقد مر شهر تقريبًا، وكيف توقفت للحصول على جريدة ديلي كرونيكل اليومية من بائع الصحف. تذكرت كيف نزلت إلى بوابة الحديقة، وجاء البائع على الفور، وكيف استمعت إلى قصته الغريبة عن «الرجال الذين أتوا من المريخ».

نزلت إلى الطابق السفلي وذهبت إلى غرفة الطعام. وجود لحم ضأن وخبز، وكلاهما تعفن. وجدت أيضًا زجاجة بيرة مقلوبة- تمامًا كما تركتها أنا وجندي المدفعية. كان بيتي مقفرًا. أدركت حماقة الأمل الضعيف الذي تعلقت به لفترة طويلة. ثم حدث شيء غريب.

قال صوت: «لا فائدة، المنزل مهجور. لم يأتِ أحد إلى هنا طوال عشرة أيام. لا تبقي هنا لتعذبي نفسك. لم ينج أحد سواكِ».

انتابني ذهول. هل قلت أفكاري بصوت عالٍ؟ استدرت، وكانت النافذة الفرنسية مفتوحة خلفي. خطوت نحوها، ووقفت أحدق النظر.

اندهشت وشعرت بالخوف. وبينما وقفت مذهولًا وخائفًا، رأيت ابن عمي وزوجتي- كانت زوجتي شاحبة وبلا دموع؛ ثم أطلقت صرخة خافتة.

قالت: «أنا جئت. كنت أعرف... كنت أعرف...».

وضعت يدها على فمها ثم تمايلت. خطوتُ خطوة إلى الأمام واحتضنتها بين ذراعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(10)
الخاتمة

لا يسعني وأنا أختتم قصتي إلا أن أشعر بالأسف على قلة ما أستطيع المشاركة به في مناقشة العديد من المسائل المطروحة للنقاش ولا تزال غير محسومة. فمن ناحية، سوف أثير انتقادات بالتأكيد. فمجال تخصصي هو فلسفة التأمل، بينما تقتصر معرفتي بعلم وظائف الأعضاء المقارن على كتاب أو كتابين؛ ومع ذلك يبدو لي أن اقتراحات كارفر حول سبب وفاة المريخيين السريعة من المحتمل اعتبارها نتيجة مُثبتة. وهو ما افترضته في سردى.

على أي حال، أسفر فحص جميع أجسام المريخيين بعد انتهاء الحرب عن عدم العثور على أي بكتيريا باستثناء تلك الأنواع المعروفة على كوكب الأرض. كما أن عدم دفنهم لأي من موتاهم، فضلًا عن المذبحة الطائشة التي ارتكبوها، يشير أيضًا إلى جهلهم الكامل بعملية التعفن. وعلى الرغم من إمكانية هذا الاحتمال، إلا أنه ليس بأي حال من الأحوال استنتاجًا مُثبتًا.

كما أننا لا نعرف تركيب الدخان الأسود الذي استخدمه المريخيون بهذا التأثير القاتل، ولا يزال مولد الأشعة الحرارية لغزًا محيرًا. وقد أدت الكوارث الفظيعة التي وقعت في مختبري إيلينج وجنوب كنسينجتون إلى عدم رغبة المحللين في إجراء مزيد من الفحوص على مولد الأشعة الحرارية. ويؤكد التحليل الطيفي للمسحوق الأسود وجودَ عنصر غير معروف ضمن مجموعة متألقة من ثلاثة خطوط في الطيف الأخضر، وأنه يمكن أن يتحد مع غاز الأرجون لتكوين مُركّب يؤثر على الفور تأثيرًا مميتًا على بعض مكونات الدم. لكن مثل هذه التكهنات غير المثبتة لن تهم القارئ العام، الذي أتوجه إليه بهذه القصة. ولم تُفحص في ذلك الوقت، تلك الرغوة بنية اللون التي جنحت أسفل نهر التيمز بعد تدمير شيبرتون، وما من فحص وشيك الآن.

لقد سبق أن أشرت إلى نتائج الفحص التشريحي للمريخيين، بقدر ما سمح به ما تركته الكلاب الهائمة من أجسام المريخيين. لكن الجميع على دراية بالعينة الرائعة المكتملة تقريبًا في متحف التاريخ الطبيعي، والرسوم التي لا تُعد ولا تُحصى التي نتجت عنها. علاوة على ذلك، فإن الاهتمام بتركيبهم الفسيولوجى وبِنيتهم هو اهتمام علمى محض.

أما المسألة الأخطر والتي تحظى باهتمام عالمي، فهي إمكانية حدوث هجوم آخر من المريخيين. ولا أعتقد أن هذا الجانب ينال الاهتمام الكافي. كوكب المريخ حاليًا في وضع اقتران مع كوكبنا، لكنني أتوقع أنهم سيعاودون مغامرتهم مع كل عودة إلى وضع التقابل. على أي حال، ينبغي أن نكون مستعدين. ويبدو لي أننا لا بد أن نتمكن من تحديد موقع المدفع الذي تصدر عنه قذائفهم، وأن نواصل مراقبة هذا الجزء من كوكبهم، وأن نتوقع موعد وصول الهجوم التالى.

وفي هذه الحالة، قد يمكن تدمير الأسطوانة بالديناميت أو المدفعية قبل أن يتسنى للمريخيين الخروج منها، أو أن نبيدهم بمدافعنا بمجرد فتح غطائها. أعتقد أنهم فقدوا ميزة كبيرة عند فشل مفاجأتهم الأولى. وربما يرون الأمر على هذا النحو أيضًا.

وقد طرح ليسينج أسبابًا ممتازة لفرضية نجاح المريخيين بالفعل في الهبوط على كوكب الزهرة. فمنذ سبعة أشهر من الآن، كانت الزهرة والمريخ في وضع محاذاة مع الشمس؛ مما يعني أن المريخ كان في وضع التقابل من منظور مراقب على كوكب الزهرة. وبعد ذلك ظهرت علامة غريبة، مضيئة ومتعرجة، على النصف الداخلي غير المُضاء من الكوكب. وأمكن، في الوقت نفسه تقريبًا، اكتشاف علامة داكنة باهتة ذات طابع متعرج مماثل على صورة فوتوغرافية لقرص المريخ. يحتاج المرء إلى رؤية رسوم هذه المظاهر، بغية تقدير

كامل التشابه الملحوظ من حيث الطابع.

وعلى أي حال، سواء كنا نتوقع أو لا نتوقع غزوًا آخر، فإن تصوراتنا بشأن المستقبل البشري يجب تعديلها كثيرًا نتيجة هذه الأحداث. فقد تعلمنا الآن أننا لا نستطيع أن نعتبر كوكبنا مُحاطًا بسياج ومكانًا آمنًا للإنسان؛ ولا يمكننا أبدًا أن نتوقع الخير أو الشر غير المرئي الذي قد يأتينا فجأة من الفضاء. وقد يكون هذا الغزو من المريخ، في سياق التصميم الأكبر للكون، لا يخلو من فائدة نهائيّة للبشر؛ فقد سلبنا تلك الثقة المطمئنة في المستقبل، التي تعتبر أكبر مصدر للتفسخ، قدم فوائد هائلة لعلوم البشر، فضلًا عن دوره في تعزيز مفهوم المصلحة البشرية المشتركة. وربما شاهد المريخيون، عبر الفضاء الشاسع، مصير روادهم وتعلموا الدرس، ووجدوا على كوكب الزهرة مستوطنًا أكثر أمانًا. على أي حال، لن يتراخى البشر بعد الآن، ولسنوات عديدة قادمة، في الفحص الدقيق لقرص المريخ؛ وسوف تجلب تلك السهام النارية والشهب والنيازك، التي تسقط من السماء، خوفًا لا مفر منه لجميع أبناء البشر.

بالكاد ما يمكن المبالغة في ما أسفر عنه الغزو من اتساع في رؤية البشر. فقد ساد اقتناع عام، قبل سقوط الأسطوانة، بعدم وجود حياة في كل أعماق الفضاء، لا توجد حياة خارج السطح المحدود لكوكبنا الكروي الصغير. لكن رؤيتنا تغيرت الآن. إذا تمكن المريخيون من الوصول إلى كوكب الزهرة، فما من سبب يجعلنا نفترض أن الأمر مستحيل بالنسبة للبشر؛ وعندما تتسبب البرودة البطيئة للشمس في أن يصبح كوكبنا الأرضي غير صالح للسكنى، كما سيحدث في نهاية المطاف، قد يمكن أن يمتد خيط الحياة الذي بدأ هنا ويتدفق نحو الكوكب الشقيق.

استحضرت في ذهني رؤية مبهمة وبديعة عن انتشار الحياة ببطء من كوكبنا الصغير في هذا النظام الشمسي إلى جميع أنحاء ذلك الفضاء الشاسع الساكن حولنا. لكنه حلم بعيد. ومن ناحية أخرى، ربما يكون التدمير الذي كان يرغبه المريخيون قد تأجل لحين. فربما يكون المستقبل لهم، وليس لنا.

ولا بد أن أعترف أن شعوري بالإجهاد والخطر في ذلك الوقت قد ترك في ذهني إحساسًا دائمًا بالشك وعدم الأمان. أجلس في غرفة مكتبي، أكتب على ضوء المصباح، وفجأة أرى الوادي المنبسط مرة أخرى مشتعلًا بالنيران، وأشعر أن المنزل خلفي وحولي خالٍ ومقفرٌ. أخرج إلى شارع بايفليت، تمر بي العربات، صبي جزار في عربة، عربة أجرة مليئةً بالزوار، عامل على دراجة، أطفال يذهبون إلى المدرسة، وفجأة يصبح ذلك كله ضبابًا وغير حقيقي، وأسرع ثانية مع جندي المدفعية وسط الصمت الحار المضجِر. وفي الليل أرى المسحوق الأسود يغطي الشوارع الصامتة، كما أرى الأجسام تتلوى متألمة بعد أن غطتها طبقة من ذلك المسحوق؛ ينهضون حولي في ثياب رثة بعد أن تعرضوا لعض الكلاب. إنهم يثرثرون ويزدادون عنفًا وشحوبًا وقبحًا، وفي النهاية تصاب البشرية بتشوهات جنونية. وأستيقظ، باردًا وبائسًا، فى ظلام الليل.

أذهب إلى لندن وأرى الجموع المزدحمة في شارعي فليت وستراند، ويتبادر إلى ذهني أنها ليست سوى أشباح الماضي، تجوب الشوارع التي رأيتها صامتة وبائسة، أوهام في مدينة ميتة، وسخرية من الحياة في أجسام مصطنعة. ومن الغريب أيضًا أن أقف على تل بريمروز هيل -كما فعلت قبل يوم واحد من كتابة هذا الفصل الأخير- لأرى مساحة شاسعة من المنازل، تبدو معتمة وزرقاء خلال ضباب الدخان والبخار، تتلاشى في النهاية داخل السماء المنخفضة الغامضة، لأرى الناس يسيرون جيئةً وذهابًا بين أحواض الزهور فوق التل، وأرى المتفرجين الذين يحيطون بالآلة المريخية التي لا تزال تقف هناك، وأسمع ضجيج لعب الأطفال، وأتذكر عندما رأيت كل ذلك مشرقًا وواضحًا، جامدًا وصامتًا، مع بزوغ فجر ذلك اليوم العظيم الأخير.

والأغرب من ذلك كله هو أن أمسك يد زوجتي ثانية، وأتذكر أنني اعتبرتها –كما اعتبرتنى هى- فى عداد الموتى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمت بحمد الله وتوفيقه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

..



متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

Notes

[←1]

(1) فرضية السديم: هي فرضية تتعلق بنشأة الكون، وتشرح النظام الشمسي وتطوره، وغيره من المنظومات الكوكبية الأخرى. وتطرح أن النظام الشمسي يتكون من غاز وغبار ويدور حول الشمس – المترجمة.

[←2]

(2) الليمور: حيوان ثديي طويل الذنب، ذو فرو كثيف. بعض أنواعه شبيهة بالقردة، وبعضها الآخر يشبه الفئران أو السناجب – المترجمة.

وقبل أن نحكم عليهم بقسوة، علينا أن نتذكر الدمار الكامل الذي مارسه نوعنا البشري بلا رحمة، ليس فقط على الحيوانات- مثل أبقار البيسون الأمريكية، وطيور الدودو في موريشيوس، اللذين انقرضا– وإنما أيضًا على أعراقه الأدنى. لقد انتهى وجود التاسمانيين (3) تمامًا، على الرغم من شبههم بالبشر، في حرب إبادة شنها المهاجرون الأوروبيون، لمدة تصل إلى خمسين عامًا. هل نحن رسل الرحمة، حتى نشكو من المريخيين إذا حاربونا بالطريقة نفسها؟

[←3]

(3) التسمانيون: سكان أستراليا الأصليون – المترجمة.

[←4]

(4) جيوفاني سكياباريللي (Giovanni Schiaparelli): عالم فلكي إيطالي (1835-1910) – المترجمة.

[←5]

(5) التقابل/المقابلة (opposition): مصطلح في علم الفلك يشير إلى وجود جرمين سماويين في الجهة المقابلة لبعضهما عند رصدهما من موقع محدد – المترجمة.

[←6]

(6) المطياف: جهاز يستعمل لقياس الخواص الضوئية عبر نطاق معين من طيف الموجات الكهرومغناطيسية، ويقوم بالتحليل الضوئي للتعرف على مكونات المواد – المترجمة.

[←7]

(7) الكرونومتر: نوع من الساعات الدقيقة التي تُستخدم في البحرية – المترجمة.

[←8]

(8) دائرة البروج: دائرة كبرى تحدد مسار الشمس الظاهري السنوي بين النجوم (انعكاس لمسار كوكب الأرض حول الشمس)، ويطلق اسم كواكب البروج على الكواكب التي تمر بها تلك الدائرة – المترجمة.

[←9]

(9) نبات الخلنج: نبات أوراقه صغيرة وخشنة، وأزهاره لونها أرجواني أو أبيض - المترجمة.

[←10]

(10) جنس من الشجر ينتمي إلى الفصيلة الصنوبرية – المترجمة.

[←11]

(11) إحدى الشقيقات الثلاث المرعبات في الأساطير اليونانية، وكانت شعورهن من الثعابين – المترجمة.

[←12]

(12) الجملون: هو الجزء الأعلى من المثلث، والمقصود هو نوع من الأسقف المائلة مثلثة الشكل للبيوت والمباني– المترجمة.

[←13]

(13) طائر الدودو هو طائر منقرض كان يستوطن جزيرة موريشيوس – المترجمة.

[←14]

(14) البارومتر: جهاز لقياس الضغط الجوي – المترجمة.

[←15]

(15) النسرين: نوع من النباتات من الفصيلة الوردية. وهي مقوسة إلى الأسفل وشائكة وأوراقها بيضاوية الشكل، وأزهارها مستديرة تتكون من خمس ورقات بيضاء مشربة بحمرة خفيفة – المترجمة.

[←16]

(16) راتنج: مادة صمغية لزجة تخرج من لحاء بعض الأشجار كالصنوبر، وهي مادة سريعة الاشتعال – المترجمة.

[←17]

(17) جهاز لإرسال البرقيات لاسلكيًا باستخدام الشمس – المترجمة.

[←18]

(18) يقصد المؤلف الزلزال الذي وقع في لشبونة عام 1755، وهو من أكثر الزلازل فتكًا وتدميرًا في التاريخ - المترجمة.

[←19]

(19) سدوم وعمورة: مدينتان مذكورتان في الأديان السماوية الثلاثة، وخسفهما الله بسبب ما يقترفه أهلهما من مفاسد – المترجمة.

[←20]

(20) جيش الخلاص: جماعة مسيحية دولية، تأسست في لندن عام 1865، وتقوم بأعمال خيرية لمساعدة الفقراء – المترجمة.

[←21]

(21) الإشارة هنا إلى مقاومة موسكو الباسلة لغزو نابليون لروسيا عام 1812 – المترجمة.

[←22]

(22) حوض لندن النهري: امتداد نهر التيمز من جسر لندن إلى أسفل لايمهاوس – المترجمة.

[←23]

(23) مدينة بومبي: مدينة إيطالية تقع على سفح جبل بركان فيزوف، الذي ثار عام 79م ودمر المدينة تمامًا – المترجمة.

[←24]

(24) شين: اسم مُختصر يُطلق أحيانًا على بلدة ريتشموند – المترجمة.

[←25]

(25) بخاخ البحر: حيوان بحري على شكل زجاجة، يقضي حياته ملتصقًا بجسم ثابت في قاع المحيط – المترجمة.

[←26]

(26) نسبة إلى كارك فيلهيلم أوتو ليلينتال (1848-1896)، أحد رواد الطيران، المعروف باسم ملك الطائرة الشراعية الألماني – المترجمة.

[←27]

(27) نبات من فصيلة البقوليات – المترجمة.

[←28]

(28) أشجار صغيرة من البقوليات، وذات عناقيد زهرية صفراء – المترجمة.

[←29]

(29) ملك الإمبراطورية الأشورية الحديثة (705-681 ق.م.) – المترجمة.